

جورج أورويل

متشرداً في باريس ولندن

ترجمة: سعدي يوسف

متشرداً في باريس ولندن

جــورج أورويـــل

متشرداً في باريس ولندن

ترجمة: سعدي يوسف

المدى

منشورات

٤٩

Author : George Orwell	اسم المؤلف : جورج أورويل
Title : Down and Out in Paris and London	عنوان الكتاب : متشرداً في باريس ولندن
Translator: Saadi Yousef	المترجم : سعدي يوسف
Al-Mada : Publishing Company	الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
First Edition 1997	الطبعة الأولى : ١٩٩٧
Copyright © Al-Mada	الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

«أيها الأذى المرير ، يا حال البؤس! »

تشوسر

1

درب الديك الذهبي ، باريس ، السابعة صباحاً . صيحاتٌ حانقةٌ خانقة تعلو متعاقبةً ، من الشارع . لقد خرجت مدام مونس متعهدةُ النُّزل الصغير الذي يواجه نُزلي ، إلى الرصيف ، لتنادي امرأةً ساكنةً في الطابق الثالث . كانت قدماها العاريتان محشورتين في قبقاب ، وشعرها الأشيب متهدلاً .

مدام مونس : «أيتها الوسخة ، أيتها الوسخة! كم أخبرتكِ ألا تقصعي البق على ورق الحائط ؟ أتظنين أنكِ اشتريتِ النزل ؟ لم لا ترمينها من الشبّاك مثل الآخرين ؟ أيتها العاهرة! أيتها الوسخة! » .

المرأة في الطابق الثالث : يا بقرة!

هكذا انطلقت جوقة متنوعة من الصيحات ، وأُشرعت النوافذ على جانبي الشارع الذي انضمّ نصفه إلى الشجار . بعد عشر دقائق صمتَ الناس بغتةً ، حين مرّت سريّة خيّالة ، فتوقّفوا عن الصياح ليتفرجوا .

غرضي من تخطيط هذا المشهد أن أنقل شيئاً من روح درب الديك الذهبي .

ليست المشاجرات هي الأمر الوحيد الذي يحدث هناك ـ لكن ، نادراً ما يطلع صباحٌ بدون أن نشهد انفجاراً كهذا . المشاجرات ، وزعقات الباعة الجوّالين ، وصيحات الأطفال وهم يتتبعون قشور البرتقال على الأحجار الرصيفة ، وفي الليل يكوّن الغناء المرتفع ، والرائحة الكريهة لعربات

القمامة ، جوَّ الشارع . كان درباً ضيقاً ، مَسيلاً من بيوتٍ مجذومة ، يميل واحدُها على الآخر في أوضاعٍ عجيبة ، كأنها تجمّدت وهي في وضع انهيارها . كل البيوت فنادق ، موسوقةٌ حتى قرميدها ، بالساكنين ، بولنديين وعرباً وإيطاليين في غالبهم . عند أسفل الفنادق كانت مشارب صغيرة حيث يمكن أن تغدو سكران بما يعادل شلناً واحداً . وفي ليالي السبت يكون ثلث سكان الحيّ من الذكور متعتعين سكراً . العركات على النساء كثيرة ، والشغّالون العرب الذين يسكنون أرخص الفنادق ألِفوا القيام بمشاجرات غامضة ، يخوضونها بالكراسي ، وبالمسدسات أحياناً . أما عسسُ الليل فلا يدخلون الشارع إلا إثنين إثنين . إنه لَمَرْبعٌ صاخبٌ . لكن ، وسط الضجة والقذارة يحيا حياتهم العادية أصحاب الدكاكين الفرنسيون المحترمون ، والخبّازون ، والغسّالات ، ومن يماثلهم ، مكتفين بأنفسهم ، مكدّسين بهدوءٍ ثرواتٍ صغيرة . دربُ الديك الذهبي ، يمثل ، حقاً ، حيّاً باريسياً فقيراً .

كان اسم النزل ، نزل العصافير الثلاثة ، وهو مبنى مظلمٌ ، متداعٍ ، من خمسة طوابق ، مقسَّمة بقواطع خشب ، إلى أربعين غرفة . كانت الغرف صغيرة ، بالغة القذارة ، إذ لم تكن ثمت خادمة ، كما أن مدام ف ، المالكة ، ليس لديها وقت لأي تنظيف . كانت الجدران صفيقةً مثل خشب رقيق ، وقد أُخفيتْ شقوقها بطبقات متعاقبة من الورق الوردي ، اهترأت مع الزمن لتؤوي بقّاً لا يُحصى . قرب السقف ، وطوال النهار ، تسير خطوطٌ مديدة من البق ، مثل طوابير جنود . وفي الليل تهبط ، متضوِّرة جوعاً ، حتى ليضطر المرء إلي القيام ، كل بضع سويعات ، ليقتلها في ما يشبه مجزرة . أحياناً ، يغدو الأمر لا يطاق ، يلجأ المرء إلى إحراق الكبريت فيطردها إلى الغرفة المجاورة ، حيث سيردُّ ساكنُها بكبرتة غرفته هو ، فيعيدها إلى حيث كانت . إنه مكانٌ قذرٌ ، لكنه أليفٌ ، إذ أن مدام ف ، وزوجها ، كانا طيبين . أما إيجار الغرف فيتراوح بين ثلاثين فرنكاً وخمسين ، للأسبوع .

كان النزلاء قوماً مترحلين ، أجانب في الغالب ، اعتادوا القدوم بلا حقائب ، والبقاء أسبوعاً ، ليختفوا ثانيةً . كانوا ذوي حرفٍ شتى ـ بلاّطين ، بنّائي طابوق ، حجّارين ، شغّالين ، طلبةً ، عاهراتٍ ، جامعي خِرَق . وكان بعضهم فقيراً بصورة خرافية .

في عِلِّيَةٍ ، كان طالب بلغاريّ ، يصنع أحذيةً زاهية للسوق الأميركية . كان يجلس على فراشه ، من الساعة السادسة حتى الثانية عشرة ، ليصنع دزينة من الأحذية هذه ، ويكسب خمسة وثلاثين فرنكاً ، أما بقية اليوم فيقضيها في محاضرات السوربون . كان يدرس للكنيسة ، وكانت الكتب الدينية ملقاة على وجوهها حيث الجلود تفرش الأرضية . وفي غرفة أخرى ، كانت تسكن امرأة روسية وابنها الذي يدعو نفسه فناناً . كانت الأم تعمل ست عشرة ساعة في اليوم تحوك الجوارب ، لتكسب خمسة وعشرين سنتيماً عن كل جورب ، بينما يطوف الإبن ، متأنقاً ، في مقاهي مونبارناس . إحدى الغرف مؤجرة لنزيلين مختلفين ، أحدهما عامل نهار ، والآخر عامل ليل . وفي غرفة أخرى يتقاسمُ مترمِّلٌ الفراش ذاته مع ابنتيه الشابتين ، المسلولتين كلتيهما .

كانت في النزل شخصيات غريبة الأطوار . إن أحياء باريس الفقيرة مَجمعٌ للناس غريبي الأطوار ـ إنهم قومٌ سقطوا في مهاوٍ للحياة ، منعزلة ، شبه مجنونة ، وتخلّوا عن محاولة أن يكونوا عاديين أو معقولين . لقد حررهم البؤس من المقاييس المألوفة للسلوك ، تماماً مثل ما يحرر المالُ الناسَ من العمل . وبين ساكني نُزلنا من عاشوا حيواتٍ أغرب من أن تعبر عنها الكلمات . هناك ، مثلاً آل روجيه ، وهما زوجان قزمان عجوزان ، يرتديان الأسمال ، ويحترفان حرفة عجيبة . لقد اعتادا بيع البطاقات البريدية في بوليڤار سان ميشيل . الغريب في الأمر أن هذه البطاقات البريدية كانت تباع في رزم مغلقة مثل صور البورنو ، إلا أنها كانت صوراً فوتوغرافية لقصورٍ على نهر اللّوار . المشترون لن يكتشفوا هذا إلا بعد فوات الأوان . ثم إنهم لم

يشتكوا البتة . آل روجيه يربحان مائة فرنك أسبوعياً ، وقد استطاعا بتقتيرٍ دقيق أن يظلا ، على الدوام ، نصف جائعين ، نصف مخمورين . كانت قذارة غرفتهما شنيعة إلى حد أن المرء يشمّ نتانتها من الطابق الأسفل . وتقول مدام ف إن آل روجيه لم يخلعا ملابسهما منذ سنوات أربع .

أو خذ هنري أيضاً ، الذي يشتغل في المجاري . كان رجلاً طويلاً ، كئيباً ، جعد الشعر ، ويبدو رومانتيكيّ الهيأة ، مع جزمة عامل المجاري الطويلة . خصوصية هنري أنه لا يتكلم إلا في شؤون عمله ، لأيامٍ عدّة فعلاً . لكنه ، قبل سنة فقط ، كان سائقاً في استخدام جيد ، وكان يوفّر مالاً . في أحد الأيام وقع في حب فتاة ، وحين رفضته الفتاة فقد سيطرته على نفسه وركلها . وما أن ركلها حتى تولّهت به الفتاة حباً ، فعاشا أسبوعين ، معاً ، وأنفقا ألف فرنك من مال هنري . ثم خانته الفتاة ، فغرز هنري سكيناً في أعلى ذراعها ، مما سبّب حبسه لستة أشهر . الفتاة ، بعد الطعنة ، صارت أشدَّ تعلقاً بهنري ، فأصلح الإثنان ما بينهما ، واتفقا على أنه في حال خروج هنري من السجن ، فسوف يشتري سيارة أجرة ، وسوف يتزوجان ويستقران . لكن ، بعد أسبوعين ، خانته الفتاة ثانيةً ، وحين خرج من السجن كانت مع طفل . لم يطعنها هنري ثانيةً . سحب كل مدّخراته ، ودخل في نوبة سكرٍ أدّت به ، من جديد ، إلى السجن ، يقضي فيه شهراً . بعد هذا ، ذهب ليعمل في المجاري . لا شيء يجعل هنري يتكلم . وإن سألته لمَ اشتغلَ في المجاري ، لم يجبك ، مكتفياً بمصالبة رسغيه إشارةً إلى الكلبجة ، وإمالة رأسه نحو الجنوب ، إشارة إلى السجن . ويبدو أن الحظّ العاثر أفقده نصف عقله ، خلال يومٍ واحد .

وهناك «ر» ، وهو إنجليزي ، يعيش ستة أشهر من السنة ، مع والديه ، في بوتني ، وستة أشهر في فرنسا . وخلال وقته في فرنسا يشرب أربعة ليترات نبيذ يومياً ، وستة لترات أيام السبت . وفي إحدى المرات ، سافر بعيداً حتى الآزور ، لأن النبيذ هناك أرخص من أي مكان في أوروبا . كان

مخلوقاً مهذباً لطيفاً ، لا صاخباً ولا متخاصماً ، ولا صاحياً . ومن عاداته أنه يظل في فراشه حتى منتصف النهار ، ومُذّاك حتى منتصف الليل يظل في زاويته بالمشرب ، هادئاً ، منتظماً ، منقوعاً بالنبيذ . وبينما هو يعبّ شرابه ، يظل يتحدث بصوت مهذبٍ ، أنثويّ ، عن الأثاث القديم .

ثمت آخرون كثار ، يحيون حيواتٍ غريبة كهذه : السيد جول الروماني ذو العين الزجاج التي لا يعترف بها ، فوركس الحجّار ، روكول البائس ـ مات قبل مجيئي ـ لوران العجوز تاجر الأسمال ، الذي اعتاد استنساخ إمضائه من مِزْقة ورقٍ يحملها في جيبه . طريفٌ أن أكتب بعض سيرهم الشخصية لو توافر لديّ الوقت .

أنا أحاول وصف الناس في حارتنا ، لا فضولاً حسبُ ، بل لأنهم جميعاً جزءٌ من قصتي . البؤس هو ما أشرعُ أكتب عنه ، البؤس الذي اتصلتُ به ، للمرة الأولى من حياتي ، في هذا الحي الفقير . الحيّ ، بقذارته وحيواته الغريبة ، كان للوهلة الأولى درساً موضوعياً ، مادةً دراسية ، للبؤس ، وصار فيما بعد ، خلفية تجاريبي الخاصة . ولهذا السبب ، أحاول أن أقدم فكرة ما ، عمّا كانت عليه الحياة هناك .

2

الحياة في الحيّ . «مَشْربُ»نا ، مثلاً ، أسفل نُزل العصافير الثلاثة . حجرة صغيرة ، مرصوفة أرضيتها بالطابوق ، نصف قبو ، ذات طاولات نقيعةٍ بالنبيذ ، وصورة فوتوغرافية لجنازة مع عبارة «الدَّين مات ، وعمّال بأنطقةٍ حمرٍ يقطعون المقانق بمُدى كبيرة ، ومدام ف ، وهي امرأة ممتازة فلاحة من أوفيرنون ذات وجه يشبه وجه بقرة ذكية ، تشرب شراب المالقا طوال اليوم «بسبب معدتها» ، وألعاب النرد من أجل الأشربة المشهية ، وأغان عن «الكرز والتوت البري» ، وعن مادلون التي قالت : «كيف أتزوج جندياً واحداً ، أنا التي تحب الكتيبة كلها ؟» ، وممارسة جنس علنية فاضحة . نصف نزلاء الفندق اعتادوا الالتقاء في المشرب مساءً . أقدم لك شارلي ، من غرائبنا المحلية ، أنموذجاً يتحدث . كان شارلي شاباً ذا أصل وتربية ، هرب من البيت وعاش على فتاتٍ عابرٍ . تصوَّرْهُ متورداً فتياً ، طريّ الخدين ، ذا شعرٍ بُنّي سَبْطٍ لصبي جميل ، مع شفتين جدّ حمراوين ورطبتين كالكرز . قدماه صغيرتان ، وذراعاه قصيرتان بصورة غير اعتيادية ، ويداه مكتنزتان مثل يدي طفل . كانت له طريقته في الرقص والنّطّ حين يتكلم ، كأنه من فرط سعادته وحيويته لا يستطيع أن يظل ساكناً للحظة واحدة . الساعة الثالثة عصراً ، ولا أحد في المشرب سوى مدام ف ، وواحدٍ أو إثنين من العاطلين ، لكن الأمر على حدٍّ سواء بالنسبة لشارلي ، إذ يظل يتحدث طالما كان

حديثه عن نفسه . وهو يتكلم بصوت مرتفع كأنه خطيب يعتلي متراساً ، مدوِّراً الكلمات على لسانه ، مشيراً بذراعيه القصيرتين ، وعيناه الصغيرتان الشبيهتان بعيني الخنزير تلتمعان حماسةً .

إنه يتحدث عن الحب ، موضوعه الأثير .

«آه ، الحب ، الحب! آه ، لقد قتلتني النساء! آه ، أيتها السيدات والسادة ، النساء ، كنّ خرابي ، خرابي بلا أمل . أنا في الثانية والعشرين ، مستنفدٌ منتهٍ . لكن ، كم من أمورٍ تعلمتها ، وكم من أغوار حكمةٍ لم أسبرها! كم هو عظيمٌ أن يكتسب المرء الحكمة الحقَّ ، وأن يغدو بالمعنى الأسمى للكلمة شخصاً متحضراً ، أن يكون مهذَّباً وفاجراً...» الخ...

أيتها السيدات والسادة ، أظن أنكم حزانى . آه ، لكن الحياة جميلة ـ لا تحزنوا ، أتوسل إليكم .

ارفعوا كأسكم مترعاً بخمرة ساموس*
فلا نفكر بأشياء كهذه!

آه ، كم هي جميلةٌ ، الحياة! اسمعوا ، أيها السادة والسيدات .

من كنز خبرتي سأحدثكم عن الحب . سأشرح لكم المعنى الحقيقي للحب ـ ما هو الإحساس الحقيقي ، والسرور الرفيع ، المصفَّى ، الذي يعرفه الناس المتحضرون فقط . سأخبركم عن أسعد يوم في حياتي . لكني ، وأسفاه ، لم أعد في ذلك الزمن ، آنَ بمقدوري أن أعرف سعادة مثل تلك . لقد ذهبتْ إلى الأبد ـ ذهب حتى الإمكانُ والرغبة . اسمعوا ، إذاً . كان ذلك قبل سنتين . كان أخي في باريس ـ هو محام ـ وقد أخبره والداي أن يبحث عني ويأخذني معه إلى العشاء . أنا وأخي نكره بعضنا ، لكننا آثرنا ألاّ نعصي والدَينا . تعشينا ، وقد سكر أخي في العشاء سكراً شديداً بعد ثلاث زجاجات بوردو . أعدتُه إلى الفندق ، وفي الطريق اشتريت زجاجة براندي ،

---

* البيت للّورد بايرون ، يذكر فيه خمرة ساموس ، وهي خمرة أخذت اسمها من جزيرة ساموس الإغريقية . (المترجم)

وحين وصلنا جعلت أخي يشرب كأساً كبيرة من البراندي ـ أخبرته أنني أسقيه ما سوف يصحيه . شرب الكأس ، فسقط على الفور كمن أصابته سكتةٌ . رفعتُه وأسندت ظهره إلى السرير ، ثم شرعت أبحث في جيوبه . وجدت إحدى عشرة مائة فرنك ، أخذتُها وأسرعت هابطاً الدرج ، وقفزت في سيارة أجرة ، ونجوتُ . أخي لا يعرف عنواني ـ كنت آمناً . إلى أين يذهب المرء حين تكون لديه نقود ؟ إلى المبغى ، طبعاً . غير أنكم لا تفترضون أنني كنت سأمضي لأصرف وقتي على فسوقٍ مبتذل لا يليق إلا بالشغّالين ؟ دعك من هذا ، إنني رجلٌ متحضر! كنتُ متعنتاً في مطالبي ، أنتم تفهمون هذا ، وفي جيبي إحدى عشرة مائة فرنك . حلَّ منتصف الليل قبل أن أجد ما كنت أبحث عنه . لقد صادفتُ شاباً في الثامنة عشرة ، نابهاً ، أنيقاً ، يرتدي بدلة سموكنج ، ويصفف شعره على الطريقة الأميركية ، وكنا نتحدث في مشرب هادئ بعيداً عن الشوارع . تفاهمنا جيداً ، أنا والشاب . تكلمنا في هذا الأمر أو ذاك ، وناقشنا الطرق التي يسلّي فيها المرء نفسَه . بعدها ، ركبنا سيارة أجرة ، وانطلقنا بعيداً .

توقفت سيارة الأجرة في طريق ضيق ، منعزل ، يضيء نهايتَه مصباح غاز خافق . كانت بقع ماء داكنة بين الأحجار . على جانب الطريق يمتد السور العالي المصْمَت لدَير . قادني دليلي إلى منزلٍ عالٍ متداعٍ مغلق النوافذ ، وطرق الباب عدة مرات . بعدها ، سمعنا وقع أقدام وصوت مزاليج ، وانفتح الباب قليلاً . وامتدت يدٌ من طرف المنفتَح ، كانت يداً عريضةً معروقة ، تبسط كفّها إلى أعلى تحت أنفينا ، طالبةً المال .

وضع دليلي قدمه بين الباب والدّرج . قال : كم تريدين ؟

ردّ صوت امرأة : « ألف فرنك ، ادفع فوراً ، إن لم تدفع فلن تدخل » .

وضعت ألف فرنك في اليد ، وأعطيت دليلي المائة المتبقية . قال لي : تصبح على خير . وتركني . كان بمقدوري أن أسمع في الداخل صوت عدِّ الأوراق ، ثم أخرجت امرأةٌ نحيلة مثل غرابٍ عجوز أنفها ، وحدّقت فيَّ

متشككةً قبل أن تسمح لي بالدخول . لم أكن لأستطيع أن أرى شيئاً غير مصباح غازٍ متخافقٍ يضيء قسماً من جدار مجصص ، مبقياً لكل شيء سواه ظلاً أعمق . كانت ثمت رائحة جرذان وغبار . أشعلت العجوز ، بدون كلام ، شمعةً ، من مصباح الغاز ، وشرعت تتقدمني وهي تعرج ، في ممر حجري نحو أعلى درجٍ حجريّ .

قالت : هَيْتَ لك! اهبط إلى القبو هناك ، وافعل ما تشاء . أنا لن أرى شيئاً ، ولن أسمع شيئاً ، ولن أعرف بشيء . أنت حر . هل تفهم ؟ حرٌّ تماماً .

ها ، أيها السادة ، هل من حاجة إلى أن أصف لكم ـ يلزم أنك تعرفونها بأنفسكم ـ تلك الرعشة ، نصف الرعب ونصف البهجة ، التي تجري في عروق المرء ، في مثل هذه اللحظات ؟ زحفتُ إلى أسفل ، متحسساً طريقي ، وكنت أستطيع أن أسمع تنفسي وسحبة حذائي على الأحجار ، وما سوى هذا كان الصمت مطبقاً . في قاع السلّم التقت يدي بزر كهرباء . أدرتُه فغمر اثنا عشر مصباحاً القبو بضوء أحمر باهر . عجباً... أنا لم أكن في قبو ، بل كنت في غرفة نوم ، غرفة عظيمة ، غنية ، مترفة ، ملوَّنة بالأحمر من أعلاها إلى أدناها . تصوّروا أيها السادة والسيدات! سجادة حمراء على الأرض ، ورق أحمر على الجدران ، الكراسي مفروشة بالأحمر ، حتى السقف أحمر ، كل شيء أحمر ، يبهر العينين . كان لوناً أحمر ثقيلاً خانقاً ، كأن الضوء يشعّ عبر أوانٍ من الدم .

في النهاية القصوى للحجرة ، سرير نوم ، ضخم ، مربع ، بألحفةٍ حمرٍ مثل باقي الأشياء ، وعلى السرير تتمدد فتاة ذات ثوب من المخمل الأحمر . تراجعت لمرآي وحاولت إخفاء ركبتيها تحت ثوبها القصير .

كنت توقفت عند الباب . ناديتها : تعالي يا فرختي .

أطلقتْ أنّة خوف . سريعاً صرت بجانب الفراش . حاولت الإفلات مني ، لكني أمسكتُ بها من رقبتها ، هكذا... أترون ؟ ، وبشدّة . أخذت

تقاومني ، وتبكي طالبةً الرحمة ، لكنني تشبثت بها ، دافعاً رأسها إلى الخلف ، وناظراً إلى وجهها . ربما كانت في العشرين من العمر . كان وجهها عريضاً ، وجهاً عادياً لطفلة غبية ، لكنه كان مغطى بالأصباغ والمساحيق ، وكانت عيناها الزرقاوان الغبيتان تلتمعان في الضوء الأحمر ، وتحملان تلك النظرة الذاهلة المشوَّهة التي لا يراها المرء إلا في عيون هؤلاء النساء .

لا شك في أنها فتاةٌ فلاّحة باعها أهلها في سوق الرقيق .

بلا كلمة ثانية ، سحبتها من الفراش ، وألقيتها على الأرض . ثم وقعت عليها مثل نمر! يا لمتعة تلك الأيام التي لا تقارَن ، ويا لبهجتها! هنا ، أيها السادة والسيدات ، ما أردت تبيانه لكم . ها هو ذا الحب! هنا الحب الحقيقي ، هنا الشيء الوحيد في العالم الذي يستحق النضال من أجله ، هنا الشيء الذي تغدو إزاءه شاحبةً تافهةً كالرماد كلُّ فنونكم وأفكاركم ، كل فلسفاتكم وعقائدكم ، كل كلماتكم الرفيعة وميولكم السامية . إن جرّبَ امرؤٌ الحب ـ الحب الحقيقي ـ فهل سيتبقى في العالم غير ما يبدو محض شبحٍ للبهجة ؟

أعدتُ هجماتي بوحشية أشدَّ وأشد . وحاولت الفتاة الإفلات مني مرّاتٍ عدّة ، وصرخت من جديد ، طالبةً الرحمة ، لكني ضحكتُ منها .

قلت : شكراً! أتظنينني جئت هنا لأقدم الرحمة ؟ أتظنينني دفعت ألف فرنك لهذا ؟ أقسمُ لكم ، أيها السادة والسيدات ، أنني كنت سأقتلها تلك اللحظة ، لولا خشيتي ذلك القانون اللعين الذي يحرمنا حريتنا .

آه ، كم صرختْ ، وكم أطلقت من صيحات ألمٍ مريرة . لكن ، ليس من سامعٍ هناك ، إذ نحن هنا ، تحت شوارع باريس ، كنا آمنين ، كما لو أننا في قلب أحد الأهرامات . تحدّرت الدموع على وجه الفتاة ، مزيلةً المساحيق في لطخ طويلة قذرة . آه للزمن الذي لا يستعاد! وأنتم ، أيها السادة والسيدات ، أنتم الذين لم يعرفوا الأحاسيس الأسمى للحب ، أنتم لا

تدركون مثل هذا السرور . وأنا أيضاً ، وقد ذهب شبابي ـ آهٍ ، للشباب! ـ لن أرى ، ثانيةً ، الحياة في مثل ذلك الجمال . لقد انتهى الأمر . آهٍ ، نعم ، انتهى إلى الأبد . آهٍ ، البؤس ، ضيق ذات اليد ، خيبة البهجة الإنسانية! والحقُّ ، ما الوقت الذي تستغرقه اللحظة العليا للحب ؟ لا شيء . لحظة . ربما ثانية . ثانيةٌ من النشوة ، وبعدها التراب ، الرماد ، العدم .

وهكذا ، للحظةٍ واحدةٍ ، أمسكتُ بالسعادة القصوى ، أسمى ، وأصفى عاطفة يمكن للبشر أن يصلوا إليها . وفي الوقت نفسه ، تكون انتهت ، وتُركتُ ـ لأي شيء ؟ كل وحشيتي وشهوتي تناثرت مثل بتلات وردة . خُلِّفتُ بارداً ذاوياً ، مليئاً بندامات العروق . وفي انكساري أحسست حتى بنوعٍ من الشفقة تجاه الفتاة الباكية على الأرض . أليس أمراً يبعث على الغثيان أن نكون فريسة مثل هذه العواطف الدنيئة ؟ لم أنظر إلى الفتاة ثانيةً . كانت رغبتي الوحيدة أن أخرج . أسرعت مرتقياً درجات القبو ، وخرجت إلى الشارع . كان الليل مظلماً ، قارس البرد ، والشوارع خالية . والأحجار تحت كعبي حذائي ترنّ رنيناً أجوف منعزلاً . ذهب مالي كله . وليس في جيبي حتى ما يلزم لسيارة أجرة . مشيت وحيداً ، عائداً إلى غرفتي الباردة المنعزلة .

هذا ، أيها السادة والسيدات ، ما وعدتكم أن أبينه لكم . ذاك هو الحب . ذاك كان أسعد يوم في حياتي .

شارلي ، كان عيّنة عجيبة .

وأنا أصفه ، فقط ، كي أبيّن أي شخصيات مختلفة يمكن أن يجدها المرء ، مزدهرةً ، في حيّ الديك الذهبي .

3

عشت في حيّ الديك الذهبي ما يقارب العام ونصف العام . أحد أيام الصيف وجدت أنني لا أملك غير أربعمائة وخمسين فرنكاً ، وعدا ذلك هناك ستة وثلاثون فرنكاً كل أسبوع متأتية من إعطائي دروساً باللغة الإنجليزية . لم أكن فكّرت بالمستقبل ، لكنني أدركت الآن أن عليّ أن أفعل شيئاً في الحال . قررت البدء في البحث عن عمل ، ولحسن حظي ـ كما تبيّن من بعدُ ـ احتطتُ ، فدفعتُ مائتي فرنك ، إيجاراً مقدماً لمدة شهر . بالمائتين والخمسين فرنكاً الباقية ، مع دروس الإنجليزية ، أستطيع العيش شهراً ، وخلال شهر قد أجد عملاً . استهدفتُ أن أكون دليلاً في إحدى شركات السياحة ، أو ربما مترجماً ، لكن شيئاً من سوء الحظ منع هذا .

في أحد الأيام ، جاء إلى النزل شابٌ إيطالي يقول إنه مؤلف موسيقي . لكن الحقَّ أنه كان شخصاً ملتبساً ، فهو ذو سالفين طويلين هما علامة على أن المرء إما أن يكون من «الأباش» أو المثقفين ، ولا أحد يعلم إلى أي من الصنفين ينتمي هذا . مدام ف لم تحبب هيأته ، وجعلته يدفع إيجار أسبوع مقدماً . دفع الإيطالي المبلغ ، وأقام ست ليال في النزل . خلال هذا الوقت استطاع أن يدبر نسخاً لعدة مفاتيح ، وفي ليلته الأخيرة سرق اثنتي عشرة غرفة من بينها غرفتي . وكان من حسن حظي أنه لم يعثر على النقود التي كانت في جيوبي ، ولهذا لم أغدُ مفلساً بالتمام والكمال ، إذ ظلّ لديّ سبعة وأربعون فرنكاً .

وضع الأمر حداً لخططي في البحث عن عمل . وتعيّنَ عليَ الآن أن أدبر عيشي بمعدل ستة فرنكات يومياً ، ومن البداية صار من الصعب جداً أن أفكر بأي شيء آخر . مذاك بدأت تجاريبي مع البؤس ـ إذ أن ستة فرنكات في اليوم ، إن لم تعنِ البؤس الفعلي ، فهي تعني حافته . ستة فرنكات هي شلن ، وبمقدورك في باريس أن تعيش بشلن واحد إذا عرفت الكيفية . لكنها مسألة معقدة .

إنه لأمرٌ ذو غرابةٍ ، ارتطامُك الأول بالبؤس . لقد فكرتَ طويلاً بالبؤس ـ فهو الشيء الذي خشيتَه طوال حياتك ، الشيء الذي تعرف أنه سيحصل لك عاجلاً أو آجلاً ، لكنّ ما فكرتَ به مختلفٌ كليةً . أنت ظننتَ أنه سيكون في غاية البساطة ، غير أنه معقدٌ جداً . أنت حسبتَه رهيباً ، والحقُّ أنه وسخٌ ومضجرٌ فقط . إن ما تكتشفه أولاً هو الضعة الخاصة بالبؤس ، الحيل التي يضعك فيها ، الشُحُّ المعقد ، ومسحُ الفُتات .

أنت تكتشف ، مثلاً ، السرية المتصلة بالبؤس . فبضربةٍ واحدة انخفض مستواك إلى ستة فرنكات يومياً . لكنك لا تجرؤ ، بالطبع ، أن تعترف بالأمر ـ عليك أن تتظاهر بأنك تعيش كالمعتاد تماماً . من البداية يعلّقك البؤس بشبكة من الأكاذيب ، وحتى بأكاذيب لا تكاد تستطيع لها تدبيراً . تتوقف عن إرسال ملابسك إلى محل التنظيف ، وتلتقيك الغسّالة في الشارع لتسألك عن السبب ، وأنت تغمغم شيئاً ، وهي تظن أنك ترسل ملابسك إلى غيرها ، فتصير عدوّك إلى الأبد . بائع التبغ يظل يسألك عن سبب تركك التدخين . ثمت رسائل تطالب بجواب ، فلا تجيب ، لأن الطوابع غالية جداً . ثم ، هناك وجبات طعامك ـ والوجبات هي أسوأ المصاعب في هذا كله . أنت تخرج ، كل يوم ، مع مواعيد الوجبات ، متظاهراً بالذهاب إلى مطعم ، لكنك تطوّف ساعة في حدائق اللوكسمبورغ ، متابعاً الحَمام . بعد ذلك تنسلّ إلى مسكنك وطعامك في جيبك . طعامك خبز ومارغرين ، أو خبز وخمر ، حتى طبيعة الطعام تتحكم بها الأكاذيب . عليك أن تشتري خبز الجويدار بدلاً من

الخبز المنزلي المعهود ، لأن أرغفة الجويدار مستديرة ، وبالإمكان تهريبها في جيوبك ، مع أن خبز الجويدار أغلى ، وأنت بهذا تخسر فرنكاً كل يوم . أحياناً ، حفاظاً على المظهر ، تضطر لإنفاق ستين سنتيماً على مشروب ، لتظل بلا طعام . شراشفك تغدو وسخة ، وينفد الصابون وأمواس الحلاقة . شعرك يطول ، وتجرب أن تقصّه بنفسك ، لكن النتيجة تكون مخيفة إلى حد أنك تضطر للذهاب إلى الحلاّق في النهاية ، فتنفق ما يعادل طعام يوم كامل . طوال اليوم تطلق الأكاذيب ، والأكاذيب الغالية .

تكتشف الهشاشة القصوى لفرنكاتك الستة في اليوم . كوارث دنيئة تحدث وتحرمك الطعام . لقد صرفت آخر ثمانين سنتيماً لديك على نصف ليتر حليب ، وأنت تغليه على مصباح كحول . وبينما الحليب يغلي ، يجري صرصار على ذراعك ، فتنفض الصرصار بإظفرك ، وإذا بالصرصار يسقط مباشرة في الحليب . ليس لك سوى أن تدلق الحليب ، وتظل جائعاً .

تذهب إلى المخبز لتشتري رطل خبز ، وتنتظر حتى تقطع البنت رطلاً لزبون آخر . البنت غير بارعة ، وتقطع أكثر من رطل . تقول : « معذرة ، يا سيدي ، أعتقد أنك لا تمانع في دفع سنتيمين أكثر ؟ » . الخبز بفرنك واحد للرطل . وأنت لديك فرنك واحد فقط . وحين تفكر بأنك قد تضطر لدفع سنتيمين أكثر ، وأن عليك الاعتراف بأنك غير قادر على دفعهما ، فلسوف تفرّ مذعوراً .

أنت تفكر ساعاتٍ قبل أن تجرؤ على المغامرة بدخول مخبز آخر .

تذهب إلى البقّال لتنفق فرنكاً على شراء كيلو غرام من البطاطا . لكن إحدى القطع النقدية التي تشكل الفرنك الذي لديك هي قطعة بلجيكية ، والبقال يرفضها . تنسلّ من الدكان ، ولن تدخله ثانية .

ضلّت بك الخطى ، ودخلت في حيٍّ محترم ، لترى صديقاً موسراً يأتي . تجنباً له تدخل إلى أقرب مقهى . ما إن تدخل المقهى حتى يتعيّن عليك أن تشرب شيئاً ، وهكذا تصرف آخر خمسين سنتيماً على كأس قهوة سوداء استقرت فيه ذبابة ميتة .

بالإمكان مضاعفة هذه الكوارث إلى المئات . إنها جزء من عملية أن تكون في شدة . وتكتشف ما يعني أن تكون جائعاً . بالخبز والمرغرين في معدتك ، تخرج وتنظر إلى واجهات المخازن . في كل مكان ، طعامٌ يُهينك ، في أكداسٍ ضخمة ، خنازير بأكملها ، سلال من الأرغفة الساخنة ، قطع عظيمة صفراء من الزبدة ، حبالٌ من المقانق ، جبال من البطاطا ، أجبان جرييِر في حجم حجر الرحى . إنك لتشعر بمرارة فائضة وأنت ترى هذا الطعام الكثير . تفكر بخطف رغيف والهرب ، ملتهماً إياه قبل أن يمسكوا بك ، إلا أنك تمتنع ، لمحض الخوف .

وتكتشف الضجر غير المنفصل عن البؤس ، أحيانَ لا يكون لديك ما تفعل ، ومع سوء تغذيتك ، تفقد اهتمامك بأي شيء . تظل متمدداً نصف يومك في الفراش ، كأنك الفتاة المريضة في قصيدة بودلير . الطعام وحده هو الذي يُنهضك . وتكتشف أن الإنسان الذي ظل يقتات ، أسبوعاً كاملاً ، الخبزَ والمرغرين ، لم يعد إنساناً ، إنه معدة فقط مع بضعة أعضاء ملحقة .

هذه ـ بالإمكان تقديم وصف أكثر ، لكن الأمور تظل بالأسلوب نفسه ـ هي الحياة بستة فرنكات يومياً . آلاف الناس في باريس يَحْيونها ـ فنانون وطلبة يصارعون العيش ، عاهرات عاثرات الحظ ، عاطلون من كل صنف . إنها ضواحي البؤس .

ظللت هكذا حوالي ثلاثة أسابيع . تبددت فرنكاتي السبعة والأربعون سريعاً ، وتعيّنَ عليَ أن أدبِّر أمري بالفرنكات الستة والثلاثين المتأتية من دروس الإنجليزية . كنت ، لقلة خبرتي ، لا أحسنُ التصرف بالنقود ، وأحياناً أظل يوماً كاملاً بلا طعام . وإذ يحدث هذا ، اضطرُ لبيع بعض ملابسي ، مهرباً إياها خارج النُزل في رزم صغيرة ، ذاهباً بها إلى دكان للأشياء المستعملة في شارع لامونتان سان جنفييف . كان صاحب الدكان يهودياً ذا شعر أحمر ، شخصاً كريهاً جداً ، تتملكه دوماً نوبة غضب شديد حين رؤيته زبوناً . ومن تصرفه يحسب المرء أنه سبّبَ له جرحاً بمجيئه . اعتادَ أن

يصرخ : «خراء! أنت هنا ثانيةً ؟ ماذا تظن المكان ؟ مطبخ حساء ؟» . وكان يقدم ثمناً رخيصاً بصورة لا تصدق . فلقبّعةٍ كنت اشتريتها بخمسة وعشرين شلناً ، ولم أكد أعتمرُها ، دفع خمسة فرنكات ، وللقمصان دفع فرنكاً واحداً لكل قميص ، ولزوجين من الأحذية خمسة فرنكات . كان يفضل ، دائماً ، المبادلة ، على الدفع . وكانت له خدعة أن يحشر أشياء غير ذات قيمة في يد الزبون ، ويتظاهر بأن الزبون تقبّلها . ومرةً رأيته يأخذ معطفاً جيداً من سيدة عجوزٍ ، ويضع اثنتين من كريّات البليارد البيض في يدها ، ثم يدفعها دفعاً خارج المحل قبل أن تستطيع الاحتجاج . كان من السعادة أن تسدّد لكمة إلى الأنف اليهودي مفلطحةً إياه ، لو استطاع المرء إلى ذلك سبيلاً .

كانت تلك الأيام قذرةً غير مريحة ، والواضح أن الأسوأ آتٍ ، إذ أن الإيجار سيكون مستحقاً في وقت قريب . مع هذا كله ، لم تكن الأمور بالسوء الذي توقعتُه . فأنت ، في اقترابك من البؤس ، تكتشف أمراً يعدلُ أموراً أخرى . أنت تكتشف الضجر والتعقيدات الدنيئة ، وبدايات الجوع ، لكنك تكتشف أيضاً صفة الثواب العظيم في البؤس ، حقيقة أنه يلغي المستقبل . ويصحّ إلى حد معين أنك كلما قلَّ مالُك قلّ قلقك . حين يكون لديك مائة فرنك في هذا العالم تتعرض لألف فكرة وفكرة ، لكن حين يكون لديك ثلاثة فرنكات فقط فأنت غير مبالٍ ، إذ أن الفرنكات الثلاثة سوف تطعمك حتى غد ، وليس بمقدورك أن تفكر أبعد من ذلك . أنت ضجرٌ ، لكنك لستَ بخائفٍ .

أنت تفكر مبهماً ، «سوف أكون جائعاً بعد يوم أو يومين ـ أمرٌ صادمٌ ، أليس كذلك ؟» ثم ينتقل الذهن إلى أمور أخرى .

وهنالك شعور آخر هو عزاء عظيم في البؤس . وأعتقد أن كل من عانى شدةً عرفه . إنه شعورٌ بالارتياح ، بل بالسرور ، حين معرفتك أنك صرت بائساً بحقٍّ . غالباً ما تحدثتَ عن الهلاك بين الكلاب ـ حسناً ، ها هم أولاء الكلاب ، وقد بلغتَهم ، وبإمكانك الثبات . هذا الشعور يزيل الكثير من القلق .

4

في أحد الأيام ، توقفت دروسي الإنجليزية فجأةً . كان الطقس بدأ يستحرّ ، وأحسَّ أحد طلبتي بأنه أكثر كسلاً من أن يستمر في دروسه ، فطردني . أما الآخر فقد اختفى من سكناه بدون إشعار ، مديناً لي بإثني عشر فرنكاً . وهكذا خُلِّفتُ مع ثلاثين سنتيماً فقط ، وبلا تبغ . وليومٍ ونصف اليوم لم يكن لديّ ما آكله أو أدخنه ، وعندما لم أتحمل أكثر أن أظلَّ أتضوّرُ جوعاً ، وضعتُ ما تبقّى لدي من ملابس في حقيبة وأخذتها إلى محل الرهون . وقد وضع هذا نهاية لكل ادّعاءٍ بأن لديّ مالاً ، إذ ليس بمقدوري أن أُخرج ملابسي من النزل بدون موافقة مدام ف . غير أني أتذكر ، على أي حال ، مبلغ دهشتها حين طلبتُ موافقتها بدلاً من الإنسلال بها ، خفيةً ، خارج النزل ، مثل ما جرت العادة في حيّنا . كانت المرة الأولى التي أدخل فيها محلاً فرنسياً للرهون . يدخل المرء عبر بوابات حجر فخمة ، عليها حسب المعتاد : «حرية ، مساواة ، إخاء» ـ إنهم يكتبون ذلك ، في فرنسا ، حتى على مراكز الشرطة .

بعد اجتياز البوابات ، يكون المرء في حجرة عارية ، مثل صف مدرسيّ ، ذات نُضدٍ (كاونتر) وصفوف من المصاطب . كان هناك أربعون أو خمسون شخصاً ينتظرون . كل واحدٍ يقدم طلبه عند النضد ويجلس . ما إن يقدِّر الموظف السعر حتى ينادي : «رقم كذا وكذا ، هل تأخذ خمسين

فرنكاً ؟ » ، أحياناً يكون المبلغ خمسة عشر فرنكاً أو عشرة فرنكات أو خمسة ـ مهما كان ، فالحجرة كلها عرفت به . حين دخلتُ كان الموظف ينادي بلهجة عدوانية : « الرقم ٨٣ ـ هنا! » مع صفير قصير وإيماء كأنه ينادي كلباً . خطا الرقم ٨٣ نحو النضد ، كان شيخاً ملتحياً يرتدي معطفاً مزرراً حتى العنق وبنطلوناً مهترئ النهايات . وبدون كلام رمى الموظف الصرّة عبر النضد ـ واضحٌ لا تساوي شيئاً . سقطت الصرة على الأرض ، وانفتحت ، كاشفة أربعة أزواج من السراويل الداخلية الصوف الرجالية . لم يستطع أحدٌ أن يكتم ضحكه . جمع الرقم ٨٣ سراويله ، وانسلَّ خارجاً ، متمتماً لنفسه .

الملابس التي كنت أرهنها ، كلّفتني مع الحقيبة أكثر من عشرين باوناً ، وكانت في حالة جيدة . ظننت أن قيمتها يجب أن تكون عشرة باونات ، أما رُبع القيمة (يتوقع المرء رُبع القيمة في محل الرهون) فيبلغ مائتين وخمسين فرنكاً أو ثلثمائة فرنك . انتظرت مطمئناً ، متوقعاً مائتي فرنك في الأقل .

أخيراً ، نادى الموظف على رقمي : « رقم ٩٧! » .

قلت وأنا أقف : « نعم »

« سبعون فرنكاً ؟ » .

سبعون فرنكاً لملابس قيمتُها عشرة باونات! لكن ، لا فائدة من المحاججة . كنت رأيت شخصاً يحاول المجادلة ، فرفض الموظف طلبه . أخذتُ المبلغ وبطاقة الرهن وخرجت . الآن ، لا أملك من الملابس إلا ما أرتديه ـ السترة سيئة عند الكمَّين ، والمعطف يصلح للرهن المتواضع ، كما أن لديّ قميصاً احتياطاً . في ما بعد ، وبعد فوات الأوان ، علمت أن من الأفضل الذهاب إلى محل الرهون بعد الظهر . فالموظفون فرنسيون ، وهم مثل عموم الفرنسيين ، يكونون سيئي المزاج ، إلى أن يتناولوا غداءهم .

حين عدت إلى مقامي كانت مدام ف تنظف أرضية المشرب . ارتقت الدرجات لتلقاني . أكاد أرى في عينيها قلقها على الإيجار . قالت : « حسناً!

ماذا قبضتَ لقاء ثيابك ؟ ليس كثيراً ؟ » قلت على الفور : «مائتي فرنك . قالت مندهشة : «خُذْ! حسناً ، ذلك ليس سيئاً . يجب أن تكون تلك الملابس الإنجليزية غاليةً جداً! » .

جنّبتني الكذبة العديد من المتاعب ، ومن الغريب أن الكذبة صارت حقيقةً واقعة ، إذ تسلّمتُ بعد بضعة أيام مبلغ مائتي فرنك بالضبط عن مقالٍ لي في صحيفة ، وقد دفعت المبلغ كله رأساً للإيجار ، بالرغم من الأذى الذي سبّبه لي الدفعُ . وهكذا ، مع أنني كنت على حافة الجوع في الأسابيع التالية ، إلا أن سقفاً ظلّ يظللني .

الآن ، صار الحصول على عمل ضرورة مطلقة ، وتذكرتُ صديقاً لي ، نادلاً روسياً اسمه بوريس ، قد يكون بمقدوره مساعدتي ، التقيته للمرة الأولى في ردهة عمومية بمستشفى ، حيث كان يعالج من التهاب المفاصل في ساقه اليسرى . وقد كان أخبرني أن آتيه إذا واجهتني مصاعب .

عليّ أن أقول شيئاً عن بوريس ، إذ كان شخصية غريبة ، وصديقاً حميماً لي فترة طويلة . كان شخصاً ضخماً ، ذا بنية عسكرية ، في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر ، وكان جميل المحيّا ، إلا أنه منذ مرضه صار بديناً لطول بقائه في الفراش . ومثل معظم اللاجئين الروس ، كانت له حياته الملأى بالمغامرة . والداه قُتلا في الثورة ، وكانا من الأغنياء ، وهو خدم في الحرب في فرقة المشاة السيبيرية الثانية ، أفضل فرقة في الجيش الروسي ، حسب قوله . بعد الحرب اشتغل أولاً في معمل للفَراشي ، ثم حمّالاً في سوق الهال ، ثم صار غاسل صحون ، وأخيراً ارتقى في عمله إلى مستوى نادلٍ .

عندما سقط مريضاً كان في فندق سكريب ، يكسب مائة فرنك يومياً من الهِبات . كان مطمحه أن يغدو رئيس نادلين ، ويوفر خمسين ألف فرنك ، ويفتح مطعماً صغيراً فاخراً في الضفة اليمنى .

بوريس ، يتحدث دائماً عن الحرب باعتبارها أسعد أيام حياته . كان هواه الحرب والعسكرية ، وقد قرأ كتباً لا تحصى في الستراتيجيا والتاريخ

العسكري ، وبمقدوره التحدث إليك عن كل ما يتصل بنظريات نابوليون وكوتوزوف وكلوزفيتز ومولتكه وفوش . كل ما يتعلق بالجنود يسرّه . مقهاه المفضل كان كلوزيري دي ليلا في مونبارناس ، ببساطةٍ لأن تمثال المارشال ناي كان خارج المقهى . فيما بعد ، كنت وبوريس نذهب أحياناً إلى شارع كوميرس معاً . فإن استخدمنا المترو نزل بوريس دائماً في محطة كامبرون ، بدلاً من محطة كوميرس ، ذلك لأنه يحب العلاقة مع الجنرال كامبرون ، الذي طُلب منه الاستسلام في معركة واترلو ، فأجاب ببساطة : «خراء!» .

الأشياء الوحيدة التي تركتها الثورة لبوريس كانت أوسمته وصور فرقته القديمة ، وقد احتفظ بهذه ، بينما ذهب كل شيء إلى محل الرهون . ويكاد كل يوم يبسط صوره على الفراش ، ويتحدث عنها :

«هكذا ، يا صديقي! هناك تراني أتقدّم سَريّتي . رجالٌ ضخامٌ لطافٌ... إيه ؟ ليسوا مثل هذه الجرذان الصغيرة من الفرنسيين . نقيبٌ في العشرين ـ ليس سيئاً... إيه ؟ نعم ، نقيب في فرقة المشاة السيبيرية الثانية ، وأبي كان عقيداً .

آه ، يا صديقي... لكنْ تقلبات الحياة! نقيب في الجيش الروسي ، وإذا بالثورة... كل مليم ذهب . في ١٩١٦ أقمت أسبوعاً في فندق إدوارد السابع ، وفي ١٩٢٠ كنت أبحث عن عملٍ ، حارساً ليلياً هناك . اشتغلتُ حارساً ليلياً ، مكلفاً بقبو ، منظف أرضيّة ، غاسل صحون ، حمّالاً ، مشرف مرحاض . قدّمتُ هِباتٍ للنادلين ، وقدّمَ لي النادلون هباتٍ .

آه ، لكني عرفت ما معنى أن يعيش المرء ، شخصاً مهذباً ، يا صديقي . لا أقول هذا متباهياً ، لكني في يوم سابق حاولت أن أعدَّ العشيقات اللائي عرفتهن في حياتي . نعم ، كنّ مائتين في الأقل... آه ، حسناً . سوف يعود هذا . النصر حليف من صبر في القتال . تشجَّع!»... الخ .

كان لبوريس طبعٌ غريب ، متقلب . لقد رغب على الدوام في أن يعود إلى الجيش ، لكنه اشتغل أيضاً ، لفترة طويلة ، نادلاً ، حتى اكتسب ملامح

النادل . ومع أنه لم يوفر ، البتة ، أكثر من بضعة آلاف من الفرنكات ، إلا أنه يرى أن لا محالة في أنه سيكون قادراً ، في نهاية الأمر ، على فتح مطعمه الخاص ، والوصول إلى الثراء .

وقد وجدت ، فيما بعد ، أن كل النادلين يفكرون بهذا . إنه هو الذي يعزّيهم في كونهم نادلين . بوريس اعتاد الحديث بصورة مشوقة عن حياة الفندق :

« عمل النادل مقامرة . قد تموت فقيراً ، وقد تكوّن ثروتك في سنة . أنت لا تقبض أجوراً ، أنت تعتمد على الهِبات ـ عشرة بالمائة من القائمة ، ونسبة من الشركات عن سدّادات فلِّين الشمبانيا . أحياناً تكون الهبات هائلة . المشرف على البار في مكسيم ، مثلاً ، يحصل على خمسمائة فرنك يومياً ، أكثر من خمسمائة فرنك ، في الموسم... أنا نفسي حصلت في أحد الأيام على مائتي فرنك . كان ذلك في فندق بـ« بياريتز » ، أثناء الموسم . كان الطاقم كله ، من المدير حتى غاسلي الصحون ، يعملون إحدى وعشرين ساعة في اليوم . إحدى وعشرون ساعة عمل ، وساعتان ونصف الساعة في الفراش ، لمدة شهر كامل . ومع هذا ، فالأمر يستحق... مائتا فرنك يومياً .

أنت لا تعلم متى تأتي ضربة الحظّ . مرةً ، حين كنت في فندق رويال ، استدعاني زبونٌ أميركي قبل العشاء ، وطلب أربعة وعشرين كوكتيل براندي . أحضرتها ، كلها ، على صينية ، في أربع وعشرين كأساً . قال لي الزبون (كان سكران) : الآن ، يا جرسون ، أنا سأشرب اثني عشر ، وأنت ستشرب اثني عشر ، فإن استطعتَ المشي حتى الباب ، بعدها ، أعطيتك مائة فرنك » . مشيت حتى الباب ، وأعطاني مائة فرنك . وكل ليلة ، لستة أيام ، فعل الأمر ذاته ، اثني عشر كوكتيل براندي ، ثم مائة فرنك . بعد أشهر قليلة سمعتُ أنه أُبعد ، بطلب من الحكومة الأميركية ، نظراً لسوء التصرف » .

أحببتُ بوريس ، وقضينا معاً أوقاتاً ممتعة ، نلعب الشطرنج ونتحدث عن الحرب والفنادق . وقد اعتاد بوريس أن يقترح عليَّ العمل نادلاً .

«سوف تناسبك الحياة ، حين تشتغل بمائة فرنك في اليوم ، مع عشيقة لطيفة . الأمر ليس سيئاً . تقول إنك ماضٍ في الكتابة . الكتابة لا شيء . ثمت طريقة وحيدة للحصول على المال من الكتابة ، وهي أن تتزوج ابنة ناشر . لكنك ستكون كاتباً جيداً لو حلقتَ شاربك هذا . أنت طويل ، وتتكلم الإنجليزية ـ هذه هي الأشياء الرئيسة التي يحتاجها النادل . انتظر حتى أحني هذه الساق اللعينة ، يا صديقي ، وآنذاك إن لم تجد عملاً فتعال إليّ» .

أنا الآن لا أستطيع دفع إيجاري ، وبدأت أجوع .

تذكرت وعد بوريس ، وقررت البحث عنه ، فوراً . لم آمل في أن أكون نادلاً بالسهولة الموعودة ، لكني أعرف ، بالطبع ، كيف أغسل الصحون ، ولا شك في أنه يستطيع إيجاد عمل لي في المطبخ . كان قال لي إن أشغال غسل الصحون تكون متاحة في الصيف . وكان مصدر ارتياحٍ لي أن أتذكر أنّ لي ، بعد كل شيء ، صديقاً ذا نفوذ يمكنني اللجوء إليه .

5

قبل فترة قصيرة ، كان بوريس أعطاني عنواناً في شارع مارشيه دو بلان مانتو . كل ما ذكره في رسالته أن «الأمور ليست بالغة السوء» ، وافترضتُ أنه قد عاد إلى فندق سكريب ، ليحصل على فرنكاته المائة كل يوم . كنت مفعماً بالأمل ، واستغربتُ من أنني كنت أحمق إلى حدٍّ أنني لم أذهب إلى بوريس من قبلُ . تخيلتُ نفسي في مطعمٍ فاخر ، مع طبّاخين مرحين يغنّون أغاني حب ، وهم يكسرون البيض في المقلاة ، ومع خمس وجبات حقيقية في اليوم . بل لقد بدّدتُ فرنكين وخمسين سنتيماً على علبة گولواز أزرق ، بانتظار أجوري .

في الصباح ، مشيت إلى شارع مارشيه دو بلان مانتو . وقد صُدمتُ إذ رأيتُه شارعاً خلفياً بائساً ، سيئاً مثل شارعي . أما نُزل بوريس فكان أقذر نُزلٍ في الشارع . من مدخله جاءت الرائحة الكريهة الحامضة ، مزيجاً من الغُسالة والصابون الكيمياوي ـ رائحة البْوِيّون زيب ، خمسة وعشرون سنتيماً للعلبة . أحسستُ بالتطيُّر . فالناس الذين يشربون البويّون زيب هم إما متضورون جوعاً أو يكادون . هل يمكن أنَ بوريس يحصل على مائة فرنك يومياً ؟

إن مالكاً موثوقاً به ، يجلس في المكتب ، قال لي ، نعم ، إن الروسيَ في مسكنه ـ بالعِلِّية . ارتقيتُ ست مجموعات من درجات سلّم دائريّ ،

بينما رائحة البويّون زيب تتصاعد مع الصعود . بوريس لم يردّ حين طرقت الباب ، ولهذا فتحتُه ، ودخلتُ .

كانت الغرفة عِلِّيةً ، مساحتها عشرة أقدام مربعة ، يضيئها نور السماء ، وأثاثها الوحيد سرير حديد ضيّق ، وكرسيّ ، ومغسلة ذات قائمة عرجاء . سلسلة من البقّ على شكل حرف S تسير بطيئة عابرةً الجدار فوق الفراش . كان بوريس يرقد نائماً ، عارياً ، وبطنه مثل مرتبئ تحت الشرشف القذر . صدره مبقَّعٌ بلدغات الحشرات . استفاق حين دخلتُ ، فرك عينيه ، وتأوّه عميقاً .

هتف : «باسم يسوع المسيح! أوه ، باسم يسوع المسيح ، ظَهري! عليه اللعنة ، أظن أن ظهري مكسور! »

قلت : «ما الأمر ؟ »

«ظهري مكسور ، هذا كل ما في الأمر . أمضيتُ الليلة على الأرض . أوه! باسم يسوع المسيح! لو عرفتَ كيف يؤلمني ظهري! »

«يا عزيزي بوريس ، ألَنت مريض ؟ »

«لست مريضاً . إنني جائعٌ فقط . نعم . جائع حتى الموت إن استمر الوضع هكذا . وإلى جانب نومي على الأرض ، عشت بفرنكين يومياً طوال الأسبوع الفائت . الأمر مخيف . لقد أتيت في لحظة سيئة ، يا صديقي » .

يبدو أن لا فائدة ترجى من الاستفسار عمّا إذا كان بوريس لايزال يحتفظ بعمله في فندق سكريب . هبطتُ السلّم مسرعاً واشتريت رغيف خبز . رمى بوريس بنفسه على الرغيف وأكل نصفه ، بعدها ، انتعش ، وجلس في الفراش ، وأخبرني ما الأمر . لقد أخفق في الحصول على عمل بعد مغادرته المستشفى ، لأنه لايزال يعرج شديداً ، وقد أنفق كل ماله ، ورهن كل شيء ، وأخيراً ظل جائعاً عدة أيام .

وكان نام أسبوعاً على الرصيف تحت جسر أوسترليتز ، بين براميل نبيذ فارغة .

وطوال الأسبوعين الفائتين كان يعيش في هذه الغرفة مع يهودي ، ميكانيكيّ . وظهر (ثمت تعقيد في الشرح) أن اليهودي مدينٌ لبوريس بثلثمائة فرنك ، وكان يسدِّد دينه بالسماح لبوريس بالنوم على الأرض ، وبإعطائه فرنكين يومياً للطعام . يذهب اليهودي إلى العمل في السابعة صباحاً ، وبعد ذهابه يترك بوريس موضع منامه (وهو تحت نور السماء ، مما يسمح بدخول المطر) وينام في الفراش . لكنه لا يستطيع أن ينام أكثر هناك ، بسبب البقّ ، لكنه يريح ظهره بعد الأرض .

كانت خيبتي كبيرة ، حين جئت إلى بوريس طالباً العون ، وإذ بي أراه في حالٍ أسوأ من حالي . بيّنتُ له أنني لا أملك إلا ستين فرنكاً ، وأنّ عليّ الحصول على عملٍ فوراً . آنذاك كان بوريس أجهز على بقية الرغيف ، وصار مبتهجاً منشرحاً . قال بلامبالاة : « يا للسماء! لماذا تقلق ؟ ستون فرنكاً! ماذا ؟ إنها لثروةٌ! أعطني ذلك الحذاء ، رجاءً ، يا صديقي . أريد أن أحطم بعض هذه البقّات إن صارت على مقربة مني » .

« لكن ، أتعتقد أن ثمت فرصة للحصول على عمل ؟ »

« فرصة ؟ إنها أمرٌ أكيد . والواقعُ أن لديّ شيئاً بالفعل الآن . هناك مطعمٌ روسيّ جديد يوشك أن يفتح خلال أيام قليلة في شارع كوميرس . إنه شيء منتظَر ، وسأكون فيه رئيس النادلين . ومن السهولة أن أحصل لك على عمل في المطبخ . خمسمائة فرنك شهرياً مع طعامك ـ هِباتٌ أيضاً ، إن كنتَ محظوظاً » .

لكن الآن ، عليّ أن أدفع الإيجار في وقت غير بعيد » .

أوه ، سوف نجد شيئاً . لديّ أوراقٌ قليلة في عبّي . ثمت أناسٌ مدينون لي ، مثلاً ـ باريس ملأى بهم . وأحدهم استحقّ موعد دفعه . ثم فكّرْ بكل النساء اللواتي كنّ عشيقاتي! المرأة لن تنسى أبداً ، وأنت تعرف ـ عليّ فقط أن أطلب ليساعدنني . ثم أن اليهودي أخبرني أنه سوف يسرق بعض المغناطيسات من المرآب الذي نعمل فيه ، وسوف يدفع لنا خمسة فرنكات

في اليوم لتنظيفها قبل أن يبيعها . هذا وحده سيقوم بأوَدنا . لا تقلقْ ، يا صديقي ، لا شيء يسهل الحصول عليه مثل النقود » .

« حسناً ، لنخرج الآن ونبحث عن عمل » .

« يا صديقي ، نحن لن نجوع في الوقت الحاضر . لا تخفْ . إن هذا حظ الحرب فقط ـ كنت في وضعٍ أسوأ مراتٍ عدة . المسألة مسألة صمود . تذكّرْ قولةَ فوش : « هاجِمْ! هاجم! هاجم! » .

انتصف النهار ، قبل أن يقرر بوريس النهوض من الفراش . كلُ ما تخلّفَ لديه من الثياب الآن هو بدلةٌ واحدة ، وقميص واحد ، ياقة ورباط عنق ، وزوجان من حذاء كاد يهترئ ، وجوربان مليئان بالثقوب . لديه أيضاً معطفٌ مقدَّرٌ له أن يُرهن في المطاف الأخير . لديه أيضاً حقيبة ، شيء تعيس من الورق المقوى بعشرين فرنكاً ، لكنه في غاية الأهمية ، لأن صاحب النزل يظن أنه مليء بالملابس ـ وبدونه ، كان يمكن للرجل أن يطرد بوريس . لكنّ هذا الشيء التعيس كان يحتوي على أوسمة بوريس وصوره ، وعلى أشياء لا حصر لها ، ورزمٍ منتفخة من رسائل الحب . بالرغم من هذا كله ، استطاع بوريس الحفاظ على مظهر لائق . إنه يحلق لحيته بلا صابون ، وبموسى عمره شهران ، وهو يعقد رباط عنقه حتى لا تظهر الثقوب ، ويحشو بعنايةٍ باطن حذائه بورق الصحف . أخيراً ، حين يلبس ، يُخرج دواةً ويحبّرُ كعبيه اللذين يبدوان من جواربه . ليس بمقدورك ، بعد أن يستكمل هيأته ، أن تفكر بأنه كان منذ وقت جدّ قريب ينام تحت جسور السين .

ذهبنا إلى مقهى صغير ، في فرعٍ من فروع شارع ريفولي ، وهو ملتقى شهير لمديري الفنادق والمستخدمين . في مؤخرة المقهى غرفة معتمة تشبه الكهف يجلس فيها كل أصناف عمال الفنادق ـ نادلون شبان أنيقون ، آخرون ليسوا بمثل تلك الأناقة ويبدو عليهم الجوع ، طبّاخون سمان متوردو الوجوه ، غاسلو صحون مدهَّنون ، عجائز تنظيف متداعيات . كل شخص أمامه كأس قهوة سوداء لم يُمَسّ . كان المكان ، في واقع الأمر ، مكتب

استخدام ، والمال الذي يُصرَف على المشروبات كان نسبة المالك . أحياناً يأتي رجل متين البنيان ، هامّ المنظر ، صاحب مطعم ، كما هو واضح ، ويتحدث مع مشرف البار . مشرف البار يستدعي أحد الجالسين في مؤخرة المقهى . لكنه لم يستدعني ، البتة ، ولا استدعى بوريس ، فتركنا المكان بعد ساعتين حسب ما تقتضي الأصول . بعد فوات الأوان علمنا أن السرَّ هو في رشوة مشرف البار ، فإن كانت لديك عشرون فرنكاً تقدمُها ، حصل لك عموماً على عمل .

ذهبنا إلى فندق سكريب وانتظرنا ساعة على الرصيف ، آملين في خروج المدير ، لكنه لم يظهر . جرجرنا أنفسنا نحو شارع كوميرس ، فقط لنجد أن المطعم الجديد الذي كان يعاد ديكوره ، مغلقٌ ، وأن صاحبه ليس هناك . الوقت الآن ليل . ولقد مشينا أربعة عشر كيلو متراً على الرصيف ، وكنا متعبين جداً ، حتى لقد أنفقنا فرنكاً وخمسين سنتيماً لنستخدم المترو . كان المشي عذاباً لبوريس ذي الرجل العرجاء ، وقد شرع تفاؤله يتهاوى مع ساعات اليوم . وحين خرج من المترو في ساحة إيطاليا كان يائساً . بدأ يقول أن لا فائدة في البحث عن عمل ـ ولم يتبقَّ إلا أن يجرب الجريمة .

«يا صديقي ، اسلبْ ، لا تجُعْ . لقد خططتُ كثيراً لهذا . غنيٌّ أميركي سمين ـ زاوية مظلمة في طريق مونبارناس ـ حجرٌ في جورب ـ بانْغ! ، ثم تبحث في جيوبه وتهرب . المسألة مجدية ، ألا تظن ؟ أنا لن أتزحزح ـ تذكرْ أنني كنت جندياً» .

في النهاية ، صرفَ النظر عن الخطة ، لأننا ، كلينا ، أجنبيان ، ويسهل التعرف علينا . حين عدنا إلى غرفتي أنفقنا فرنكاً وخمسين سنتيماً أخرى على الخبز والشوكولاتا . التهم بوريس حصته ، وعلى الفور شعر بالابتهاج كالسحر ، ويبدو أن الطعام يؤثر في جهازه بسرعة الكوكتيل . أخرج قلماً ، وأخذ يعدّ قائمة بالناس الذين يمكن أن يعطونا أعمالاً . هناك العشرات منهم . قال :

«غداً سوف نجد شيئاً ، يا صديقي ، أعرف هذا من أعماقي . الحظ يتغير دائماً . ثم أن لدينا مخّاً ، نحن الإثنين ، والرجلُ ذو المخ لا يمكن أن يجوع . يا للأشياء التي يمكن للمرء أن يفعلها باستخدام مخه! المخ يخلق مالاً من لاشيء . كان لي مرةً ، صديق ، بولندي ، رجل حقيقي ذو عبقرية ، وماذا تظنه اعتادَ أن يفعل ؟ كان يشتري خاتم ذهب ، ويرهنه بخمسة عشر فرنكاً . ثم ـ أنت تعرف بأي إهمال يملأ الموظفون البطاقات ـ يضيف إلى حيث كتب الموظف ، ذهب ، كلمة وماس ، ويبدل عبارة خمسة عشر فرنكاً إلى خمسة عشر ألف فرنك . دقيقٌ ، أليس كذلك ؟ ثم يستطيع أن يستدين ألف فرنك بضمانة بطاقة الرهن . هذا ما أعنيه بالمخّ...» .

بقية المساء ، ظل بوريس في مزاج رائق ، يتحدث عن الأوقات التي سوف نكون فيها ، سويّةً ، نادلينِ ، في نيس أو بياريتز ، مقيمين في غرف أنيقة ، وذوي مالٍ كافٍ لعشيقاتٍ . كان جدَّ متعبٍ ، فلا يستطيع قطع الكيلومترات الثلاثة مشياً ، عائداً إلى فندقه . نام على الأرض في غرفتي ، ومعطفه ملفوف على حذائه ، وسادةً .

6

أخفقنا ثانيةً في الحصول على عملٍ ، اليوم التالي ، ومرّت ثلاثة أسابيع قبل أن يتبدل الحظّ . فرنكاتي المائتان أنقذتني من متاعب الإيجار ، لكن كل شيء عدا ذلك جرى بأسوأ ما يمكن . ويوماً بعد يوم ، كنا نخرج أنا وبوريس نطوف باريس ، منجرفين بسرعة ميلين في الساعة بين حشود الناس ، ضجرينِ ، جائعينِ ، خائبين . أتذكرُ يوماً قطعنا فيه نهر السين إحدى عشرة مرة . نتسكع ساعات عند مداخل الخدمات ، وحين يخرج المدير نقف مستعطفين ، والقبعة في اليد . وكنا نلقى الجواب ذاته : إنهم لم يريدوا رجلاً أعرج ، ولا شخصاً بدون خبرة . وكدنا نظفر مرةً بعمل ، فبينما كنا نتكلم مع المدير وقف بوريس مستقيم القامة ، غير مستند إلى عصاه ، ولم ير المدير أنه أعرج . قال : «نعم ، نريد شخصين في الأقبية ، قد تصلحان للعمل . أدخلا . ثم تحرّك بوريس ، فانكشفت اللعبة . قال المدير : «آه ، أنت أعرج ، لسوء الحظ...» .

سجلنا اسمينا في الوكالات وأجبنا الإعلانات ، لكن المشي إلى كل مكان جعلنا بطيئين ، وبدا أننا نخطئ كل عمل بتأخرنا نصف ساعة . كدنا نحصل مرة على عمل هو كنس عربات القطار ، لكنهم رفضونا في اللحظة الأخيرة لصالح فرنسيين . ومرةً أجبنا إعلاناً يطلب عمّالاً في سيرك . يقتضي العمل نقل المصاطب وتنظيف القاذورات ، أما في العرض فعليك الوقوف على

برميلين قصيرين وتركِ أسدٍ يثبُ من بين رجليك . عندما وصلنا إلى المكان ، قبل الموعد المحدد بساعة ، وجدنا طابوراً من خمسين رجلاً ينتظرون . واضحٌ أن الأسود ذات جاذبية . مرةً أرسلت لي إحدى الوكالات التي كنت قدمت طلباً إليها منذ شهور ، إشعاراً يخبرني عن جنتلمان إيطالي يريد دروس لغة إنجليزية . يقول الإشعار : «احضر حالاً» ، واعداً بعشرين فرنكاً للساعة . أنا وبوريس كنا يائسين . وها هي ذي الفرصة الممتازة ، لكنني لا أستطيع الإمساك بها ، إذ من المستحيل أن أذهب إلى الوكالة وسترتي مهترئة عند الكوعين . وخطر لنا أن أرتدي سترة بوريس ، وهي لا تماثل بنطلوني ، لكن البنطلون رماديّ ويمكن أن تمرّ المسألة . كانت السترة جدّ واسعة عليّ ، حتى تعيَّنَ عليَّ أن أرتديها مفتوحة الأزرار ، وأن أضع يدي في جيبي . أسرعت إلى المكان ، وأنفقت خمسة وسبعين سنتيماً أجرةَ حافلةٍ للوصول إلى الوكالة . وحين وصلت ، قالوا لي إن الإيطالي غيّر رأيه ، وغادر باريس .

ومرةً اقترح عليّ بوريس أن أذهب إلى سوق الهال وأجرب العمل حمّالاً . وصلت إلى سوق الهال في الساعة الرابعة والنصف صباحاً ، حين العملُ يكون في أوج نشاطه . وعندما رأيت رجلاً سميناً ذا قبعة عالية ذهبت إليه وسألته عملاً . قبل أن يجيب ، أمسك بيدي اليمنى وتحسّسَ راحتي . قال : «أنت قوي ؟ إيه ؟» ، قلت كاذباً : «قوي جداً» . «حسناً ، دعني أراك ترفع ذلك القفص» .

كان ذلك ، سلّة أماليد ضخمة ، ملأى بالبطاطا . أمسكتُ بها ، وتبيّن لي أني غير قادرٍ ، البتة ، على تحريكها ، فكيف برفعها ؟ الرجل ذو القبعة العالية راقبني ، ثم هزّ كتفيه ، واستدار عني . غادرتُ المكان ، وحين ابتعدت مسافة ما التفتُّ إلى وراء ، فرأيت أربعة رجال يرفعون السلّة إلى عربة . ربما كان وزنها ثلثمائة كيلو . رأى الرجل أني غير نافع ، فتصرّف هكذا ليصرفني .

أحياناً ، في لحظات الأمل ، ينفق بوريس خمسين سنتيماً على طابع ، ويكتب إلى واحدة من عشيقاته السابقات ، يطلب منها مالاً . لم تردّ عليه إلا إحداهنّ . وهي امرأة إلى جانب أنها كانت عشيقته ، فهي مدينة له بمائتي فرنك . عندما رأى بوريس الرسالة تنتظره ، وعرف الخطّ ، جُنَّ أملاً . تسلمنا الرسالة وأسرعنا إلى غرفة بوريس لنقرأها ، مثل طفل مع حلويات مسروقة . قرأ بوريس الرسالة ، ثم سلّمها ، صامتاً ، إليّ . الرسالة كما يلي :

ذئبي الصغير العزيز ، ـ بأي ابتهاج فتحتُ رسالتك الممتعة ، التي تذكرني بأيام حبنا الكامل ، وبالقبل العزيزة التي تلقيتُها من شفتيك . ذكريات كهذه تظل في القلب إلى الأبد ، مثل عطر زهرة ماتت .

أما عن طلبك مائتي فرنك ، فوا أسفاه! إنه مستحيل . أنت لا تعرف يا عزيزي كم أنا متوجعة من سماعي الضيق الذي أنت فيه . لكن ماذا تفعل ؟ في هذه الحياة الرديئة يعمُّ البلاء الجميع . ولي من هذا نصيبٌ أيضاً . أختي الصغرى كانت مريضة (آهٍ للصغيرة! كم تألمتْ!) واضطررنا أن ندفع ما لا نعلم مقداره إلى الطبيب . ذهبَ كل مالنا ، وأؤكد لك ، أننا نمرّ في أيام صعبة جداً .

تشجّعْ يا ذئبي الصغير ، الشجاعة دائماً! تذكّرْ أنّ الأيام السيئة لن تظل إلى الأبد ، والعناء الذي بدا شديداً سوف يزول أخيراً .

كن واثقاً ، يا عزيزي ، أنني سأتذكرك على الدوام .

وتقبّلْ العناق المخلص ممّن لم تتوقف عن حبك .

« إيفون » كَ

أزعجت هذه الرسالة بوريس ، حتى لقد ذهب فوراً إلى الفراش ، وامتنع عن طلب العمل ذلك اليوم .

فرنكاتي الستون استمرت أسبوعين . تخليتُ عن التظاهر بالخروج إلى المطاعم ، وقد اعتدنا الأكل في غرفتي ، أحدنا يجلس على الفراش ، والآخر على الكرسي . بوريس يساهم بالفرنكين وأنا بثلاثة فرنكات أو أربعة ، فنشتري خبزاً وبطاطا وحليباً وجبناً ، ونُعدّ حساءً على مصباحي الكحولي . لدينا مقلاة ودلّة قهوة وملعقة واحدة . وكل يوم يدور خلافٌ مؤدب حول أي منا سيأكل من المقلاة ، وأي سيأكل من دلّة القهوة (المقلاة تتسع أكثر) ، وكل يوم ، يتنازل بوريس ، مسبِّباً غضباً خفيّاً لديّ ، ويأخذ المقلاة . أحياناً يكون عندنا خبز أكثر في المساء ، وأحياناً لا . شراشفنا صارت قذرة ، وأنا أستحمّ منذ ثلاثة أسابيع . أما بوريس فيقول إنه لم يستحم من أشهر . التبغ هو ما يجعل كل شيء متحمَّلاً . لدينا كثير من التبغ ، فقبل وقتٍ ما ، التقى بوريس جندياً (الجنود يُعطَون تبغهم مجاناً) واشترى منه عشرين أو ثلاثين علبة ، بخمسين سنتيماً للواحدة .

هذا كله كان أشد وطأةً على بوريس مني . فالمشي ، والنوم على الأرض ، جعلا ظهره ورجله في وجعٍ دائم ، وبسبب شهيته الروسية الهائلة كان يعاني من عذاب الجوع ، مع أنه لم يبدُ عليه أثرٌ للنحافة . وعلى العموم كان مبتهجاً بصورة تدعو إلى الإدهاش ، متمتعاً بقابليات واسعة للأمل . اعتاد أن يقول إن لديه قديساً يرعاه ، وإنه حين تسوء الأمور جداً يبحث في البالوعة عن النقود ، زاعماً أن قديسه يلقي له هناك بقطعة نقد ذات فرنكين . في أحد الأيام كنا ننتظر في شارع رويال ، حيث مطعم روسيٌّ قريب ، وكنا ذاهبين لنطلب عملاً هناك . فجأةً قرر بوريس الدخول إلى كاتدرائية المادلين ، وإشعال شمعة بخمسين سنتيماً لقدّيسه الحامي . ثم خرج ، ليقول إنه سيكون في الطريق القويم ، وأشعل بوقار ، طابعاً ذا خمسين سنتيماً ، قرباناً للآلهة الخالدين . قد لا يتفق الآلهة والقديسون ،

لكننا ، على أي حال ، لم نحصل على العمل .

في أحد الصباحات انهار بوريس في يأس غامرٍ . وكان يتمدد على الفراش ، لاعناً وشاتماً اليهودي الذي يعيش معه . في الأيام الأخيرة شرع اليهودي يتململ من دفع الفرنكين كل يوم ، والأسوأ من ذلك أنه بدأ يصنع أجواء سيطرة لا تُحتمل . قال بوريس إنني باعتباري إنجليزياً لا أستطيع أن أدرك أي عذاب تعانيه أسرةٌ روسيةٌ لو وقعت تحت رحمة يهوديّ .

« يهودي ، يا صديقي ، يهودي حقيقي! وليس عنده تأدبُ أن يخجل من ذلك . فكرْ بالأمر ، أنا النقيب في الجيش الروسي ـ هل أخبرتك يا صديقي بأني كنت نقيباً في فرقة المشاة السيبيرية الثانية ؟ نقيب ، نعم ، وأبي كان عقيداً . وها آنذا الآن ، هنا ، آكل خبز يهودي . يهودي...

سأخبرك عن اليهود . مرةً في الشهور الأولى للحرب ، وكنا في مسيرةٍ ، وتوقفنا نقضي الليل في قرية . انسلَّ يهودي عجوز فظيع ذو لحية حمراء مثل يهوذا الإسخريوطي ، إلى مأواي . سألته عما يريد . قال : يا صاحب الشرف ، أتيت بفتاة إليك ، فتاة شابة جميلة في السابعة عشرة من عمرها فقط . بخمسين فرنكا حسب . قلت : عُدْ بها ، لا أريد أن أصاب بمرض . صرخ اليهودي : لكن ، يا سيدي النقيب ، لا خوف من ذلك . إنها ابنتي! ها هي ذي الصفة الوطنية لليهودي أقدمها إليك .

ألم أخبرك ، يا صديقي ، أنه في الجيش الروسي القديم ، كان يعتبر تصرفاً سيئاً ، أن تبصق على يهودي ؟ أجل ، رأينا أن بصقة ضابط روسيّ أثمن من أن تبدَّد على اليهود... » الخ . الخ .

في هذه الأيام ، أعلن بوريس ، عادةً ، أنه أشد مرضاً من أن يخرج باحثاً عن عمل . كان يظل راقداً حتى المساء تحت الأغطية المسودّة الموبوءة ، يدخن ، ويقرأ الصحف القديمة . أحياناً نلعب الشطرنج . لم تكن لدينا رقعة لعب ، لكنا كنا نكتب الحركات على قطعة ورق . فيما بعد ، عملنا رقعة من وجه علبة ، وبيادق من الأزرار وقطع النقد البلجيكية وما شابه

ذلك . بوريس ، شأنه شأن الروس الآخرين ، مولعٌ بالشطرنج . وكان يردد أن قواعد الشطرنج هي ذاتها قواعد الحب والحرب ، وأنك إن استطعت أن تكسب في واحد ، تستطيع أن تكسب في الأمور الأخرى . لكنه قال أيضاً إنك لو كانت عندك رقعة شطرنج فلا يهمك أن تجوع .

إن هذه ليست حالي ، بالتأكيد .

7

بدأ مالي يقلّ ، متدنياً إلى ثمانية فرنكات ، فأربعة ، فواحدٍ ، إلى خمسة وعشرين سنتيماً . والسنتيماتُ الخمسة والعشرون ليست بذات نفع ، إذ لا تستطيع أن تشتري إلا صحيفةً . تبلّغنا عدة أيام بالخبز اليابس ، ثم أمضيت يومين ونصف اليوم بلا شيء إطلاقاً . وكانت هذه تجربة قبيحة . ثمت أناس يعالجون أنفسهم بالصوم ثلاثة أسابيع أو أكثر ، ويقولون إن الصوم لطيفٌ جداً بعد اليوم الرابع ، لكنني لا أعرف ، فأنا لم أتجاوز اليوم الثالث . قد تكون المسألة مختلفة حين تتم طوعاً ، وحين لا تكون تغذيتك سيئة في البداية .

في اليوم الأول ، وكنت أشد هموداً من أن أبحث عن عمل ، استعرت شصّاً وذهبت إلى السين أصطاد السمك ، أما الطُّعم فكان الذباب الأزرق . آملتُ في أن أصطاد ما يكفي لوجبة ، لكنني لم أفلح طبعاً . نهر السين مليء بأسماك الداس ، لكن هذه الأسماك صارت خدّاعة أثناء حصار باريس ، ولم تُصطَد واحدةٌ منها إلا بالشبّاك . في اليوم التالي فكرت في أن أرهن معطفي ، لكن بدا لي أن المشي حتى محل الرهن طويل ، فأمضيتُ اليوم في الفراش ، أقرأ «مذكرات شرلوك هولمز» . هذا كان كل ما رأيته مناسباً لي ، بدون طعام .

الجوع يحطّ من المرء حتى يغدو بلا حول ولا عقل . إنه أشبه بعقابيل

الإنفلونزا منه بأي شيء آخر . كأن الإنسان تحوّل إلى إحدى الرخويّات . أو أن دمه كله قد فُصد واستُبدل به ماءٌ دافئ . الهمود الكامل هو ما أتذكره بصورة رئيسة عن الجوع ، الهمود والاضطرار إلى البصق كثيراً . كما أن البصاق يكون أبيض شمعياً ، مثل بصاق طائر الكوكو . لا أعرف سبب ذلك ، لكن كل من جرّب الجوع أياماً لاحظَ هذا .

في اليوم الثالث شعرت بتحسنٍ واضح . وأدركت أن عليَّ أن أفعل شيئاً آخر ، فقررت الذهاب إلى بوريس أسأله مقاسمته الفرنكين ، بأي صورة من الصور ، ليوم أو إثنين . حين وصلت وجدت بوريس في الفراش ، حانقاً . وما أن دخلت حتى انفجر في شبه اختناق :

«لقد استعادها ، اللص القذر! لقد استعادها!»

قلت : «من أخذ ماذا ؟»

«اليهودي! أخذ الفرنكين ، الكلب ، اللص! سرقني وأنا نائم! » .

وقد ظهر أن اليهودي ، في الليلة الفائتة ، رفض رفضاً قاطعاً أن يدفع الفرنكين اليوميين . لقد تجادلا وتجادلا ، وقبل اليهودي أخيراً بدفع الفرنكين . وقال بوريس إن اليهودي دفعهما بطريقة عدوانية ، ملقياً خطبة قصيرة عن مقدار عطفه ورأفته ، مطالباً بالامتنان لما فعل . لكنه في الصباح سرق الفرنكين قبل أن يستيقظ بوريس . كانت تلك ضربة . وقد استأت كثيراً ، لأنني جعلت معدتي تتوقع طعاماً ، وهو خطأ جسيمٌ حين يكون المرء جائعاً . غير أني دهشت لأن بوريس كان أبعد ما يكون عن اليأس . جلس في فراشه ، أشعل غليونه ، واستعرض الوضع .

«الآن اسمع ، يا صديقي ، إنها لزاويةٌ ضيقة . نحن لدينا خمسة وعشرون سنتيماً فقط بيننا ، ولا أعتقد أن اليهودي سوف يدفع الفرنكين ثانيةً . وعلى أي حال ، إن سلوكه صار لا يُحتمل . أتصدق أنه في إحدى الليالي جاء بامرأة إلى هنا ، بينما أنا على الأرض . الحيوان الوضيع! وهناك شيء أسوأ أريد أن أخبرك به . اليهودي يعتزم ترك المكان . إنه مدينٌ

بإيجار أسبوع ، وفكرتُه أن يتجنب الدفع ، ويتركني في المأزق . لو هرب اليهودي فإنني سأكون بلا مأوى ، وسوف يأخذ صاحب النزل حقيبتي بدلاً من الإيجار ، اللعنة عليه! » .

« حسناً ، لكن ماذا بمقدورنا أن نفعل ؟ يبدو لي أن الشيء الوحيد الممكن هو أن نرهن معطفينا ، ونحصل على طعام » .

« سنفعل ذلك ، طبعاً ، لكن عليّ أولاً أن أخرج ممتلكاتي من هذا المنزل . فكِّرْ بصوري تُصادَر! حسناً ، إن خطتي جاهزة . سوف أسبق اليهودي ، وأهرب أنا ـ إخلاء المعسكر ـ الإنسحاب ، أنت تفهم . أعتقد أنها الحركة الصحيحة ، إيه ؟ » .

« لكن ، يا عزيزي بوريس ، كيف تستطيع ذلك ، نهاراً ؟ سوف يقبض عليك » .

« آه ، حسناً ، الأمر بحاجة إلى ستراتيجية ، طبعاً . صاحب نُزلنا يرصد الناس الذين ينسلّون خارجين بدون أن يدفعوا الإيجار . هذه عادته من قبلُ . هو وزوجته يتناوبان الجلوس في المكتب طوال اليوم ـ كم هم بؤساء هؤلاء الفرنسيون! لكني فكرت في طريقة لتدبير الأمر لو ساعدتَني » .

لم أكن في مزاج لإبداء أي مساعدة ، لكني استفسرت من بوريس عن خطته . شرحها لي بعناية ودقة .

« اسمع الآن . ينبغي أن نبدأ برهن معطفينا . أولاً عد إلى غرفتك وأحضر معطفك ، ثم تعال إلى هنا وخذ معطفي لتهرِّبه تحت معطفك . خذ المعطفين إلى محل الرهون في شارع فرانك بورجوا . إن كنت محظوظاً فستحصل على عشرين فرنكاً للإثنين ، ثم اذهب إلى ضفة السين واملأ جيوبك بالحجر ، بعد ذلك تعال إلى هنا ، وضع الحجر في حقيبتي . هل أدركتَ الفكرة ؟ سوف ألفُ قدر ما أستطيع حمله من أشيائي في صحيفة ، وأهبطُ لأستفسر من صاحب النُزل عن الطريق إلى أقرب محل لتنظيف الملابس . سوف أكون لبقاً جداً وماهراً بحيث يعتقد الرجل أن ما أحمله

ليس غير غسيل ، قذر . وفي حال شكّه سوف يفعل ما يفعله على الدوام ، هذا الحقير . إنه سوف يصعد إلى غرفتي ويتحسس ثقل حقيبتي . وحين يحسّ بثقل الحجر يظن الحقيبة ملأى . ستراتيجية ، إيه ؟ بعد هذا ، أستطيع أن أعود ، لأحمل أشيائي الأخرى في جيوبي » .

« لكن ، ماذا عن الحقيبة ؟ » .

« أوه ، تلك ؟ علينا التخلي عنها . إنها لا تساوي إلا عشرين فرنكاً . ثم أن المرء يتخلى دائماً عن شيء ما في أي تراجعٍ . أنظر إلى نابوليون بيريسينا! لقد تخلى عن كامل جيشه!

كان بوريس جدّ مسرور بخطته (سمّاها خدعة حرب ـ Une ruse de guerre) حتى لقد نسي جوعه .

أما الضعف الأساس في خطته ـ وهو أنه لن يكون لديه مكان للنوم بعد الهروب ـ فقد أهمله .

في البداية ، نال التوفيق الخدعة الحربية . ذهبت إلى مسكني وأخذت معطفي (قطعت تسعة كيلو مترات بمعدة خاوية) وهرّبتُ معطف بوريس بنجاح . ثم حدثت نكسة . إذ رفض متسلّمُ محل الرهون ـ وهو ضئيلٌ ، متأفف ، حامض الوجه ، متدخل ـ مثالٌ للموظف الفرنسي ـ المعطفين بدعوى أنهما لم يكونا ملفوفين بأي شيء . قال إنهما يجب أن يوضعا إما في حقيبة أو في صندوق من الورق المقوّى . لقد أفسد هذا كل شيء ، إذ ليس لدينا صندوق من أي نوع ، ولأننا نحن الإثنين لا نملك إلا خمسة وعشرين سنتيماً ، لن يكون بمقدورنا أن نشتري واحداً .

عدتُ وأطْلعتُ بوريس على الأنباء السيئة . قال : « خراء! هذا يجعل الأمر صعباً . حسناً . لا يهمّ . ثمت دائماً مخرج . سوف نضع المعطفين في حقيبتي » .

« لكنْ ، كيف بمقدورنا أن نأخذ الحقيبة أمام عيني صاحب النزل ؟ إنه يكاد يجلس في باب المكتب . مستحيل! » .

«يا صديقي ، أنت تيأس بسهولة! أين العناد الإنجليزي الذي قرأتُ عنه ؟ الشجاعة! سوف ندبر الأمر» .

فكّر بوريس برهةً قليلة ، ثم قدّم خطةً خبيثة أخرى .

الصعوبة الجوهرية في هذه الخطة هي الاستحواذ على انتباه صاحب النزل لمدة خمس ثوان مثلاً ، بينما نستطيع نحن الإنسلال من أمامه مع الحقيبة . وقد صادف أن لصاحب النزل نقطة ضعف واحدة ـ وهي أنه مولعٌ بالرياضة ، ومستعدٌ للحديث فيها إذا فتحتَ له باب الموضوع . قرأ بوريس مقالاً عن سباق الدراجات في عدد قديم من «الباريسيّ الصغير» ، ثم ، بعد أن استطلع السلّم ، نزل وجعل صاحب النزل يتحدث . آنذاك ، كنت أنتظر أسفل السلّم ، المعطفان تحت الذراع ، والحقيبة تحت الأخرى . كان على بوريس أن يسعل سعلةً حين يرى أن اللحظة المناسبة قد حلّت . انتظرتُ مرتجفاً ، ففي أي لحظة يمكن أن تخرج زوجة صاحب الفندق من الباب الذي يواجه المكتب ، فتفسد اللعبة . لكني سمعت سعلة بوريس ، فمرقتُ مسرعاً ، عبر المكتب ، إلى الشارع ، سعيداً بأن حذائي لم يطلق صريره . كانت الخطة ستخفق لو كان بوريس أنحف ، إذ سدّت كتفاه العريضتان ممرّ المكتب . كانت أعصابه رائقة ، فقد ظل يضحك ويتحدث بأجمل طريقة ، وأعلى صوت يغطي أي ضجيج يمكن أن أفعله . عندما صرت على مبعدة جيدة ، جاء وانضمّ إليّ في الركن ، ثم انطلقنا هاربين .

لكن ، بعد هذا العناء كله ، رفض متسلم محل الرهون المعطفين . قال لي (بإمكان المرء رؤية روحه الفرنسية المتيّمة بالحذلقة) إن أوراق تعريفنا ليست كافية ، بطاقة هويتي لا تكفي ، ويجب عليّ أن أريه جواز سفر أو مظاريف عليها اسمي وعنواني .

بوريس ، يمتلك مظاريف معنونة ، بالعشرات ، لكن بطاقة هويته غير صالحة (فهو لم يجددها البتة ، ليتفادى الضريبة) ، ولهذا لا نستطيع رهن المعطفين باسمه . كل ما نقدر عليه ، هو الذهاب إلى غرفتي ، والمجيء

بالأوراق اللازمة ، وأخذ المعطفين إلى محل الرهون في شارع بور رويال .

تركت بوريس في غرفتي وهبطت إلى محل الرهون . حين وصلت وجدته مغلقاً ، ولن يفتح إلا في الرابعة عصراً . كانت الساعة الواحدة والنصف ، وكنت مشيت إثني عشر كيلو متراً ، ولم أكن طعمتُ شيئاً منذ ستين ساعة . ويبدو أن القدر كان يطلق سلسلة مِزَحٍ مزعجة بشكل استثنائي . ثم تبدّل الحظّ فجأة في مثل المعجزة . كنت عائداً إلى مسكني عبر شارع بروكا ، حين لمحت قطعة خمسة وعشرين سنتيماً تلتمع بين أحجار الرصف . وثبتُ عليها وثباً ، واشتريت رطل بطاطا . كان في الموقد كحولٌ يكفي فقط لسلقها ، ولم يكن عندنا ملح ، لكننا تناهشناها نهشاً ، القشر وكل شيء . بعدها ، أحسسنا بأننا بشر من جديد ، وجلسنا نلعب الشطرنج ، حتى موعد فتح محل الرهون .

في الساعة الرابعة ، عدت إلى محل الرهون . لم يكن لديّ كثير أمل . فمادمت تلقيتُ من قبلُ سبعين فرنكاً فقط ، فماذا يمكن أن أحصل من معطفين قديمين في صندوقٍ من المقوّى ؟ قال بوريس إننا سنحصل على عشرين فرنكاً ، أما أنا فرأيت الرهن بعشرة فرنكات ، أو حتى بخمسة ، والأسوأ من هذا كله أن يُرفض الرهن بالمرّة ، مثل الرقم ٨٣ البائس في المناسبة السابقة . جلست على المصطبة الأمامية ، حتى لا أرى الناس يضحكون حين يعلن الموظف خمسة فرنكات .

أخيراً نادى الموظف رقمي : «الرقم ١١٧!» .

قلت واقفاً : «نعم» .

«خمسون فرنكاً ؟» .

كانت خضّةً كبيرة ، مثل الفرنكات السبعين قبلها . وأظن الآن أن الموظف خلط بين رقمي ورقم آخر ، إذ لا يمكن حتى بيع المعطفين بخمسين فرنكاً . أسرعت عائداً إلى مسكني ، ودخلت غرفتي ويداي خلف ظهري ، بدون أن أقول شيئاً .

كان بوريس يلعب الشطرنج . صعَّدَ إليّ بصره متلهفاً .

هتف بي : «ماذا قبضت ؟ ماذا ؟ ليس عشرين فرنكاً ؟ أكيدٌ أنك حصلت على عشرة فرنكات على أي حال ؟ يا إلهي! خمسة فرنكات ـ أمرٌ سيئٌ . يا صديقي ، لا تقل إنها خمسة فرنكات ـ إن قلت خمسة فرنكات فسوف أفكر حقاً بالانتحار» .

رميت ورقة الخمسين فرنكاً على الطاولة . صار وجه بوريس أبيض كالشمع ، ثم وثبَ ، وأمسك بيدي ، واعتصرها حتى كاد يكسر عظامي . خرجنا راكضين ، ابتعنا خبزاً وخمراً ، وشريحة لحم ، وكحولاً للموقد ، وشرعنا نلتهم .

بعد الأكل ، صار بوريس أشد تفاؤلاً من أي وقت عرفت . قال : «بمَ أخبرتُك ؟ حظُّ الحرب! هذا الصباح مع خمسة وعشرين سنتيماً ، والآن أنظر ما نحن فيه . لقد قلتُها دائماً ، لا شيء يسهل الحصول عليه مثل النقود . وهذا يذكّرني بصديقٍ في شارع فونداري يمكن أن نذهب لنراه . لقد غشني بأربعة آلاف فرنك ، هذا اللص . إنه أعظم لصٍ حيّ حال صحوه ، لكن ثمت شيئاً عجيباً وهو أنه إنسانٌ صادقٌ حال سكره . أعتقد أنه يكون سكران في السادسة مساءً . فلنذهب للقائه! قد يدفع مائة فرنك على الحساب . خراء! قد يدفع مائتين . لنمضِ!» .

ذهبنا إلى شارع فونداري ، ووجدنا الرجل ، وكان سكران ، لكننا لم نحصل على فرنكاتنا المائة . ما أن التقى الرجلان حتى بدأت مشادّة حامية على الرصيف . أعلن الرجل الآخر أنه غير مدين لبوريس بسنتيم ، والعكس أن بوريس مدينٌ له بأربعة آلاف فرنك ، وكان كل منهما يستعين بي طالباً رأيه . كنت أجهل ما في الأمر . تجادل الإثنان وتجادلا ، أولاً في الشارع ، ثم في المشرب ، ثم في مطعم ذي سعر محدد حيث دخلنا نتعشى ، ثم في مشرب آخر . وأخيراً ، بعد ساعتين من قول أحدهما للثاني إنه لصٌ ، دخلا في نوبة شربٍ أجهزتْ على آخر سنتيم عند بوريس .

أمضى بوريس الليل في مسكن عامل رصفٍ ، لاجئ روسيّ آخر ، في حيّ كومّيرس . بقيَ لديّ ثمانية فرنكات ، وسجائر كثيرة ، وكنت مترعاً حتى عينيّ بالطعام والشراب . لقد كان تغيُّراً ممتازاً نحو الأحسن ، بعد يومين سيّئين .

8

بأيدينا الآن ثمانية وعشرون فرنكاً ، ونستطيع أن نبحث عن العمل من جديد . كان بوريس لايزال ينام ، بموجب شروط غامضة ، في منزل راصف الأحجار ، كما استطاع أن يستدين عشرين فرنكاً من صديق روسي . كان لديه أصدقاء ، معظمهم ضباط سابقون مثله ، هنا وهناك في كل باريس . بعضهم كان نادلاً أو غاسل صحون ، بعضهم سائق سيارة أجرة ، قليل منهم يعيش على النساء ، بعضهم استطاع المجيء بأموال من روسيا فامتلك مرآباً أو صالة رقص . اللاجئون الروس في باريس ، هم على العموم قومٌ يصبرون على العمل الشاقّ ، واستطاعوا التأقلم مع حظهم السيئ أكثر مما يمكن أن يتخيله الإنسان لدى الإنجليز من الفئة الاجتماعية ذاتها . هناك استثناءات بالطبع . فقد حدثني بوريس عن دوق روسيّ منفيّ التقى به مرة ، ألِفَ ارتياد المطاعم الفاخرة . كان الدوق يبحث عما إذا كان بين النادلين ضابط روسيّ سابق ، وبعد أن يتعشى يستدعيه بطريقة ودية إلى طاولته .

يقول الدوق : « آه ، إذاً أنت جندي قديم ، مثلي ؟ إنها لأيامٌ سيئة هذه ، إيه ؟ حسناً ، حسناً ، الجندي الروسي لا يهاب شيئاً . في أي كتيبة كنتَ ؟ » .

سوف يجيب النادل : « كتيبة كذا وكذا ، سيدي » .

« كتيبة مقدامة! لقد فتشتُهم في ١٩١٢ . وبالمناسبة ، أنا لسوء الحظ

تركت محفظة نقودي في المنزل . أعرف أن ضابطاً روسياً سيجعلني ممتناً له بثلثمائة فرنك» .

فإن كانت لدى النادل ثلثمائة فرنك سلّمها إياه ، وهو بالطبع ، لن يراه ثانيةً . وقد جمع الدوق بهذه الطريقة مالاً كثيراً . ربما لم يهتمّ النادلون بأنهم خُدعوا . فالدوق يظل دوقاً ، حتى في المنفى .

من أحد هؤلاء اللاجئين الروس سمع بوريس عن شيء قد يحمل وعداً بالمال .

وبعد يومين من رهننا معطفينا ، قال لي بوريس بطريقة غامضة :

«أخبرني يا صديقي ، ألديك أي آراء سياسية ؟» .

قلت : «لا» .

«ولا أنا . كل شخص هو وطنيّ طبعاً ، لكن مع ذلك ـ ألم يقل موسى شيئاً حول الانتفاع من المصريين ؟ أنت ، باعتبارك إنجليزياً ، كنتَ قرأت الكتاب المقدس . ما أعنيه هو ، هل تعترض على كسب المال من الشيوعيين ؟» .

«لا ، بالطبع لا» .

«حسناً ، يبدو أن في باريس جمعية روسية سرية قد تفعل شيئاً لنا . إنهم شيوعيون . والواقع أنهم عملاء للبلاشفة . إنهم يعملون باعتبارهم جمعية صداقة ، تتصل بالمنفيين الروس ، وتحاول أن تجعلهم بلاشفة . صديقي انضمَ إلى جمعيتهم ، وهو يعتقد أنهم سيساعدوننا لو ذهبنا إليهم» .

«لكن ماذا بمقدورهم أن يفعلوا لنا ؟ وفي كل الأحوال ، لن يساعدوني أنا ، فأنا لستُ روسياً» .

«ها هي ذي النقطة بالضبط . يبدو أنهم مراسلون لصحيفة موسكوفية ، ويريدون مقالات عن السياسة البريطانية . لو ذهبنا إليهم فربما كلّفوك بكتابة مقالات» .

«أنا ؟ لكني لا أعرف شيئاً عن السياسة» .

«خراء! ولا هُم . من تراه يعرف في السياسة ؟ الأمر سهل . كل ما عليك أن تفعله هو أن تستنسخ المقال من الصحف الإنجليزية . أليست هناك «ديلي ميل» في باريس ؟ انسخ مقالاتك منها» .

«لكن الديلي ميل صحيفة محافظة . وهم يكرهون الشيوعيين» .

«حسناً ، قل عكس ما تقوله الديلي ميل ، ولن تخطئ آنذاك . علينا ألا نفرِّط بهذه الفرصة ، يا صديقي . فقد تعني مئات الفرنكات» .

لم تستهوني الفكرة ، فالشرطة الباريسية شديدة على الشيوعيين ، وعلى الأجانب منهم بخاصة ، كما أنني موضع ريبةٍ بالفعل . فقبل شهور رآني مخبرٌ سريّ أخرج من مكتب صحيفة شيوعية أسبوعية ، مما سبّب لي متاعب كثيرة مع الشرطة . ولو قبضوا عليّ خارجاً من هذه الجمعية السرية ، فربما وقع إبعادي . بالرغم من هذا كله ، بدت الفرصة أثمن من أن يفرَّط بها . عصر ذلك اليوم ، جاء صديق بوريس ، وهو نادلٌ آخر ، ليأخذنا إلى الموعد . لا أستطيع أن أتذكر اسم الشارع ، لكنه كان شارعاً بائساً يمتد جنوباً من ضفة السين ، غير بعيد عن مجلس النواب . أصرّ صديق بوريس على اتخاذ الحيطة والحذر . تجوّلنا ، عابرين ، هنا وهناك ، في الشارع ، وعيّنّا المدخل الذي سوف نلجه ـ كان محل تنظيف ملابس ـ ثم مشينا عائدين ، مراقبين كل النوافذ والمقاهي . إن كان المحل معروفاً بأنه وكرٌ للشيوعيين فلا شك في أنه مراقَبٌ ، وقد اعتزمنا العودة إلى مسكننا لو رأينا أي شخص له هيأة المخبر السريّ . كنت خائفاً ، لكن بوريس كان يستمتع بهذه العمليات التآمرية ، وقد نسي تماماً أنه يوشك أن يتعامل مع من قتلوا أمه وأباه .

حين تأكدنا من خلوّ الشاطئ دخلنا المجاز مسرعين . في محل التنظيف كانت امرأة فرنسية تكوي ثياباً ، وقد أخبرتنا أن «السادة الروس» يقيمون في أعلى درجٍ عبر الحوش . ارتقينا عدة سلالم من درج معتم وخرجنا إلى منبسَط . في أعلى الدرج يقف شابّ قويّ ، واثق النظرات ،

قصير الشعر . حين وصلت نظر إليّ مرتاباً ، وسدّ الطريق بذراعه ، وقال كلمات بالروسية .

وعندما لم أجب قال محتداً باللغة الفرنسية : كلمة السر! Mot d'ordre .

توقفت ، مباغَتاً . فلم أكن توقعت كلمات سر .

كرّر الروسي : « كلمة السر! » .

صديق بوريس ، الذي كان يمشي خلفي ، تقدّم وقال شيئاً باللغة الروسية ، إما كلمة سر ، أو شرحاً .

وبدا أن الشاب الواثق اطمأنّ لما قيل ، فقادنا إلى غرفة صغيرة بائسة ذات زجاج مضبَّب . كان مكتباً في غاية البؤس ، فيه ملصقات دعاوة بالروسية ، وصورة كبيرة خشنة للينين ، على الجدران . عند الطاولة يجلس شخصٌ روسيّ غير حليق اللحية ، يرتدي قميصاً ، وهو منهمك في رُزم صحف من كدْسٍ أمامه .

عندما جئت تحدّث معي بفرنسية ذات لكنةٍ رديئة .

صاح بي مهتاجاً : « إنه التسيّب! لمَ جئتم بلا ربطة ملابس للغسيل ؟ » .

قلت : « غسيل ؟ » .

« كل من يأتي إلى هنا يحمل غسيلاً . إنهم يتظاهرون بأنهم يقصدون محل تنظيف الملابس في الأسفل . هات صرة ملابس كبيرة ، حين تأتي ، المرة المقبلة . نحن لا نريد أن تكون الشرطة في أثرنا » .

كان الوضع التآمري هذا أكثر حتى مما تصورتُ .

جلس بوريس على الكرسي الفارغ الوحيد ، وجرى حديث طويل باللغة الروسية . الشخص غير الحليق كان المتكلم الوحيد ، أما الشاب الواثق فقد استند إلى الجدار وعيناه عليّ ، كأنه لا يزال مرتاباً فيّ . جوٌّ غريبٌ ، أن تقف في الغرفة السرية الصغيرة ذات الملصقات الثورية ، وتنصت إلى محادثة لا تفهم منها كلمة واحدة . الروس يتكلمون بسرعة وحميّة ، مع ابتسامات

وتحريك أكتاف . وكنت أتساءل عمّ يدور الحديث . ربما كان واحدهم يدعو الآخر ، أبي الصغير ، أو حمامتي الصغيرة ، أو إيفان ألسكندروفتش ، مثل شخصيات الروايات الروسية . وسوف يكون الحديث عن الثورات . ولسوف يقول الشخص غير الحليق حازماً ، «نحن لا نتناقش ، الخلاف ماضٍ بورجوازيّ . الأفعال هي حججنا» . ثم أدركت أن الأمر لم يكن هكذا بالضبط . واضحٌ أنهم طلبوا عشرين فرنكاً رسومَ دخولٍ في الجمعية ، وأن بوريس كان يعد بدفعها (متاعنا في الدنيا سبعة عشر فرنكاً فقط) . أخيراً أخرج بوريس ذخرنا الثمين من النقود ، وقدّم خمسة فرنكات على الحساب .

آنذاك بدا الشاب الواثق أقل ارتياباً ، وجلس على حافة الطاولة . الشخص غير الحليق شرع يستجوبني باللغة الفرنسية ، مدوّناً ملحوظات على قطعة ورق . سألني : هل أنا شيوعي ؟ أجبت : تعاطفاً ، إذ لم أكن قطُّ في أي منظمة . هل أفهم الوضع السياسي في إنجلترا ؟ أوه ، طبعاً ، طبعاً . ذكرت أسماء بعض الوزراء ، وأبديت ملحوظات تُزري بحزب العمال . وماذا عن الرياضة ؟ هل أستطيع كتابة مقالات عن الرياضة ؟ (ثمت ، في القارة ، علاقة غامضة بين كرة القدم والإشتراكية) ، أوه ، طبعاً . الرجلان كلاهما كانا يؤمّنان على أقوالي بحركة رأسيهما . الشخص غير الحليق قال : «من الواضح أن لديك معرفة وثيقةً بظروف إنجلترا ، هل بمقدورك أن تكتب سلسلة مقالات لصحيفة موسكوفية أسبوعية . سوف نعطيك التفاصيل» .

«بالتأكيد» .

«إذاً ، أيها الرفيق ، سوف تسمع منا ، بالبريد أولاً ، غداً . وربما بالبريد الثاني . نحن ندفع مائة وخمسين فرنكاً للمقال . تذكّرْ أن تحمل معك صرة ملابس غسيل حين تجيء ، المرة المقبلة . إلى اللقاء ، يا رفيق» .

هبطنا السلالم ، ونظرنا مليّاً خارج محل تنظيف الملابس ، لنرى إن كان أحدٌ في الشارع ، ثم انسللنا خارجين . كان بوريس مجنوناً بالفرح .

وفي نوع من نشوة التضحية اندفع إلى أقرب دكان تبغ وأنفق خمسين سنتيماً على شراء سيجار . وخرج ، متألقاً ، يدقّ بعصاه على الرصيف .

«أخيراً! أخيراً! يا صديقي ، لقد ابتسم لنا الحظ فعلاً . أنت استطعت التأثير فيهم . أسمعتَه يناديك : يا رفيق ؟ مائة وخمسون فرنكاً للمقال ـ يا إلهي ، أي حظ ؟» .

في الصباح التالي ، حين سمعت ساعي البريد ، اندفعتُ هابطاً إلى المشرب كي آخذ رسالتي ، وقد خاب أملي ، حين لم تصل .

بقيت في المنزل حتى البريد الثاني . لا رسالة . وبعد أن مرت ثلاثة أيام ، بدون أن أسمع من الجمعية السرية ، فقدنا الأمل ، وقلنا إنهم كلفوا شخصاً آخر بكتابة المقالات .

وبعد عشرة أيام ، زرنا ثانيةً مكتب الجمعية السرية ، واحتطنا بأن أخذنا معنا صرّةً كأنها تحتوي على غسيل . وإذ بالجمعية السرية قد اختفت! المرأة في محل تنظيف الملابس لا تعرف شيئاً ـ قالت ببساطة إن هؤلاء السادة تركوا المكان قبل بضعة أيام ، بعد خلاف على الإيجار .

كم بدونا حمقى ، ونحن واقفان هناك مع صرّتنا! لكن عزاءنا أننا لم ندفع سوى خمسة فرنكات بدلاً من عشرين .

وهذا كان آخر ما سمعناه عن الجمعية السرية . من كانوا ؟ وماذا فعلوا ؟ لم يعرف أحد . لكنني أعتقد شخصياً أنه لم تكن لهم أي علاقة بالحزب الشيوعي ، أظن أنهم كانوا ، بكل بساطة ، محتالين ، يعتاشون على اللاجئين الروس بأخذ رسوم دخول في جمعية خيالية .

إنه عمل كامل الأمان ، ولا شك في أنهم لايزالون يؤدونه في مدينة أخرى . كانوا شُطّاراً ، ولعبوا دورهم بشكل مرموق . كان مكتبهم يبدو تماماً مثل ما يمكن أن يكون عليه مكتبُ شيوعي سريّ ، أما عن لمستهم الخاصة بصرّة الغسيل ، فأعتقد أنها علامة عبقرية .

9

لثلاثة أيام أخرى ، ظللنا نجرجر أقدامنا ، منهكين ، بحثاً عن عمل ، وعائدين إلى المسكن لنتناول وجبات متضائلة من الحساء والخبز في غرفة نومي . ثمت الآن بصيصا ضوء .

في المقام الأول ، سمع بوريس بعمل ممكن في فندق س ، قرب ساحة الكونكورد ، وفي المقام الثاني أن صاحب المطعم الجديد في شارع كومَيرس عاد أخيراً . ذهبنا عصراً ورأيناه . وفي طريقنا إليه كان بوريس يتحدث عن الثروات الطائلة التي سنجنيها لو حصلنا على العمل ، وعن أهمية إعطاء انطباع جيد لصاحب المطعم .

«المظهر ـ المظهر هو كل شيء ، يا صديقي . أعطني بدلةً جديدة أستدنْ ألف فرنك عشاءً . أمرٌ مؤسفٌ أنني لم أشتر ياقة حين كانت معنا نقود . لقد قلبتُ ياقتي هذا الصباح ، لكن ما الفائدة ؟ إن ظهرها أوسخ من بطنها . أتعتقد أني أبدو جائعاً يا صديقي ؟» .

«أنت تبدو شاحباً» .

«اللعنة ، ماذا يفعل المرء بالخبز والبطاطا ؟ أمرٌ مهلكٌ أن تبدو جائعاً . إنه يجعل الناس يركلونك . انتظر» .

توقف عند واجهة محل مجوهرات وصفع خديه بقوة كي يعيد الدم إليهما . وقبل أن يختفي التورّد أسرعنا ندخل المطعم ، وقدّمنا أنفسنا إلى صاحبه .

كان صاحب المطعم رجلاً قصيراً ، أميل إلى البدانة ، ذا هيبة وشعر أشيب متموج ، كان يرتدي بدلة مزدوجة الصدر من الفلانيلة ، ويتضوع منه العطر . أخبرني بوريس بأنه كان أيضاً عقيداً في الجيش الروسي . كانت زوجته هناك كذلك ، وهي امرأة فرنسية سمينة رهيبة ذات وجه ميت البياض وشفتين قرمزيتين تذكران بلحم العجل البارد والطماطم .

حيّا صاحب المطعم بوريس بحرارة ، وتحدثا بالروسية لبضع دقائق . ووقفت أنا في المؤخرة ، متهيئاً لإطلاق أكاذيب كبرى عن خبرتي في غسل الصحون .

ثم تقدم صاحب المطعم مني . تحركت بارتباك محاولاً أن أبدو متذللاً . وكان بوريس أدخل في روعي أن غاسل الصحون هو عبد العبد ، وتوقعت أن يعاملني صاحب المطعم مثل نُفاية . ولدهشتي أمسكَ بيدي مرحّباً خير ترحيب .

هتف : « إذاً ، أنت إنجليزي! كم الأمر مبهج! هكذا ، لن أسألك إن كنت لاعب غولف ؟ » .

قلت : « بالتأكيد » ، باعتبار أن هذا هو المتوقَّع مني .

« طوال حياتي ، وددت أن ألعب الغولف . ترى ، هل تتعطف يا سيدي العزيز وتريني بضع ضربات رئيسة ؟ » .

واضحٌ أن هذه هي الطريقة الروسية في العمل .

شرحت له ، وهو مصغٍ ، الفرق بين المضرب والحديد ، لكنه أخبرني فجأةً أن كل شيء قد تقرَّر . بوريس سوف يكون رئيس النادلين حين يُفتح المطعم ، وأنا غاسل صحون مع فرصة أن أرتقي إلى مشرف مرحاض ، عندما يكون الشغل ناجحاً . سألتُ ، متى يفتح المطعم ؟ أجاب الرجل بتفخيم : « بعد أسبوعين بالضبط اعتباراً من هذا اليوم » ، (كانت له عادة التلويح بيده ونفض سجارته في الوقت نفسه مما يبدو في منتهى الفخامة) ، « بعد أسبوعين بالضبط اعتباراً من هذا اليوم ، في موعد الغداء » ، ثم جعلنا نتفرج على المطعم مفتخراً .

كان محلاً أميل إلى الصغر ، مكوناً من بار ، صالة طعام ، ومطبخ ليس أوسع من غرفة حمّام اعتيادية . كان صاحب المطعم يعمل الديكور بطريقة « تصويرية »

تافهة (سمّاها النورماندية وكانت تعني عوارض زائفة تلصق على الجص ، وما إلى ذلك) ، واقترح أن يسمى المطعم أوبرج جيان كوتار ، لإعطاء مؤثر قروسطي . كما أن لديه منشوراً مطبوعاً ، مليئاً بالأكاذيب عن الروابط التاريخية للحيّ ، وفي هذا المنشور تمّ الإدّعاء ، بين أمور أخرى ، أنه كان في موضع المطعم نُزلٌ يؤمُّهُ شارلمان . أما البار فقد تولّى تزيينه بصور غير لائقة ، فنانٌ من الصالون . أخيراً قدّمَ لكل واحدٍ منا سجارة غالية ، وبعد مزيدٍ من الحديث ، ذهب إلى بيته .

انتابني إحساسٌ قويّ بأننا لن ننال خيراً من هذا المطعم . لقد بدا لي صاحبه محتالاً ، بل محتالاً غير ماهر ، وهذا هو الأسوأ . كما أنني رأيت دائنينِ اثنينِ لا يخطئهما النظر متوقفين عند الباب الخلفية .

« لقد نجحت محاولتنا . علينا الصبر أسبوعين فقط . ما الأسبوعان ؟ الطعام ؟ لا يهمّ . آ! فكر بأن عشيقة ستكون عندي بعد ثلاثة أسابيع! ترى ، أستكون سمراء أم شقراء ؟ لست أدري ، لا يهمني مادامت ليست نحيفة جداً » .

تلا ذلك يومان سيئان . لم يتبقّ لدينا إلا ستون سنتيماً أنفقناها على شراء رطل من الخبز مع قطعة ثوم نفرك الخبز بها . الفكرة في فرك الخبز بالثوم أن الطعم يبقى ، فيتولد عند المرء وهمٌ أنه قد أُطعمَ مؤخراً . أمضينا معظم النهار في « حديقة النباتات » . حاول بوريس اصطياد الحمام الأليف بالحجر ، لكنه أخطأ مرماه . وبعد ذلك كتبنا قوائم طعام عشاء على ظهور المظاريف . كنا جائعين إلى حدٍ لا نستطيع التفكير معه إلا بالطعام . وأتذكر العشاء الذي اختاره بوريس لنفسه أخيراً ، وكان : ١٢ محارة ، حساء بورش (حساء الشمندر الأحمر الحلو مع الكريم فوقه) ، روبيان ، فرخة بالقِدر ، لحم بقر مع البرقوق ، بطاطا صغيرة ، سلطة ، پُدنج ، وجبنة روكفور ، مع لتر بورغندي ، وبعض البراندي المعتق . إن لدى بوريس تذوقاً أممياً للأطعمة . فيما بعد ، حين صرنا موسرين ، رأيته يأكل وجبات ثقيلة مثل هذه بدون صعوبة .

عندما نفدت نقودنا توقفتُ عن طلب العمل ، وأمضيت يوماً آخر بلا أكل . لم أصدق أن أوبرج جيان كوتار سوف يفتح بالفعل ، ولم يكن لديّ

مشروع آخر ، غير أني من كسلي أكتفي بالبقاء في الفراش . ثم تبدّل الحظّ فجأةً . حوال الساعة العاشرة ، ليلاً ، سمعت صيحة متلهفة من الشارع . نهضت وذهبت إلى النافذة . كان بوريس هناك ، يهز عصاه مبتهجاً . قبل أن يتكلم أخرج رغيفاً ملوياً من جيبه وقذف به إلى أعلى ، نحوي .

« يا صديقي ، يا صديقي العزيز ، لقد أُنقذنا! ماذا تظن ؟ » .

« أكيدً ، أنك لم تحصل على عمل! » .

« في فندق س ، قرب ساحة الكونكورد ـ خمسمائة فرنك شهرياً ، مع الطعام . كنت أشتغل اليوم هناك . باسم يسوع المسيح ، كم أكلتُ! » .

بعد عشر ساعات ، أو اثنتي عشرة ساعة من العمل ، وبساقه العرجاء ، كانت فكرته الأولى أن يمشي ثلاثة كيلو مترات إلى نُزلي ، ويفضي لي بالأنباء السعيدة! والأكثر من ذلك ، أنه أخبرني أن ألقاه في التويلري غداً خلال راحته بعد الظهر ، فربما استطاع أن يسرق لي شيئاً من طعام . في الوقت المحدد التقيت بوريس على المصطبة العمومية . حلَّ صُدْرته وأخرج رزمة ورق جرائد كبيرة منسحقة ، وكان فيها لحم عجل مثروم ، وقطعة من جبنة الكامومبير ، وخبز ، وإصبع حلوى ، كلها مخلوط ببعضه .

قال بوريس : « هكذا! هذا كل ما استطعت تهريبه إليك . إن البوّاب خنزيرٌ خبيث » .

من غير المقبول أن يأكل المرء من جريدة على مقعد عمومي ، وبخاصة في التويلري ، حيث يعجّ المكان بالفتيات الجميلات ، لكني من شدة جوعي لم أكن لأهتمّ . وبينما أنا آكلُ ، شرح لي بوريس أنه يعمل في كافتيريا الفندق . وقد ظهر أن الكافتيريا هي أدنى وظيفة في الفندق ، والتردي الفظيع لنادلٍ ، لكنها مفيدة حتى يفتح أوبرج جيان كوتار . خلال ذلك الوقت كان عليّ أن ألتقي بوريس يومياً في التويلري ، ليهرِّب إليّ ما يستطيعه من طعام . لثلاثة أيام استمررنا في هذا الترتيب ، وعشت بالكامل على الطعام المسروق . ثم انتهت المتاعب كلها ، إذ ترك أحد غاسلي الصحون فندق س ، وأُعطيتُ العمل بتوصية من بوريس .

10

كان فندق س مبنىً واسعاً ، فخماً ، ذا واجهة كلاسيكية . وفي أحد جوانبه مدخلٌ مظلم صغير مثل جحر فأر ، هو لدخول العاملين .

وصلت في السابعة إلا الربع صباحاً . كان سيلٌ من الرجال ذوي البنطلونات المزيّتة يسرعون في الدخول ، ويتولى ضبطهم بوّابٌ جلس في مكتب صغير . انتظرت إلى أن جاء رئيس العاملين وهو من نمط نائب مدير ، وشرع يستجوبني . كان إيطالياً ، ذا وجه مستدير شاحب ، مرهق من كثرة العمل . استفسر مني عما إذا كنت غاسل صحون محترفاً ، أجبت بنعم ، فنظر إلى يديّ ووجد أني أكذب ، لكن ما أن عرف أني إنجليزي حتى غيّر نغمته وشغّلني .

قال : «كنا نبحث عمّن نطبّق إنجليزيتنا عليه . زبائننا أميركيون كلهم ، وكل ما نعرفه من اللغة الإنجليزية هو ـــــ» ثم ذكر شيئاً يكتبه الصبيان على جدران لندن . «قد تكون مفيداً ، تعال إلى تحت» . هبط بي في سلّم حلزوني إلى ممر ضيّق ، عميقاً تحت الأرض ، وكان الممر ذا سقف خفيضٍ حتى تعيّن عليّ أحياناً أن أنحني . كان الممر ساخناً حدّ الاختناق ، ومعتماً لا تضيئه إلا مصابيح صفر متباعدة عن بعضها بعدة ياردات . وبدا لي أن ثمت أميالاً من متاهة ممرات معتمة ـ وهي بالفعل بضع مئات من الياردات كما أعتقد ـ تُذكّر بالطوابق السفلى لسفينة ركّاب . هناك الحرارة نفسها ،

والاكتظاظ ذاته ، والرائحة الدافئة للطعام ، والضجة (آتية من أفران المطبخ) تشبه ضجيج المكائن . اجتزنا ممراتٍ تطلق أحياناً شتائم ، وأحياناً توقُّداً أحمر للنار ، أحياناً القعقعة المرتجفة من غرفة الثلج . وبينما نحن سائران ضربني شيءٌ على ظهري بعنف . كان قالب ثلج زنة مائة رطل يرفعه حمّال ذو صدرية زرقاء . وبعده جاء صبيّ يحمل قطعة ضخمة من لحم العجل على كتفه ، وخده مضغوط على اللحم الطري الإسفنجي . دفعاني جانباً بصيحة «تَنحَ ، يا أبله! » وتقدّما مسرعين . على الجدار ، وتحت أحد الأضواء ، كتب بعضهم بخطٍ أنيق جداً : «سرعان ما ستعرف أن رؤية سماء بلا غيوم في الشتاء هي أسهل من رؤية امرأةٍ في فندق س محتفظة ببكارتها » . يبدو أنه مكان عجيب . أحد الممرات يتفرع إلى محل غسيل ملابس ، حيث قدّمت لي امرأةٌ ذات وجه كالجمجمة مئزراً أزرق ، وكومة من قماش مسح الصحون . ثم أخذني رئيس العاملين إلى زنزانة صغيرة ، قبوٍ أسفل قبو ، كما هي بالفعل ـ حيث كان هناك مغطسٌ وعددٌ من مواقد الغاز . كان المكان جد منخفض بحيث لا أستطيع الوقوف منتصب القامة ، أما درجة الحرارة فربما كانت ١١٠ فهرنهايت . شرح لي رئيس العاملين طبيعة شغلي ، إذ عليّ أن أنقل وجبات الطعام إلى كبار المستخدمين في الفندق الذين يأكلون في غرفة طعام صغيرة ، في الأعلى ، وأن أنظف غرفتهم ، وأغسل صحونهم . وعندما ذهب ، مدّ النادل ، وهو إيطالي أيضاً ، رأساً أزغب ، إلى الممر ، ونظر إليّ باحتقار . قال : «إنجليزي ، إيه ؟ حسناً ، أنا المسؤول هنا . إن اشتغلتَ جيداً ـ قام بحركة فتح قنينة ومصّ بصوت مرتفع ـ وإلاّ ـ رفس قائمة الباب عدة رفسات شديدة ـ فإن قصف عنقك سيكون أهون من بصقة على الأرض . وإن حدثت مشكلة ، فإنهم سيصدقونني أنا ، لا أنت . لذا كن حذراً » .

بعد هذا ، بدأت العمل بسرعة . باستثناء حوالي الساعة ، كنت أعمل من الساعة السابعة صباحاً ، حتى التاسعة والربع مساءً ، أولاً في غسل الأواني ، ثم في تنظيف موائد وأرضية غرفة الطعام حيث يأكل

المستخدمون ، ثم في تلميع الكؤوس والسكاكين ، وبعدها في إحضار الوجبات ، فغسل الأواني ثانيةً ، فإحضار وجبات أخرى وتنظيف أوانٍ أخرى . كان عملاً سهلاً انسجمت معه باستثناء ذهابي إلى المطبخ كي آخذ الوجبات . لم يكن المطبخ يشبه أي شيء رأيته أو تخيلته ـ كان قبواً خانقاً ، خفيض السقف ، جحيماً تضيئه النيران بضوء أحمر ، وضجّته تصمّ الآذان سباباً وقعقعة قدور ومقلايات . كان ساخناً جداً حتى أن كلّ ما هو معدنٌ يغطى بالقماش ، عدا المواقد . في الوسط كانت الأفران حيث يروح ويجيء إثنا عشر طاهياً تقطر وجوههم عرقاً بالرغم من قلانسهم البيض . حول الأفران تمتد طاولات يتكأكأ عليها بصوانيهم حشدٌ من النادلين وغاسلي الأطباق . مساعدو طهاة ، عراة حتى خصورهم يغذّون النيران أو ينظفون مقلايات نحاس ضخمة بالرمل .

كأن كل شخص في حمّى سرعة وغضب . رئيس الطهاة ، وهو شخص لطيف ، قرمزي الوجه ، ذو شاربين ، واقفٌ في الوسط ، يعلن باستمرار : ماشي... بيضتان مخفوقتان! ماشي... شاتوبريان واحد مع بطاطا محمّرة ـ ولا يتوقف إلا حين يشتم أحد غاسلي الصحون . كانت هناك ثلاث طاولات طويلة ، وعندما دخلت المطبخ للمرة الأولى أخذت صينيتي إلى الطاولة الخطأ . جاء إليّ رئيس الطهاة ، وفتل شاربيه ، ونظر إليّ من رأسي إلى قدميّ . ثم استدعى طاهي الفطور وأشار إليّ .

«أترى ذاك ؟ ذاك هو نمط غاسلي الصحون الذين يرسلونهم إلينا هذه الأيام . من أين أتيتَ ، يا أبله ؟ من شارنتون ، كما أظن ؟» (كان في شارنتون مستشفى مجانين كبير) .

قلت : «من إنجلترا» .

«ربما عرفت الأمر . يا سيدي العزيز الإنجليزي ، حسناً... هل لي أن أخبرك بأنك ابن قحبة ؟ والآن ، انقلعْ إلى الطاولة الأخرى ، حيث ترجع» .

لقيت هذا النوع من الاستقبال كلما ذهبت إلى المطبخ ، إذ أني أقع

دائماً في غلطةٍ ما ، كانوا يتوقعون أنني أعرف الشغل ، ولهذا يشتمونني . ولمجرد الفضول عددت المرّات التي دعوني فيها ، طرخور* ، خلال اليوم ، فكانت تسعاً وثلاثين مرة .

في الساعة الرابعة والنصف أخبرني الإيطالي أنني أستطيع التوقف عن العمل . إلا أن فترة التوقف هذه لا تحتمل الخروج ، إذ أننا سنعود إلى العمل في الخامسة .

ذهبت إلى المرحاض لأدخن ، ذلك لأن التدخين ممنوعٌ منعاً باتاً ، وقد نبهني بوريس إلى أن المرحاض هو المكان الآمن الوحيد . بعد ذلك ، اشتغلت ثانيةً ، حتى التاسعة والربع ، حين أخرج النادل رأسه إلى الممر وأخبرني أن أترك بقية الأواني . ولدهشتي أنه صار على نحو مفاجئ ، ودوداً ، بعد أن كان دعاني خنزيراً وطرخوراً ، وأدركت أن شتائمه كانت نوعاً من الاختبار فقط .

قال النادل : «هذا يكفي ، يا صغيري ، أنت لست شاطراً ، لكنك تشتغل جيداً ، تعال وخذ عشاءك . الفندق يسمح لكل منا بليترين من النبيذ ، وقد سرقتُ ثالثاً . تعال نسكر سكرة لطيفة .

تعشينا عشاءً فاخراً من بقايا كبار المستخدمين . النادل الذي صار رائق المزاج حدّثني عن مغامراته الغرامية ، وعن رجلين في إيطاليا كان طعنهما ، وعن هربه من الخدمة العسكرية . كان شخصاً طيباً إن عرفتَه ، ويذكّرني شيئاً ما ببنفنيتو تشليني . كنت متعباً غارقاً في العرق ، لكني أحسست بأني إنسانٌ جديد بعد يوم من الطعام الفعلي . لم يَبدُ العملُ صعباً ، وشعرت بأن هذا العمل يناسبني . ولم يكن من المؤكد أنه سيستمرّ لأنهم شغّلوني إضافياً ، وباليوم ، بخمسة وعشرين فرنكاً . البواب ذو الوجه النكد عدّ النقود ناقصةً خمسين سنتيماً ، للتأمين ، كما قال (تبيّن فيما بعد

* نوع من السمك الشائك . (المترجم)

أنها كذبة) . ثم خطا خارج مكتبه إلى الممر ، وجعلني أنزع سترتي ، وفتشني تفتيشاً دقيقاً ، باحثاً عن طعام مسروق . ظهر رئيس المستخدمين ، من بعد ، وكان غدا ، مثل النادل ، لطيفاً ، ومسروراً لأني كنت أريد العمل . قال : «سوف نعطيك عملاً ثابتاً إن أردتَ . يقول رئيس الطهاة إنه سوف يستمتع بشتم شخصٍ إنجليزي . هل توقَّع على شهر ؟» .

ها هو ذا العمل أخيراً ، وكنت مستعداً للوثوب عليه . ثم تذكرت المطعم الروسي المزمع فتحه في أسبوعين . وبدا لي أن من غير الصواب أن أعد بالعمل شهراً ، ثم أترك في المنتصف . قلت إن عملاً آخر ينتظرني ـ أبالإمكان استخدامي لمدة أسبوعين ؟ لكن رئيس المستخدمين هزّ كتفيه وقال إن الفندق لا يشغِّل الناس إلا على أساسٍ شهريّ . واضحٌ أني فقدتُ فرصة عملي .

حسب الاتفاق ، كان بوريس ينتظرني عند رواق شارع ريفولي ، حين أخبرته بما جرى . احتدّ غاضباً ، وللمرة الأولى منذ تعارفنا نسيَ أصوله ودعاني أحمق .

«أبله! أبله البُلهاء ، ما فائدة إيجادي عملاً لك وأنت تتخلى عنه في اللحظة التالية ؟ كيف استطعتَ أن تكون أحمق إلى حد أن تذكر المطعم الآخر ؟ كان عليك أن تعد بالعمل شهراً» .

رددتُ : «بدا لي أن أصدقهم القول بأني سأترك» .

«صادق! صادق! هل سمع أحدٌ بغاسل صحونٍ صادق ؟ يا صديقي ـ أمسك فجأةً بياقتي وتكلم بإخلاص ـ يا صديقي ، لقد عرفت ما عمل الفنادق . أتظن أن لدى غاسل الصحون ترف الإحساس بالشرف ؟» .

«لا . ربما لا» .

«حسناً ، إذاً ، عد سريعاً ، وأخبر رئيس المستخدمين أنك مستعد للعمل شهراً . قل إنك سوف ترفض العمل الآخر . وحين يفتح مطعمنا يمكن أن نترك» .

«لكن ، ماذا عن أجوري ، لو خرقت عقد العمل ؟» .

دقّ بوريس بعصاه على الرصيف ، ذارفاً الدموع على مثل هذا الغباء «أطلب دفع أجورك ، باليوم ، فلا تخسر سنتيماً . أتظن أنهم سيحاكمون غاسل صحون لو أخلّ بعقد ؟ إن غاسل الصحون أحطُّ من أن يحاكَم» .

أسرعتُ عائداً ، وأخبرت رئيس المستخدمين بأني سوف أعمل شهراً ، ووقّعت العقد .

كان هذا درسي الأول في أخلاقيات غاسل الصحون . وأدركت فيما بعد كم كنتُ أحمق في دقّتي ، ذلك لأن الفنادق الكبيرة تعامل مستخدميها بلا رحمة . إنهم يشغلونهم ويصرفونهم حسب ما يقتضي الشغل ، وكل هذه الفنادق تطرد عشرة بالمائة أو أكثر من مستخدميها ، خارج الموسم . وليست لديهم صعوبة في إحلال شخص مكان شخص آخر يترك العمل بدون إشعار . ذلك لأن باريس ملأى بعمال الفنادق العاطلين .

11

تبيّن أني لم أُخلَّ بعقدي ، فها هي ذي ستة أسابيع تمرّ دون أن يبدي أوبرج جيان كوتار أي إشارة إلى أنه سوف يفتح . وفي هذا الوقت كنت أشتغل في فندق س ، أربعة أيام من الأسبوع في الكافتيريا ، ويوماً أساعد النادل في الطابق الرابع ، ويوماً أحلّ محل المرأة التي تتولى الغسيل لصالة الطعام . يوم عطلتي ، لحسن الحظ ، هو يوم الأحد ، لكن يحدث أحياناً أن يمرض شخص فيتعيّن عليّ أن أحلّ محله يوم الأحد أيضاً . كانت ساعات العمل من السابعة صباحاً حتى الثانية عصراً ، ومن الخامسة مساءً حتى الحادية عشرة ، لكن ساعات العمل تبلغ أربع عشرة ساعة حين أتولى غسيل صالة الطعام . هذه الساعات تعتبر قليلة بالقياس إلى المتعارف عليه من ساعات عمل غاسل صحون باريسيّ . مصاعب الحياة الوحيدة كانت في الحرارة الخانقة لهذه الأقبية المتاهات . في ما عدا هذا ، يعتبر الفندق ، وهو واسع وجيد التنظيم ، فندقاً مريحاً .

كانت كافتيريتنا قبواً معتماً ، مساحتها عشرون قدماً في سبعة ، وارتفاعها ثمانية أقدام ، وكانت مزدحمة جداً بجرار البُنّ ، وقطّاعات الخبز وما إلى ذلك حتى ليصعب على المرء أن يتحرك بدون أن يصطدم بشيء ما . كان يضيئها مصباح كهربائي شاحبٌ واحدٌ ، وأربع نيران غاز أو خمس تطلق أنفاساً حُمراً شديدة . كان في الكافتيريا محرار ، ودرجة الحرارة لا تنخفض

عن ١١٠ فهرنهايت ـ أحياناً قاربت الـ١٣٠ نهاراً . في طرف من المكان خمسة مصاعد خدمة ، وفي الطرف الآخر مخزن ثلج لحفظ الحليب والزبدة . وحين تذهب إلى مخزن الثلج تنخفض درجة الحرارة ، فجأةً ، مائة درجة . وكان الأمر يذكّرني بالأغنية التي تتحدث عن جبال جرينلاند الجليدية وساحل الهند المرجاني . رجلان يعملان في الكافتيريا إلى جانب بوريس وجانبي . أحدهما هو ماريو ، إيطاليّ ضخم مستثار ـ والثاني حيوان أشعر غير مهذب ندعوه المجري ، وأعتقد أنه ترانسلفانيّ أو من منبت أبعد . وما عدا المجري كنا جميعاً رجالاً ضخاماً ، وفي ساعات اشتداد العمل نصطدم ببعضنا دائماً .

كان العمل في الكافتيريا متشنجاً . نحن لا نتوقف ، لكن العمل الحقيقي يأتي فقط في فوراتٍ من ساعتين ـ ونحن نسمي كل فورة ، زخّة رصاص . زخّة الرصاص الأولى تأتي في الساعة الثامنة ، حين يبدأ النزلاء في الأعلى يستيقظون ويطلبون الفطور . في الساعة الثامنة ينطلق الدقّ والزعق في الدور الأسفل بأكمله ، الأجراس تدقّ من كل ناحية ، ورجالٌ ذوو صدريّات زرق يندفعون في الممرات ، ومصاعد خدمتنا تهبط في ارتطامات متزامنة ، والنادلون في الطوابق الخمسة كلها يبدأون يشتمون باللغة الإيطالية ويصيحون في مهاوي المصاعد . لا أتذكر كل طلباتنا ، لكنها تتضمن إعداد الشاي والقهوة والشوكولاتا ، إحضار وجبات من المطعم ، وخمورٍ من القبو ، وفاكهة وما إليها من صالة طعام ، وتقطيع الخبز ، وتحميصه ، وتدوير رقائق الزبدة ، وقياس المربّى ، وفتح علب الحليب ، وعدّ قطع السكّر ، وسلق البيض ، وطهي العصيدة ، وهرس الثلج ، وطحن البنّ ـ هذا كله ، لعدد يتراوح بين مائة نزيل ومائتين . يقع المطبخ على مبعدة ثلاثين ياردة ، وصالة الطعام على مبعدة ستين أو سبعين ياردة . وكل ما نرسله في مصاعد الخدمة يجب أن تعلوه قائمة ، والقوائم يجب أن تصنّف بعناية ، وتثور ضجة حتى لو فُقدت قطعة سكّر . وإلى ذلك ، علينا أن نزود

العاملين بالخبز والقهوة ، ونقل الوجبات إلى النادلين في الأعلى . إنه لعملٌ معقد على العموم .

وقد حسَبتُ أن على المرء أن يمشي أو يجري حوالي خمسة عشر ميلاً في اليوم ، لكن توتر العمل يظل عصبياً أكثر منه جسدياً . في الظاهر لا يبدو أن ثمت عملاً أيسر من العمل الغبي لمساعد الطاهي ، لكنه مرهقٌ جداً حين يكون في عجلة . على المرء أن يقفز أماماً ووراءً بين عدد من الأشغال ـ إنه مثل فرز علبة من ورق اللعب مع حركة ثواني الساعة . أنت مثلاً تحمّص الخبز ، وإذا بالدقّة تأتيك! يهبط مصعد الخدمة بطلب شاي ، وفطائر وثلاثة أنوع من المربّى ، وفي الوقت نفسه... دقّة! طلبٌ آخر ببيض مخفوق ، وقهوة ، وجريب فروت ، تركض إلى المطبخ للبيض ، وإلى صالة الطعام للفاكهة ، مندفعاً كالبرق كي تعود قبل أن يحترق خبزك المحمّص ، وعليك أن تتذكر أمر الشاي والقهوة ، بجانب ستة طلبات أخرى تنتظرك ، وفي الوقت نفسه هناك نادل يتبعك ويثير الدنيا بسبب قنينة صودا مفقودة ، وأنت تجادله . العمل يحتاج إلى ذهن أكثر مما هو متصوّر . ولا شك في صحة قول ماريو إنه تلزم سنة كاملة لإعداد عامل كافتيريا .

كان الوقت بين الثامنة والعاشرة والنصف نوعاً من الحمّى الهاذية . أحياناً كنا نبدو وكأنْ لم يتبقّ لدينا من الحياة سوى خمس دقائق . أحياناً تحدث توقفاتٌ مفاجئة حينَ تنقطع الطلبات ، فيبدو كل شيء ساكناً للحظةٍ . ثم نكنس زبالة الأرضية ، ونرشّ نشارة خشب جديدة ، ونشرب كمياتٍ من النبيذ أو القهوة أو الماء ـ أي شيء ، مادام رطباً . وغالباً ما نكسِّر قطع الثلج ونمتصها أثناء العمل . الحرارة من نيران الغاز مقيِّئة ، ونحن نعبّ المشروبات عبّاً خلال النهار ، وبعد بضع ساعات تكون حتى صدرياتنا مبتلة بالعرق . أحياناً لا نستطيع تلبية الطلبات كلها ، فيظل بعض النزلاء بلا فطور ، لكنّ ماريو كان يشدّ من أزرنا دائماً . فقد اشتغل أربع عشرة سنة في الكافتيريا ، ويتمتع بمهارة ألا يضيع ثانيةً واحدة بين الأعمال . المجري كان

في منتهى الغباء ، وأنا لستُ ذا خبرة ، وبوريس كان أميل إلى التهرب أولاً بسبب عرجه ، ثم لأنه كان يشعر بالعار من عمله في الكافتيريا بعد أن كان نادلاً . لكن ماريو كان رائعاً . الطريقة التي يمدّ بها ذراعيه الطويلتين ليملأ دلّة قهوة بيد ويسلق بيضة بالأخرى ، وفي الوقت نفسه يحمّص الخبز ويصيح بتوجيهات إلى المجري ، وبين الحين والآخر يغني مقاطع من ريجوليتو ـ كانت موضع ثناء ليس بعده ثناء . صاحب الفندق يعرف قيمته ، وكان يقبض ألف فرنك شهرياً ، بدلاً من الخمسمائة التي نقبضها نحن .

هرْجة الفطور تتوقف في العاشرة والنصف . آنذاك ننظف طاولات الكافتيريا ، ونكنس الأرضية ، ونلمع النحاسيات ، وفي الصباحات نذهب مرة واحدة إلى المرحاض لندخن . هذا كان وقت تراخينا ـ وإنه لتراخٍ نسبيّ على أي حال ، إذ خُصصت لنا عشر دقائق فقط للغداء ، ولم يحدث أنْ مررنا بها بلا تدخُّل . غداء الزبائن ، بين الثانية عشرة والثانية ، هو فترة غليان ثانية مثل ساعة الفطور . أغلب عملنا كان إحضار الوجبات من المطبخ ، وهذا يعني الشتائم المستمرة من جانب الطهاة . في هذا الوقت يكون الطهاة تصببوا عرقاً أمام أفرانهم ، وغدا مزاجهم مستحراً .

في الساعة الثانية نكون فجأةً أحراراً . نخلع صدرياتنا ونلبس سُتراتنا ، ونسرع خارجين ، وحين تكون لدينا نقود ، نندفع رأساً إلى أول مشرب . إنه لأمرٌ غريبٌ ، خروجنا من تلك الأقبية التي تضيئها النيران ، إلى الشارع . الهواء يبدو صافياً مبهراً وبارداً ، مثل صيفٍ قطبيّ ، وكم تبدو رائحة البترول عذبةً ، بعد عطن العرق والطعام! أحياناً نلتقي بعض طهاتنا ونادلينا في المشرب ، وكانوا ودودين ، يقدمون لنا المشروب . في الداخل كنا مثل العبيد ، لكن من آداب الحياة الفندقية أن الناس أكْفاء في فترات الراحة ، وأن الشتائم ليست في الحساب .

في الخامسة إلا الربع نعود إلى الفندق . حتى السادسة والنصف لن تكون طلبات . وكنا نستخدم هذا الوقت في تلميع الفضيات وتنظيف جِرار

البنّ ، وأعمالٍ أخرى متنوعة . ثم يبدأ الغليان العظيم ـ ساعة العشاء . أود لو كنت «زولا» فترة قصيرةً ، فقط لأصف ساعة العشاء تلك . جوهر الحال ، أن ثمت مائة أو مائتي شخص يطلبون وجبات فردية مختلفة من خمسة صحون أو ستة ، وأن هناك خمسين أو ستين شخصاً يقومون بالطهي والخدمة ، والتنظيف فيما بعد . إن أي شخص ذي معرفة بتزويد الطعام يعرف ماذا يعني ذلك . وفي هذا الوقت حين يتضاعف العمل ، يكون الفريق كله مرهقاً ، وعددٌ منه يكونون سكارى . بمقدوري أن أكتب صفحات عن المشهد بدون إعطاء فكرة حقيقية عنه . الإندفاعات ذهاباً وإياباً في الممرات الضيقة ، الإصطدامات ، الصيحات ، الصراع مع الصناديق والصواني وكتل الثلج ، الحرارة ، العتمة ، المشادّات الحانقة التي لا وقت لإكمالها ـ كل هذا يفوق الوصف . وكل من جاء إلى الدور الأسفل للمرة الأولى يظن نفسه في غرفة مجانين . فيما بعد ، حين فهمت عمل الفندق ، رأيت النظام في كل هذه الفوضى .

في الثامنة والنصف يتوقف العمل بغتةً . لن نكون أحراراً حتى التاسعة . لكننا اعتدنا أن نلقي بأنفسنا على الأرض ، ونتمدد هناك ، مريحين أرجلنا ، كسالى بحيث لا نستطيع حتى الذهاب إلى مخزن الثلج كي نشرب . أحياناً كان رئيس المستخدمين يأتي مع قناني بيرة ، ذلك لأن الفندق يقدم لنا بيرة إضافية حين يكون يوم عملنا شاقاً . أما الطعام الذي يقدم لنا فلم يكن أكثر من مقبول ، لكن صاحب الفندق لم يكن بخيلاً بالمشروب ، كان يسمح لكل واحد منا بليترين من النبيذ يومياً ، عارفاً أن غاسل الصحون إن لم يُعطَ الليترين فإنه سوف يسرق ثلاثة . من حقنا أيضاً بقايا الأشربة في القناني ، ولهذا نشرب كثيراً ـ وهو أمرٌ حسن ، ذلك لأن المرء يبدو أسرع عملاً إن كان ثملاً نوعاً ما .

تمر أربعة أيام من الأسبوع هكذا ، أما اليومان الباقيان ، فأحدهما يوم نعيم ، وثانيهما يوم بؤس . بعد أسبوع من العمل أحسّ بالحاجة إلى عطلة .

إنه مساء السبت ، ولهذا كان الناس في مشربنا مندفعين نحو السكر ، وكنت أندفع معهم ، فالغد يوم عطلة . نذهب جميعاً إلى النوم ، حوالي الساعة الثانية ، سكارى . ومعنى هذا أننا سنظل راقدين حتى الظهيرة . لكنني في الساعة الخامسة والنصف نُبهت من نومي فجأةً ، كان حارسٌ ليلي من الفندق يقف بجانب فراشي . سحب الأغطية وهزّني بعنف .

احتججتُ : «لماذا يجب أن أشتغل ؟ هذا يوم عطلتي» .

«يوم عطلة ، لا شيء! يجب أداء العمل . انهض!» .

نهضت وخرجت ، وبدا كما لو أن ظهري انكسر ، وأن جمجمتي ملأى بالجمر المتّقد . لم أفكر بأنني أستطيع أداء عمل يومٍ . لكنني ، بعد ساعةٍ في الطابق السفلي ، وجدتُني في حالة جيدة . ويبدو لي أن الشخص في هذه الأقبية الساخنة ، سوف يتخلص من كل كحولٍ في جسمه ، كأنه في حمّام تركيّ . غاسلو الصحون يعرفون هذا ، ويعتمدون عليه .

إن القدرة على عبِّ مقادير من النبيذ ، ثم تعرُّقها خارج أجسامهم قبل أن تفعل فعلها الضارّ ، هي من تعويضات حياتهم .

12

أفضل وقت لي في الفندق كان حين ذهبت أساعد النادل في الطابق الرابع . عملنا في حجرة صغيرة تتصل مع الكافتيريا بمصاعد الخدمة . كانت الحجرة باردة لطيفةً بعد الأقبية ، والعمل كان تلميع الفضيات والكؤوس بصورة رئيسة ، وهو عملٌ إنسانيّ . كان فالنتي النادل ، من النمط الجيد ، وكان يعاملني معاملة الندّ للندّ حين نكون وحدنا ، مع أن عليه أن يتكلم بخشونة في حضور أيّ كان ، إذ لم يكن ليليق بالنادل أن يكون ودياً مع غاسلي الصحون . وقد اعتاد أن يهبني ، أحياناً خمسة فرنكات ، أيام العمل الجيد . كان شاباً لامعاً ، في الرابعة والعشرين ، لكنه يبدو في الثامنة عشرة ، ومثل أغلب النادلين ، كان يعتني بمظهره ويتقن ارتداء ملبسه . كان بسترته الطويلة السوداء وربطته البيضاء ووجهه النضر وشعره البني السبط ، يشبه تماماً فتى من كلية إيتون ، إلا أنه خاض مغامرة العيش من عامه الثاني عشر ، وبدأ يرتقي سلّم الحياة ابتداءً من المجاري فعلاً . ومن تجاريبه أنه اجتاز الحدود الإيطالية بلا جواز سفر ، وباع الكستناء على عربة يدوية في شوارع الشمال ، وحُبس خمسين يوماً في لندن لأنه يعمل بدون إجازة ، وفعلت معه الحب عجوزٌ في فندقٍ ، أعطته خاتم ماس ثم اتهمته بسرقته . ألفتُ الاستمتاع بالحديث معه ، في فترات تراخي العمل ، ونحن ندخن عند مهوى المصعد .

أما يوم بؤسي ، فكان حين أتولى الغسل لصالة الطعام . لم أكن أغسل الصحون ، فهذا يتمّ في المطبخ ، لكنني مكلفٌ بالأواني الأخرى ، الفضيات ، الكؤوس ، وكذلك السكاكين . مع هذا ، فالأمر يعني ثلاث عشرة ساعة ، وكنت أستخدم ما بين ثلاثين إلى أربعين قطعة قماش مسحٍ خلال اليوم . الوسائل العتيقة المستخدمة في فرنسا تضاعف وقت الغسل . رفوف الأطباق غير مسموعٍ بها ، وليس ثمت صابون مبروش ، الصابون الناعم فقط الذي لا يرغو في ماء باريس القاسي . أعملُ في جُحرٍ مزدحم صغير ، هو للخزن والتنظيف في آن ، متصل مباشرة بصالة الطعام . إلى جانب الغسل ، عليّ أن آتي بطعام النادلين ، وأن أخدمهم على المائدة ، وكان أغلبهم سفلةً بصورةٍ لا تحتمل ، وتعيّنَ عليّ أن أستخدم قبضتي أكثر من مرة للحصول على قدر من التهذيب . الشخص الذي يقوم عادةً بالغسل كان امرأة ، وقد حوّلوا حياتها إلى جحيم .

كان من الممتع التفرج على الجحر القذر والتفكير بأن باباً مزدوجاً فقط هو الفاصل بيننا وبين صالة الطعام . ثمت يجلس الزبائن بكل بهائهم ـ مفارش مائدة ناصعة البياض ، مزهريات ، مرايا ، وأفاريز مذهبة ، وصور ملائكة . بينما هنا ، على مبعدة أقدام فقط ، نقبع نحن في الوسخ المقرف . وكان وسخاً مقرفاً حقاً . لم يكن لدينا وقت لمسح الأرضية إلا في المساء ، وكنا نتحرك في بقعة من الماء المصوبن وأوراق الخسّ والورق الممزق والطعام المداس . إثنا عشر نادلاً خالعين ستراتهم ، مبدين آباطهم المتعرقة ، يجلسون إلى طاولة وهم يقطعون السلطة ويمدّون أصابعهم في أواني الكُريم .

كان في الغرفة مزيجٌ من رائحة الطعام والعرق . في كل مكان ، في الخِزانات ، وخلف أكداس الأواني ، مذخرٌ من الطعام الذي سرقه النادلون . كان هناك مغطسان فقط ، ولا حوض غسيل ، ولم يكن غريباً أن يغسل نادلٌ وجهه في الماء المستعمل لشطف الأواني . لكن الزبائن لا يرون شيئاً

من هذا .

خارج صالة الطعام كان حصير من السعف ، ومرآة ، حيث يعدِّل النادلون من هيآتهم ، ليدخلوا الصالة صورةً للنظافة .

إنه لمشهد ذو دلالة أن ترى نادلاً يدخل في صالة طعام فندق . ما أن يجتاز الباب حتى يعتريه تغيّرٌ مفاجئ . يستقيم وضع كتفيه ، وكل الوسخ والتعجل والإنزعاج انزاح في لحظة . إنه ينزلق على السجادة في جو وقور مثل قسيس . أتذكر مساعد رئيس النادلين ، وهو إيطاليّ ناريّ الطبع ، واقفاً بباب صالة الطعام ، يخاطب متدرباً كسر زجاجة نبيذ . كان يهزّ قبضته على رأسه ويصرخ (كان الباب لحسن الحظ مانعاً للصوت) :

«أتظن نفسك نادلاً ، أيها النغل الفتيّ ؟ أأنت نادل ؟ أنت لا تستحق أن تغسل أرضية الماخور الذي جاءت أمك منه ، يا طرخور!» .

خانته الكلمات ، فاستدار إلى الباب ، وحين فتحها أطلق إهانةً أخيرة في مثل طريقة سكواير ويسترن في توم جونز .

ثم دخل الصالة ، وانزلق عبرها ، والصحن في يده ، مثل بجعة . وبعد عشر ثوانٍ كان ينحني بتوقير أمام زبون . وأنت لا تستطيع إلا أن تفكر ، وأنت تراه ينحني ويبتسم ، تلك الابتسامة الغامضة للنادل المدرَّب ، بأن الزبون سوف يخجل لأن أرستقراطياً مثل هذا ، يخدمه .

إن الغسل عملٌ بغيض ـ ليس شديداً لكنه مضجرٌ وغبيّ . ومن الرهيب التفكير بأن أناساً أمضوا عقوداً من حياتهم في مثل هذه الأعمال .

المرأة التي حللتُ بدلاً منها ، كانت في الستين من عمرها ، وقد وقفت عند المغطس ثلاث عشرة ساعة يومياً ، لستة أيام في الأسبوع ، وطوال العام . وعلاوةً على ذلك كانت تتعرض لمضايقة النادلين الشنيعة . قالت مرةً إنها كانت فنانة يوماً ما ـ وأظنها كانت عاهرةً ـ فمعظم العاهرات ينتهين خادمات . وكان غريباً أن أراها وهي في هذه السن من حياتها تلبس شعراً مستعاراً أشقر زاهياً ، وتكحل عينيها ، وتصبغ وجهها مثل فتاة في العشرين .

واضحٌ أنه حتى الساعات الثماني والسبعون أسبوعياً ، يمكن أن تترك للمرء شيئاً من حيوية .

13

في ثالث يوم لي بالفندق ، استدعاني رئيس المستخدمين ، الذي أَلِفَ مخاطبتي بلهجة لطيفة ، ثم قال لي بحدة :

«اسمع ، أنت ، احلقْ تلك الشوارب حالاً! يا إلهي ، مَن سمع بغاسل صحونٍ له شوارب ؟» .

بدأت أحتجّ ، لكنه قاطعني قائلاً : «غاسل صحون له شوارب ـ هراء! إياك أن تأتي غداً وأراك بهذه الشوارب!» .

في عودتنا إلى المسكن ، سألت بوريس عن معنى هذا . هزّ كتفيه : «عليك أن تفعل ما أمرك به ، يا إلهي . لا أحد في الفندق يحتفظ بشواربه إلا الطهاة . كنتُ ظننت أنك لحظتَ الأمر . السبب ؟ لا سبب . إنها العادة» .

رأيت أنها أصولٌ متّبعة ، مثل عدم ارتداء رباط عنق أبيض مع سترة العشاء . وهكذا حلقت شواربي . فيما بعد وجدتُ شرحاً ، وهو أن النادلين في الفنادق الجيدة هم بدون شوارب ، ومن أجل أن يُظهروا أنهم أعلى منزلةً قرروا أن غاسلي الصحون يجب أن يكونوا بلا شوارب أيضاً . أما الطهاة فيحتفظون بشواربهم إظهاراً لاحتقارهم النادلين .

إن هذا يقدم فكرة عن النظام الفئوي الواضح في الفندق . إن مستخدمينا الذين يَرْبون على المائة تتدرج منزلتهم بصورة دقيقة ، مثل

الجنود تماماً . والطباخ أو النادل هما أعلى رتبةً من غاسل الصحون مثلما النقيب أعلى رتبةً من المجند . المدير هو فوق الجميع ، وبمقدوره أن يطرد أي شخص من العمل ، حتى الطهاة . لم نر صاحب الفندق ، البتة . وكل ما نعرفه عنه هو أن وجباته ينبغي أن تنال عنايةً أكثر من وجبات الزبائن . كل الانضباط في الفندق معتمد على المدير . كان شخصاً شديد الانتباه ، يراقب بدقةٍ أي تراخٍ في العمل ، لكنا كنا أشطر منه . في الفندق منظومة أجراس خدمةٍ ، والمستخدمون جميعاً يستعملون هذه الأجراس للإشارة بينهم . رنة جرس طويلة ، تتلوها قصيرة ، متبوعة بطويلتين ، تعني أن المدير قادم . وعندما نسمعها نهتمّ بأن نبدو مشغولين عملاً .

بعد المدير ، يأتي رئيس النادلين . وهو لا يخدم مائدةً ، إلا إذا كان الزبون لورداً ، أو من يماثله ، إلا أنه يوجه النادلين الآخرين ، ويساعد في تزويد الطعام . هِباته ، ونصيبه من شركات الشمبانيا (فرنكان لكل فلّينة يعيدها إلى الشركات) تصل إلى مائتي فرنك في اليوم . إنه في منصب منفصل تماماً عن سائر المستخدمين ، وهو يتناول وجباته في غرفة خاصة ، مع أطباق فضة على المائدة ، ويتولي خدمته متدربان يرتديان سترتين بيضاوين .

وأدنى قليلاً من رئيس النادلين ، يأتي رئيس الطهاة ، وهو يقبض خمسة آلاف فرنك في الشهر ، ويتناول وجباته في المطبخ ، لكن على مائدة خاصة ، ويخدمه طاهٍ متمرن . ثم يجيء رئيس المستخدمين ، الذي يقبض ألفاً وخمسمائة فرنك شهرياً فقط ، لكنه يرتدي سترة سوداء ، ولا يقوم بعمل عضليّ ، وبمقدوره طرد غاسلي الصحون ، وتغريم النادلين .

ثم يأتي الطهاة الآخرون ، ويتراوح مرتَّبهم بين ثلاثة آلاف فرنك وسبعمائة وخمسين فرنكاً في الشهر ، وبعدهم النادلون الذين يتقاضون حوالي سبعين فرنكاً يومياً من الهِبات ، إلى جانب أجرٍ قليل مدَّخر ، ثم تأتي الغسّالات والخيّاطات ، فالنادلون المتدربون الذين لا يتسلمون هبات لكنهم

يتقاضون سبعمائة وخمسين فرنكاً في الشهر ، فغاسلو الصحون ويتقاضون سبعمائة وخمسين فرنكاً أيضاً ، ثم خادمات الغرف بخمسمائة فرنك أو ستمائة شهرياً . أخيراً ، عمّال الكافتيريا ذوو الخمسمائة فرنك شهرياً . نحن الذين في الكافتيريا ، حثالة الفندق ، الذين يحتقرهم ويهزأ بهم الجميع .

وهناك آخرون متنوعو الأشغال ـ مستخدمو المكتب الذي يُدعَون سُعاةً ، ومدير المخزن ، ومسؤول القبو ، والحمّالون ، والغلمان ، والمكلف بالثلج ، والخبازون ، والحارس الليلي ، والبوّاب . أشغال مختلفة تؤديها أعراقٌ مختلفة .

مستخدمو المكتب والطهاة والخيّاطات ـ فرنسيون . النادلون ـ إيطاليون وألمان (لا تكاد ترى في باريس نادلاً فرنسياً) . غاسلو الصحون ـ من كل جنسية أوروبية مع العرب والزنوج . اللغة الفرنسية هي اللغة السائدة ، حتى الإيطاليون يتكلمون بها بينهم .

الأقسام كلها لها مستلزماتها الخاصة . اعتادت فنادق باريس أن تبيع بقايا الخبز إلى الخبّازين بثمانية فلوس للرطل ، وفُتات المطبخ إلى الذين يربّون الحمام بسعر تافه ، ويوزع العائد على غاسلي الصحون . هنالك أيضاً كثير من الاختلاس . النادلون جميعاً يسرقون الطعام ـ والواقع أنني لم أرَ إلا نادراً ، نادلاً يأكل الطعام الذي خصصه له الفندق ـ والطهاة يفعلون ذلك على نطاق أوسع في المطبخ ، ونحن الذين في الكافتيريا نعبّ الشاي والقهوة عبّاً . ومسؤول القبو يسرق البراندي . تمنع أنظمة الفندق ، النادلين ، من الاحتفاظ بمخزونٍ من المشروبات الكحولية ، وإنما عليهم أن يراجعوا مسؤول القبو في كل طلبٍ للشراب . وعندما يصبّ مسؤول القبو ، المشروب ، يضع جانباً مقدار ملعقة شاي من كل كأس ، فتتجمع لديه كمياتٌ بهذه الطريقة . ولسوف يبيع لك البراندي المسروق بخمسة فلوس للشربة الواحدة ، إن وثق بك .

ثمت سُرّاقٌ بين العاملين ، ومن المعتاد أن نقودك سوف تُسرق لو تركتها في جيوبك . البوّاب الذي يدفع أجورنا ويفتشنا بحثاً عن الطعام المسروق ، هو اللص الأعظم في الفندق .

من خمسمائة فرنك شهرياً ، استطاع هذا الرجل أن يغشني بمائة وأربعة عشر فرنكاً خلال ستة أسابيع . كنت طلبت أن أتسلّم أجوري باليوم ، ولهذا كان يدفع لي البواب ستة عشر فرنكاً كل مساء ، ولأنه لا يدفع لي يوم الأحد (الأجر مصروفٌ طبعاً) استطاع أن يضع في جيبه أربعة وستين فرنكاً . كما أنني أعمل أحياناً في يوم الأحد ، مما يؤهلني أن أتسلم خمسة وعشرين فرنكاً إضافية ، لكني لم أعرف بهذا إلا فيما بعد . البواب لم يدفع لي هذا قطّ ، وهكذا استولى مني على خمسة وسبعين فرنكاً أخرى .

لم أعرف أنني كنت أُخدَع إلا في الأسبوع الأخير . وأعيدَ لي خمسة وعشرون فرنكاً فقط لأني لم أستطع إثبات دعواي . البوّاب يقوم بخدع مماثلة مع أي شخص أحمق بما يكفي للوقوع في الخدعة . كان يقول إنه يونانيّ ، لكنه في الواقع كان أرمنياً . وبعد أن عرفته أدركت قوة المثل القائل « صدِّق حيّةً قبل يهوديّ ، ويهودياً قبل يونانيّ ، لكنْ لا تصدِّق أرمنياً » .

كان بين النادلين شخصيات غريبة . كان أحدهم سيداً مهذباً ـ شاباً درس في الجامعة ، وعمل في مكتب تجاري بمرتّب جيد . أصيب بمرض تناسلي فقد إثره العمل ، فانجرف في مجرى الحياة ضائعاً ، وهو الآن يعتبر نفسه محظوظاً لأنه نادل .

كثير من النادلين تسللوا إلى فرنسا بلا جوازات سفر ، وكان واحدٌ أو اثنان منهم جواسيس ـ وهي مهنة شائعة للجاسوس . في أحد الأيام ثارت مشادّة مخيفة في غرفة طعام النادلين بين موراندي وهو شخص يبدو خطيراً ، ذو عينين متباعدتين ، وبين إيطاليّ آخر . ظهر أن موراندي أخذ عشيقة الرجل الآخر . والرجل الآخر ، وهو ضعيف البنية ، ويبدو خائفاً من موراندي ، كان يهدده تهديداً غامضاً .

صرخ به موراندي : «حسناً ، ماذا ستفعل ؟ لقد نمت مع فتاتك ، نمت معها ثلاث مرات . وكان الأمر ممتعاً . ماذا بمقدورك أن تفعل ، إيه ؟» .

«أستطيع أن أشي بك عند الشرطة السرية . أنت جاسوس إيطالي» .

لم ينكر موراندي هذا . كل ما فعله أنه أخرج موسى من جيبه وضرب ضربتين سريعتين في الهواء كأنه يشرط خدَّي الرجل مفتوحين . بينما تراجع النادل الثاني .

أعجب من رأيت في الفندق كان «إضافياً» ، استُخدم بخمسة وعشرين فرنكاً في اليوم ، ليحلّ محل المجري الذي كان مريضاً . هذا «الإضافيّ» صربيّ ، متين البنية ، يبلغ الخامسة والعشرين ، ويتحدث بست لغات ، بينها اللغة الإنجليزية . وبدا أنه يعرف كل شيء عن عمل الفنادق ، واشتغل حتى الظهر مثل أحد الأرقّاء . وما أن دقت الساعة الثانية عشرة حتى تجهّم وجهه ، وامتنع عن عمله ، وسرق نبيذاً ، وتوّج هذا كله بإشعال غليونه ، والتجول في كل مكان ، والغليون في فمه . التدخين ممنوع بالطبع ، تحت طائلة العقوبة . المدير نفسه سمع بالخبر ونزل ليستجوب الصربيّ متميّزاً غيظاً .

صرخ به : «بحق الشيطان ، ماذا تعني بتدخينك هنا ؟» .

أجاب الصربي هادئاً : «بحق الشيطان ، ماذا تعني بوجهٍ كهذا ؟» .

أنا عاجز عن نقل مدى الكفر في ملحوظة كهذه . إن رئيس الطهاة ، لو قال له غاسل صحون ، قولاً كهذا ، لدلق على وجهه قِدراً من الحساء الساخن . قال المدير على الفور : «أنت مطرود!» . وفي الساعة الثانية ، أعطي الصربيّ خمسة وعشرين فرنكاً وصُرف من العمل . وقبل أن يغادر سأله بوريس باللغة الروسية عن اللعبة التي كان يلعبها . قال إن الصربيّ أجاب : «انتبه ، يا عجوزي ، عليهم أن يدفعوا لي أجرة يوم إذا اشتغلت حتى منتصف النهار ، ألم يدفعوا ؟ ها هو ذا القانون . إذاً ، ما معنى أن أشتغل بعد أن حصلت على أجرتي ؟ لهذا ، أُخبرك بما أفعل . أذهبُ إلى

فندق وأجد عملاً باعتباري إضافياً ، وأشتغل بجدٍ حتى منتصف النهار . وحالما تدق الساعة الثانية عشرة ، أبدأ أثير الجحيم ، حتى يطردوني . مليح ، إيه ؟ معظم الأيام يتم طردي في الثانية عشرة والنصف ، اليوم ، تمّ طردي في الساعة الثانية ، لكني لا أهتم . لقد وفّرت أربع ساعات عمل . المشكلة الوحيدة أن المرء لا يستطيع أن يفعل هذا في الفندق نفسه مرتين » .

وظهر أنه أدّى هذه اللعبة في نصف عدد فنادق باريس ومطاعمها . قد تكون اللعبة سهلة جداً في الصيف ، مع أن الفنادق تحمي نفسها ضد هذه اللعبة ، قدر المستطاع ، بوساطة قائمة سوداء .

14

في بضعة أيام عرفت المبادئ الرئيسة التي يتم بموجبها تسيير شؤون الفندق . إن القادم لأول مرة إلى أقسام الخدمة في فندق ، سوف يدهش للضجة المخيفة والفوضى خلال ساعات اشتداد وتيرة العمل . وهو أمرٌ مختلفٌ تماماً عن العمل المنتظم في مخزن أو معمل ، مما يبدو للوهلة الأولى سوءَ إدارة . لكن هذا شيء لا يمكن تجنُّبه ، ولهذا السبب .

إن العمل الفندقي ليس شاقاً ، لكنه بطبيعته يأتي في اندفاعات ولا يمكن تقنينه . أنت مثلاً لا يمكن لك أن تشوي شريحة لحم قبل ساعتين من طلبها . عليك الانتظار حتى اللحظة الأخيرة ، حين تكون أعمال كثيرة أخرى تراكمت ، فتؤديها ، كلها ، في وقت واحد ، وبسرعة جنونية . والنتيجة أن الشخص في موعد الوجبة يؤدي عمل شخصين ، وهذا غير ممكن إلا مع الضجة والعراك . والحقّ أن العراك جزء ضروري من العملية ، إذ أن الوتيرة لا يمكن أن تظل عالية إلا إذا اتهم كلُ واحدٍ ، غيرَه ، بالتكاسل . ولهذا السبب ، خلال اشتداد العمل ، يكون العاملون كلهم غاضبين شاتمين كالشياطين . وفي تلك الأوقات لا يكاد يستعمل في الفندق إلا الفعل : فَعَلَ . فتاة في السادسة عشرة ، تعمل في المخبز ، تطلق شتائم تُخجل سائق عربة . (ألم يقل هاملت «يشتم مثل مساعد طاهٍ» ؟ . لا شك في أن شكسبير راقب مساعدي الطهاة يعملون) . لكننا لم نكن لنفقد صوابنا أو

نضيع وقتنا ، كنا نحثّ بعضنا ، حسبُ ، لبذل جهدٍ يركّزُ الساعات الأربع في اثنتين .

إن ما يجعل عمل فندقٍ ما مستمراً ، هو أن المستخدمين يشعرون باعتزاز أصيل بعملهم ، مع أنه حيوانيّ وغبيّ . ما أن يتكاسل رجلٌ حتى يعرف الآخرون بتكاسله ، فيتآمرون ضده كي يُطرد . الطهاة والنادلون وغاسلو الصحون يختلفون في نظرتهم اختلافاً شديداً ، لكنهم متماثلون في الاعتزاز بكفاءتهم .

لا شك في أن الطهاة هم الفئة الأكثر عملاً ، والأقل ذلاً . إنهم لا يكسبون بقدر النادلين ، لكن مكانتهم أرفع ، وعملهم أكثر استمراراً وانتظاماً . الطباخ لا ينظر إلى نفسه باعتباره خادماً ، بل يرى نفسه عاملاً ماهراً ، ويُطلق عليه عموماً صفة عامل ، Un ouvrier ، وهي صفة لا تطلق على النادل . الطاهي يعرف قوّته ـ يعرف أنه هو وحده القادر على تكوين مطعم أو هدمه ، وأنه لو تأخّر خمس دقائق لفسد كل شيء . وهو يحتقر كل من لا يعمل في الطهي ، ويرى في شتم الجميع ـ عدا رئيس النادلين ـ ميزة شرف لديه . وهو يعتزّ اعتزازاً فنياً أصيلاً بعمله الذي يتطلب مهارة عظيمة جداً . الطهي ليس هو الصعب جداً ، لكن عمل كل شيء في وقته . بين الفطور والغداء يتلقى رئيس الطهاة في فندق س طلبات بعدة مئاتٍ من الأطباق ، تقدّم في أوقات مختلفة ، وهو يطهي القليل منها ، لكنه يعطي توجيهاته لها ، كلها ، ويفحصها قبل أن ترسل إلى أعلى . كانت ذاكرته رائعة . القوائم مثبتة بالدبابيس إلى لوحة ، لكن رئيس الطهاة نادراً ما ينظر إليها ، كل شيء محفوظ في رأسه ، وفي الدقيقة اللازمة ، حين يحين موعد كل طبق ، كان ينادي : «ماشي... كتليت عجل» (أو أي طبق آخر) بدون أن يخطئ . إنه فظٌّ غليظ ، لكنه فنان أيضاً . وبسبب الدقة ، لا بسبب التفوق في الحرفة ، يفضل الطهاة على الطاهيات .

نظرة النادل مختلفة تماماً . هو أيضاً يعتز اعتزازاً ما بمهارته ، لكن مهارته ، عموماً ، هي في أن يكون ذليلاً . إن عمله لا يمنحه ذهنية العامل ،

وإنما ذهنية النفّاج . إنه يعيش دوماً مع مشهد الأغنياء ، يقف عند موائدهم ، ويستمع إلى أحاديثهم ، ويتقرب إليهم بالابتسامات والدعابات الصغيرة . إن له متعة إنفاق المال بالوكالة . ثم أن هناك فرصة أن يصبح هو نفسه غنياً ، ومع أن معظم النادلين يموتون فقراء ، إلا أن ثمت قصصاً كثيرة عن حظوظٍ تحدث .

في بعض مقاهي الكران بوليفار يمكن أن يحصل النادلون على مال كثير ، حتى أن النادلين يدفعون ، فعلاً ، لصاحب المقهى ، لقاء عملهم . والنتيجة أنه بين الرؤية المستمرة للمال ، وبين أمل الحصول عليه ، يصل النادل إلى التماهي ، نوعاً ما ، مع مستخدِمه . وهو يتألم إذ يقدِّم وجبة حسب الأصول ، وذلك لشعوره بأنه يشترك هو نفسه في الوجبة . أتذكر فالنتي يخبرني عن حفلة في نيس ، خدمَ فيها مرةً ، وكيف أنها كلّفت مائتي ألف فرنك ، وظلت مدار الحديث شهوراً . « كانت فاخرة ، يا صغيري ، رائعة ، بحق المسيح! الشمبانيا ، الفضة ، زهور الأوركيد ـ لم أر شيئاً مثلها ، أنا الذي رأى أشياء . آه... كانت مجيدة! » .

قلت : « لكنك كنت هناك فقط لتخدم ؟ » .

« أوه ، طبعاً ، لكنها تظل فاخرة » .

والحكمة ، لا تحزنْ لنادلٍ . أحياناً ، عندما تجلس في مطعم ، ولاتزال تحشو معدتك بالطعام ، بعد نصف ساعة من موعد الإغلاق ، تشعر بأن النادل المتعب ، الواقف بجانبك ، ممتعضٌ منك بالتأكيد . لكنه ليس كذلك . إنه لا يفكر وهو ينظر إليك ، « أي وغدٍ نهمٍ » . بل هو يفكر « يوماً ما ، حين أوفر نقوداً كافية ، سأكون قادراً على تقليدٍ ذلك الرجل » . إنه يغدو نوعاً من السرور يفهمه ويهواه . ولهذا نادراً ما يكون النادلون إشتراكيين ، وليست لديهم نقابات فاعلة ، وسوف يعملون اثنتي عشرة ساعة في اليوم ـ يعملون خمس عشرة ساعة لسبعة أيام في الأسبوع ، في مقاهٍ عدة . إنهم نفّاجون ، ويجدون طبيعة عملهم الذليلة ، مناسبةً لهم .

غاسلو الصحون ، هم أيضاً ، لهم نظرتهم المختلفة . إن لديهم عملاً بلا آفاق ، مرهقاً جداً ، وفي الوقت نفسه نراه خالياً من أي أثر لخبرة ومهارة أو اهتمام ، إنه عملٌ تقوم به النساء عادةً لو كنّ قوياتٍ كفايةً . كل ما هو مطلوبٌ منهم ، أن يجْروا على الدوام ، وأن يتحملوا ساعات طوالاً في جو خانق . ليس لهم مخرجٌ من هذه الحياة ، إذ لا يستطيعون توفير قرش من أجورهم ، كما أن العمل بين ستين ساعة ومائة ساعة أسبوعياً لا يترك لديهم وقتاً للتدرب على عمل آخر . وأفضل ما يمكن تمنّيه أن يجدوا عملاً أسهل ، كأن يكون أحدهم حارساً ليلياً ، أو مشرف مرحاض .

بالرغم من هذا ، بالرغم من وضاعة شأنهم ، يشعر غاسلو الصحون بنوع من الفخر . إنها كبرياء الكادح ـ الرجل المؤهل لأي قدْرٍ من العمل . وعلى هذا المستوى تكون الفضيلة المكتسبة هي القدرة على المضيّ في العمل مثل ثور . يحب كل غاسل صحون أن يدعى شاطراً . والشاطر هو الرجل الذي يدعى لعمل المستحيل ، يعمله بشطارة ، أي يدبِّره بصورة ما . أحد غاسلي الصحون في مطبخ فندق س ، وهو ألمانيّ ، كان مشهوراً بأنه شاطر . في إحدى الليالي جاء إلى الفندق لورد إنجليزي . وقد أصاب النادلين اليأسُ ، لأن اللورد طلب خوخاً ، ولم يكن في المستودع خوخ ، كان الوقت متأخراً في الليل ، والمخازن مغلقة . قال الألمانيّ : «اتركوا الأمر لي» . خرج ، وعاد بعد عشر دقائق يحمل أربع خوخات . كان ذهب إلى مطعم مجاور ، وسرقها . ودفع اللورد الإنجليزي عشرين فرنكاً لكل خوخة .

ماريو ، المسؤول عن الكافتيريا ، كانت له ذهنية الكادح الأنموذجية . كل ما يفكر به هو إتقان العمل ، ويتحدّاك إن وجدتَ في عمله منقصة . إن أربع عشرة سنة من العمل تحت الأرض منحته نوعاً من الكسل الطبيعي مثل قضيب الكبّاس . «عليك أن تكون شديداً» كان هذا ما يقوله لمن يشكو . وأنت تسمع غاسلي الصحون يرددون ، غالباً ، «أنا شديد» ، كأنهم جنود ، لا خادمات من الذكور .

وهكذا يتمتع كل من في الفندق بإحساسه من الشرف . وعندما يأتي ضغط العمل نكون جميعاً مستعدين لجهد عظيم منسَّق ، كي نؤديه . كما أن الحرب المستمرة بين مختلف الأقسام هي سببٌ للكفاءة ، إذ يتشبث كل واحدٍ بامتيازاته ويحاول إيقاف تكاسل الآخرين واختلاساتهم .

هذا هو الجانب الحسن في العمل الفندقيّ . في الفندق يتم تسيير ماكنة هائلة معقدة بعدد من المستخدمين غير كاف ، لأن كل شخص له عمل محدّد يعمله بإتقان . لكن هناك نقطة ضعف ، ذلك لأن العمل الذي يؤديه المستخدمون ليس بالضرورة العمل الذي يدفع الزبون لقاءه . الزبون يدفع ، للخدمة الجيدة ، كما يراها . المستخدَم يُدفع له ، من أجل العمل ، كما يراه ـ وهذا يعني ، كقاعدة ، تقليد الخدمات الجيدة . والنتيجة ، أن الفنادق مع أنها في دقتها كالمعجزة ، أسوأ من أسوأ المنازل الخاصة ، في الأمور الأساس .

خذ النظافة مثلاً . في فندق س ، آن يدخل المرء في أقسام الخدمة ، يجد القذارة مقززة . وفي الكافتيريا ، حيث نعمل ، أوساخٌ متراكمة منذ عامٍ في الزوايا المظلمة ، وسلة الخبز ملأى بالصراصير . اقترحت على ماريو ، مرة ، قتلها . قال هادئاً : «لماذا نقتل الحيوانات المسكينة ؟» . وقد ضحك الآخرون لأني أردت غسل يديّ قبل أن ألمس الزبدة . غير أننا كنا نظيفين حين نرى النظافة جزءاً من العمل . نحن ننظف الموائد ، ونلمّع النحاس بانتظام ، لأن لدينا أوامر بذلك ، لكن ليس لدينا أوامر بأن نكون نظيفين حقاً ، وعلى أي حال ، ليس لدينا الوقت لذلك .

كنا ، ببساطة ، ننفذ واجباتنا ، ولأن واجبنا الأول هو الدقّة ، فإننا نوفر الوقت فنكون قذرين .

القذارة أسوأ في المطبخ . لستُ أقول كلاماً ، بل أذكر حقيقةً حين أقول إن الطاهي الفرنسي سوف يبصق في الحساء إن لم يكن سيشربه هو . إنه فنان ، لكن فنه ليس النظافة . إنه قذرٌ إلى حد معين ، لأنه فنان . ولكي

يبدو الطعام ممتازاً ينبغي أن يعامل معاملةً قذرة . حين يؤتى إلى الطاهي بشريحة لحم كي يتفحصها ، فإنه لا يستخدم الشوكة . يتناول الشريحة بأصابعه ويبسطها على الصحن ، ثم يمرر إبهامه حول الصحن ويلعقه ليتذوق الصلصة ، يمرره ثانية ويلعقه من جديد ، ثم يتراجع إلى الوراء ، ويتأمل قطعة اللحم ، مثل ما يتأمل فنانٌ صورةً ، بعدها يضغط القطعة في موضعها بحبٍ ، مستعملاً أصابعه السمينة الوردية ، وكل إصبع منها لُعِقَ مائة مرة ، ذلك الصباح . وعندما يرضى عن الأمر ، يتناول قطعة قماش ، ويمسح آثار أصابعه عن الصحن ، ويسلِّمه إلى النادل . والنادل ، بالطبع ، يغمس أصابعه في الصلصة ، أصابعه المقرفة المدهَّنة التي يفرُق بها على الدوام شعره ذا البرليانتين . وعلى كل من يدفع أكثر من عشرة فرنكات ، مثلاً ، لصحن لحم في باريس ، أن يتأكد من أن صحنه نالته الأصابع على هذا النحو . في المطاعم الرخيصة جداً يختلف الأمر ، حيث لا يتعرض الطعام لمثل هذا ، بل يؤخذ من المقلاة بالشوكة ويوضع في الصحن رأساً ، بدون استعمال اليد . ويمكن القول إنك إن دفعت لطعامك أكثر ، أكلتَ معه عرقاً وبصاقاً أكثر .

القذارة شائعة في الفنادق والمطاعم ، لأن الطعام الصالح يضحَّى به من أجل الدقة والأناقة . إن مستخدَم الفندق أكثر انشغالاً بتجهيز الطعام من أن يتذكر أن الطعام مقصودٌ به أن يؤكل . الوجبة ، هي ، ببساطةٍ ، «طلبٌ» له ، مثل ما أن الإنسان الذي يموت من السرطان هو «حالة» عند الطبيب . أحد الزبائن يطلب ، على سبيل المثال ، خبزاً محمصاً . وعلى شخص ما ، أرهقه العمل ، في قبو عميق تحت الأرض ، أن يجهزه . كيف يستطيع هذا الشخص أن يتوقف ويفكر قائلاً لنفسه «هذا الخبز المحمص سوف يؤكل - يجب أن أجعله صالحاً للأكل» ؟ كل ما يعرفه أن هذا الخبز يجب أن يبدو جيداً ، وأن يهيأ في ثلاث دقائق . قطرات عرق كبيرة تنحدر من جبهته على الخبز . لماذا يهتم ؟ ثم يسقط الخبز على النشارة الوسخة بأرضية المكان . لماذا يهتم بتجهيز قطعة أخرى ؟ الأسرع أن يمسح النشارة عن القطعة . في

الطريق إلى الأعلى يسقط الخبز ثانية ، والزبدة تنقلب . مَسحةٌ أخرى هي كل ما يحتاجه الأمر . وهكذا ، مع كل شيء . الطعام الوحيد في فندق س ، الذي يهيّأ بنظافة هو طعام الموظفين ، وصاحب الفندق . والقول الشائع هو : «فتش عن صاحب الفندق» ، أما عن الزبائن فهو «ليس شيئاً» . في كل مكان من أقسام الخدمة تعشعش القذارة ـ عِرقٌ سريّ للقذارة يتغلغل في الفندق العظيم ، مثل الأمعاء في جسم الإنسان .

إلى جانب القذارة ، نجد صاحب الفندق يغش الزبائن غشاً كاملاً . غالبية مواد الطعام سيئة جداً ، مع أن الطهاة يعرفون كيف يتدبرونها حسب الأصول . اللحم من نوعية عاديةٍ في أفضل الأحوال ، وكذلك الخضروات التي لا يمكن لربّة منزل أن تنظر إليها في السوق . والقشطة تخلط بالحليب حسب الأوامر النافذة . والشاي والقهوة من نوعية متدنية ، والمربّى مادة مركّبة تؤخذ من علب كبيرة بدون علامات تجارية . وكل الخمور الرخيصة توضع عليها علامة «خمر عاديّ» . ثمت تعليمات تقضي بأن يدفع المستخدَمون ثمن ما يخربونه ، وبالنتيجة لا تكاد ترمى الأشياء المتضررة . مرةً أسقط نادلٌ دجاجةً مشوية من الطابق الثالث ، في مهوى مصعد خدمتنا ، حيث سقطت في سلّة لبقايا الخبز ومِزَق الورق وما إلى ذلك ، في القاع . مسحنا الدجاجة بقطعة قماش ، وأرسلناها إليه ، ثانيةً . وفي الأعلى تدور أحاديث قذرة عن شراشف استعملت مرةً ، فلم تغسَل ، بل نُقعت فقط ، وكُويت ، ووضعت على الأسرّة ثانيةً . كان صاحب الفندق شحيحاً علينا ، بقدر شُحّته على الزبائن . على امتداد الفندق الواسع كله ، لا توجد ، على سبيل المثال ، فرشاة ومجرف ، وعلى المرء تدبير أمره بمكنسة وقطعة من الورق المقوى . ومرحاض العاملين يليق بآسيا الوسطى ، وليس من مكان تُغسَل فيه اليدان ، ما عدا المغاطس المستعملة لغسل الأواني .

بالرغم من هذا كله ، كان فندق س واحداً من الفنادق الإثني عشر ، الأكثر غلاءً في باريس . والنزلاء يدفعون مبالغ باهظة . كان سعر المنام ،

ليلةً ، بدون فطور ، مائتي فرنك . والخمر والتبغ يباعان بضعف سعرهما في الدكاكين ، مع أن صاحب الفندق يشتريهما ، طبعاً ، بسعر الجملة . ولو حدث أن للزبون لقباً ، أو كان مليونيراً ، فإن ما يدفعه يرتفع أوتوماتيكياً . في صباحٍ ما ، وفي الطابق الرابع ، أراد أحد الأميركيين ، وكان في حِمْيَةٍ ، ملحاً وماءً ساخناً فقط لفطوره . اهتاج فالنتي غضباً . وقال : «بحق المسيح! وماذا عن العشرة بالمائة العائدة لي ؟ عشرة بالمائة عن الماء والملح! » . وجعل سعر الفطور خمسة وعشرين فرنكاً . الزبون دفع بدون أي همهمة .

في رأي بوريس ، أن الشأن ذاته ينطبق على فنادق باريس كلها . لكني أتصور أن زبائن فندق س كانوا أسهل على الغشّ ، ذلك لأن معظمهم أميركيون ، ذوو إنجليزية متعثرة ـ ليس من فرنسية ـ وأنهم يجهلون أي شيء عن المأكل الجيد . كانوا يحشون مِعَدهم بـ«الحبوب» الأميركية ، ويأكلون المربّى مع الشاي ، ويشربون الفرموث بعد العشاء ، ويطلبون «دجاج الملكة» بمائة فرنك ليطيّبوه بصلصلة وورشستر . نزيلٌ من بتسبرغ كان يتعشى كل ليلة ، في غرفة نومه ، زبيباً ، وبيضاً مخفوقاً ، وكاكاو . قد لا يكون هاماً ، أن يُغَشَّ هؤلاء القوم أو ألاّ يُغَشُّوا .

15

سمعت أحاديث عجباً في الفندق . أحاديث عن مدمني مخدرات ، عن شيوخ فاسقين يرتادون الفنادق بحثاً عن صبيان جميلين ، عن سرقات وابتزازات . حدّثني ماريو عن فندقٍ كان فيه ، حيث سرقت خادمة غرفة خاتَم ماسٍ لا يقدَّر بثمن من سيدة أميركية . لعدة أيام كان المستخدَمون يفتَّشون عندما يغادرون العمل ، وفتّش مُخبران سريان الفندق من أعلاه إلى سافله ، لكن الخاتم لم يُعثر عليه .

كان للخادمة عاشقٌ في المخبز ، وقد خبز هذا العاشقُ الخاتمَ في رغيف ، وظل الخاتم في مكانه إلى أن انتهى التفتيش .

ومرةً ، في وقت راحة ، أخبرني فالنتي قصةً عنه .

«أنت تعرف ، يا صغيري ، أن حياة الفندق هذه لا بأس بها . إلا أنك حين تكون عاطلاً عن العمل سوف ترى النكد بعينه . أظنك تعرف معنى أن يظل المرء جائعاً ، إيه ؟ بالتأكيد ، وإلاّ فإنك ما كنت لتأتي هنا كي تغسل الصحون . حسناً ، أنا لستُ شيطاناً بائساً ، غاسلَ صحون ، أنا نادلٌ ، ومع هذا أمضيت مرةً ، خمسة أيام ، بلا أكل . خمسة أيام حتى بدون كسرة خبز ـ يا يسوع المسيح!

أقول لك إن تلك الأيام الخمسة كانت النكد . الأمر الوحيد الجيد هو أنني كنت دفعت الإيجار مقدماً . كنت أسكن نُزلاً قذراً رخيصاً في درب

القديسة إيلواز ، بالحي اللاتيني . كان المكان يسمى «نزل سوزان ماي» تيمناً بعاهرة شهيرة من أيام الإمبراطورية . كنت أتضور جوعاً ، ولا شيء لديّ أفعله ، بل إنني لا أستطيع الذهاب إلى المقاهي التي يرتادها أصحاب الفنادق ليشغّلوا نادلين ، بسبب أني لا أملك ثمن مشروب . كل ما أستطيع فعله البقاء متمدداً في الفراش ، معرَّضاً للوهن المستمر ، ومراقباً الصراصير تركض عند السقف . أقول لك إنني لا أريد أن أمرّ بذلك ثانيةً .

عصر اليوم الخامس ، كدت أُجَنُّ ، أو هكذا تراءى لي الأمر الآن ، في الأقل . كانت طبعةٌ ناصلة اللون لرأس امرأة معلقة على جدار غرفتي ، وظللت أتساءل عمّن تراها تكون ، وبعد حوالي الساعة اعتقدت أنها يجب أن تكون القديسة إيلواز ، التي كانت حامية الحيّ . لم أكن لحظتُ هذا ، من قبل ، أما الآن فصرت أحدِّق فيها ، حتى داهمتني فكرة غريبة . قلت لنفسي : اسمع يا عزيزي ، ستجوع حتى الموت إن استمرّ حالك هكذا . عليك أن تفعل شيئاً . لمَ لا تجرّب الصلاة للقديسة إيلواز ؟ اركعْ واطلب منها أن تبعث إليك ببعض المال . ثم أن المسألة لن تضرّ . جرب!

مجنون ، إيه ؟ لكن الجائع يُقْدم على أي شيء ، إلى جانب أن المسألة لن تلحق بي ضرراً كما قلت . تركت فراشي ، وشرعت أصلّي . قلت :

يا عزيزتي القديسة إيلواز ، إن كنت موجودةً ، فأرجوك أن تبعثي لي ببعض المال . أنا لا أسألك الكثير ـ فقط ما يكفي لشراء خبز وزجاجة نبيذ ولإعادة عافيتي إليّ . ستكفيني ثلاثة فرنكات أو أربعة . أنتِ لا تعرفين ، أيتها القديسة إيلواز ، كم سأكون لكِ ممتناً . لو أرسلتِ لي شيئاً ، فإن أول ما أفعله أن أوقد شمعة لكِ ، في كنيستك بالشارع . آمين .

حسناً ، عدت إلى الفراش ثانية ، وبعد خمس دقائق سمعت دقاً على الباب . كانت الفتاة ماريا ، وهي فلاحة سمينة تسكن نزلنا . كانت غبية جداً ، لكنها طيبة ، ولم يكن يهمني أن تراني في الحالة التي أنا فيها .

صرختْ لمرآي : يا إلهي! ما بك ؟ ماذا تفعل في الفراش هذه الساعة

من اليوم ؟ أي هيأة لك! أنت تبدو جثة لا إنساناً .

ربما كان منظري شنيعاً . إذ أمضيت في الفراش خمسة أيام وأنا جائع ، ومرّت عليّ ثلاثة أيام بلا حلاقة أو اغتسال . كما أن الغرفة كانت منتنةً أيضاً .

سألتني ماريا ثانية : ما الأمر ؟

قلت : الأمر! يا يسوع المسيح ، أنا جائع . لم آكل منذ خمسة أيام . هذا هو الأمر .

قالت ماريا مرتعبة : لم تأكل منذ خمسة أيام ؟ لكن لماذا ؟ إذاً ، ليست لديك نقود ؟

قلت : نقود! أتظنين أني سأجوع لو كان عندي نقود ؟ عندي خمسة فلوس فقط ، وقد رهنت كل شيء . فتشي الغرفة وانظري إن بقي فيها ما أرهنه أو أبيعه . لو استطعتِ أن تجدي شيئاً يأتيني بخمسين سنتيماً ، فسوف تكونين أشطر مني .

شرعت ماريا تنظر في أرجاء الغرفة ، ونقّبتْ هنا وهناك في سِقط المتاع ، وفجأة علاها الاهتياج . وفغرت فمها الشخين الضخم دهشةً ، وصاحت : «أيها الغبي ، الأبله ، ما هذا ، إذاً ؟» .

شاهدت ما كانت تحمله ، كان سطل زيت فارغاً ملقىً في الزاوية ، وكنت اشتريته قبل أسابيع لمصباح زيتيّ كان لديّ قبل أن أبيع كل شيء .

قلت : «ذلك ؟ إنه سطل زيت . ماذا عنه ؟» .

«أيها الأبله! ألم تدفع ثلاثة فرنكات وخمسين سنتيماً ضماناً له ؟» .

«طبعاً ، دفعت ثلاثة فرنكات وخمسين سنتيماً . هم يفرضون عليك أن تدفع ضماناً للسطل ، ويعيدون الضمان حين تعيد السطل . لكنني نسيت كل شيء عنه . نعم...» .

صاحت ماريا ثانية : «أبله!» واهتاجت حتى أخذت ترقص فظننت أن قبقابها سوف يغور في الأرضية . «أيها الأبله! أنت مجنون! كل ما عليك أن

تفعله هو أن تعيده إلى الدكان ، وتستعيد مبلغ الضمان... كيف تجوع ، ولديك ثلاثة فرنكات وخمسون سنتيماً تنظر في وجهك! أيها الأبله! » .

لم أكد أصدق ، أنني طوال الأيام الخمسة ، لم أفكر بإعادة السطل إلى الدكان . خمسة فرنكات وخمسون سنتيماً بالتمام والكمال ، ولم يخطر الأمر ببالي! جلست في الفراش ، وقلت لماريا صائحاً : « أسرعي ، خذيه ، اذهبي به إلى البقال الذي في الركن ـ أسرعي كالشيطان ، وجيئيني بطعام! » .

لم تكن ماريا بحاجة إلى أوامر . خطفت السطل ، ونزلت السلّم مقعقعةً مثل قطيع أفيال ، وعادت بعد ثلاث دقائق برطلي خبز تحت ذراع ، ونصف ليتر نبيذ تحت الأخرى . لم أتوقف برهة لأشكرها . أمسكت الخبز وغرزت أسناني فيه . هل لحظتَ أي طعم للخبز بعد جوع أيام ؟ كان الخبز بارداً ، رطباً ، عجينياً ، مصفراً ، لكنه ، بحق يسوع المسيح ، كان لذيذاً! أما النبيذ فقد عببتُه رأساً ، وبدا لي أنه يدخل في عروقي مباشرة ، ويجري في جسدي مثل دم جديد . آه... لقد اختلف الأمر!

نهشت رطلي الخبز كاملين ، بلا توقّفٍ لاسترداد أنفاسي . ووقفت ماريا تنظر إليَ ، وقد وضعت يديها على عجيزتها . قالت بعد أن أتممت الأكل : « حسناً ، أنت الآن أحسن ، إيه ؟ » .

قلت : « أحسن! إنني في غاية ما أكون! لم أعد ذلك الرجل الذي كنته قبل خمس دقائق . مايزال لديّ شيء واحد أريده من العالم ـ سجارة » .

وضعت ماريا يدها في جيب صدريتها وقالت : « لن تحصل عليها . ليس لديّ نقود ، وهذا كل ما تبقّى من الفرنكات الثلاثة والسنتيمات الخمسين ، سبعة فلوس . لن تفيدك ، فأرخص علبة سجائر هي باثني عشر فلساً » .

قلت : « إذاً ، أستطيع الحصول عليها . لديّ خمسة فلوس ، أي حظّ! المبلغ كافٍ! » .

أخذت ماريا الإثني عشر فلساً ، وكانت توشك أن تخرج إلى بائع التبغ . وفجأة ، خطر لي ما كنت نسيته هذا الوقت كله . كانت تلك الملعونة ، القديسة إيلواز! لقد وعدتها بشمعة لو أرسلت إليّ مالاً . والحق أن لا أحد بمقدوره التساؤل عن مردود صلاتي . كنت قلت : ثلاثة فرنكات أو أربعة . وبعد لحظة جاءت ثلاثة فرنكات وخمسون سنتيماً . لا فكاك من الأمر . كان عليّ أن أنفق فلوسي الإثني عشر على شمعة .

ناديت ماريا : «لا فائدة . هناك القديسة إيلواز ، وقد وعدتها بشمعة . استجابت لصلاتي . المال جاء ، على أي حال . الأمر يبعث على الغثيان ، لكن يبدو لي أن عليّ الوفاء بوعدي» .

قالت ماريا : «لكن كيف جاءت القديسة إيلواز إلى رأسك ؟» .

قلت شارحاً القصة كلها : «إنها صورتها . ها هي ذي هناك ، أنتِ ترينها» وأشرتُ إلى الحائط .

نظرت ماريا إلى الصورة ، ولدهشتي انفجرت في سلسلة صيحات وضحكات . واستمرت تضحك ، وهي تدبك على الأرض ، وتمسك خاصرتها كأنها توشك أن تنفجر . ظننت أنها جُنّتْ . لم تستطع الكلام إلا بعد دقيقتين .

صاحت أخيراً : «أيها الأبله! أنت مجنون! مجنون! أتقصد أن تخبرني أنك ركعت حقاً ، وصلّيتَ لتلك الصورة ؟ من أخبرك أنها القديسة إيلواز ؟» .

قلت : «لكني تأكدت من أنها القديسة إيلواز» .

«أيها الأبله ، إنها ليست القديسة إيلواز بأي حال من الأحوال . من تظنها ؟» .

قلت : «من ؟» .

«إنها سوزان ماي ، المرأة التي أخذ النُزل اسمه منها» .

«كنت أصلّي لسوزان ماي ، العاهرة الشهيرة للإمبراطورية...» .

لكني ، بعد هذا كله ، لم أكن بآسف . لقد ضحكنا ، أنا وماريا ، من

أعماق قلبينا ، ثم تحدثنا في الموضوع من جديد ، وخلُصت بأني لست مديناً بشيء إلى القديسة إيلواز . واضحٌ أنها لم تكن تلك التي استجابت لصلاتي ، فلا حاجة إلى أن أشتري شمعة لها .

هكذا ، حصلت على علبة سجائري ، أخيراً .

16

مضت الأيام ، وأوبرج جيان كوتار لا يبدي أي إشارة لافتتاح . بوريس وأنا ذهبنا في أحد الأيام ، إلى هناك ، أثناء استراحة بعد الظهر ، ووجدنا أن أياً من التعديلات لم تجرِ ، باستثناء الصور غير المحتشمة ، وكان هناك ثلاثة دائنين بدلاً من الدائنين الإثنين . رحّب بنا صاحب المطعم ، بطريقته الصريحة ، وفي اللحظة الثانية استدار إليّ (أنا غاسل صحونه المرتقب) واستدان خمسة فرنكات . بعدها ، أيقنت تماماً أن المطعم لن يمضي أبعد من الكلام . ومن جديد ، عيّنَ صاحب المطعم موعد الافتتاح (بعد أسبوعين بالضبط من اليوم) ، وقدّمنا إلى المرأة التي ستتولى الطهي ، وهي روسيّة من البلطيق ، يبلغ طولها خمسة أقدام ، وعرضها عند العجيزة ياردةً . أخبرتنا بأنها كانت مغنّية ، قبل أن تتحول إلى الطهي ، وأنها كانت محبة جداً للفن ، وتهوى الأدب الإنجليزي ، وبخاصة « كوخ العم توم » .

خلال أسبوعين اعتدتُ رتابة حياة الغاسل ، حتى أني لم أعد قادراً على أن أتخيل شيئاً مختلفاً . كانت حياة بلا تنوّع . في السادسة إلا الربع يستيقظ المرء بغتةً ، يحشر نفسه في ملابس صلّبها الشحم ، ويسرع خارجاً بوجه قذر وعضلاتٍ غير راضية . إنه الفجر ، والنوافذ كلها معتمة ، عدا مقاهي العمال . والسماء مثل جدار كوبالت هائلٍ مستوٍ ، مع سقوف وملتويات ورق ملصقة عليه . رجالٌ أثقلهم النعاس يكنسون الأرصفة بمقشّات

تبلغ الواحدة منها عشرة أقدام طولاً ، وعوائل ترتدي أسمالها وتنبش سلال القمامة . عمال وفتيات ، مع قطعة شوكولاتا بيد ، وهلال خبز بيد ، يتدفقون في محطات المترو . حافلات الترام ، الملأى بمزيد من العمال ، تمرّ كئيبةً . المرء يتعجل الهبوط في المحطة ، يناضل للحصول على مكان ـ على المرء أن يناضل حقاً في مترو باريس ، الساعة السادسة صباحاً ـ ويقف محشوراً مع الحشد المتمايل للمسافرين ، أنفاً لأنف ، مع وجه فرنسيٍّ فظيع ، يطلق أنفاساً من النبيذ الحامض والثوم . ثم يهبط المرء إلى متاهة الطابق السفليّ للفندق ، وينسى ضوء النهار حتى الساعة الثانية ، حين تكون الشمس ساخنة ، والمدينة سوداء بالناس والعربات .

بعد أسبوعي الأول من العمل في الفندق ، صرت أقضي استراحة بعد الظهر ، في النوم ، دائماً ، أو في الذهاب إلى «المشرب» حين أملك نقوداً . وباستثناء عدد من النادلين الطموحين الذين يحضرون دروساً في اللغة الإنجليزية ، فإن المستخدمين كلهم يقضون راحتهم بهذه الطريقة ، ويبدو المرء بعد عمل الصباح أشد كسلاً من أن يفعل شيئاً أفضل . أحياناً يشكل خمسة أو ستة من غاسلي الصحون فريقاً ويذهبون إلى مبغى سيّء في شارع سِيّيه ، حيث السعر خمسة فرنكات وخمسة وعشرون سنتيماً . أطلق على المبغى لقب «السعر المحدد» ، وقد اعتادوا وصف ما فعلوه هناك باعتباره مزحةً كبيرة . إنه ملتقى مفضل لعمال الفنادق . إن أجور غاسلي الصحون لا تسمح لهم بالزواج ، ولا شك في أن العمل بالطابق السفلي لا يشجع المشاعر الرقيقة .

لأربع ساعات أخرى يكون الشخص في الأقبية ، ثم يخرج ، وهو ينزّ عرقاً ، إلى الشارع البارد . إنه ضوء المصابيح ـ ذلك الوهج الأرجواني الغريب لمصابيح باريس ـ ووراء النهر ، برج إيفل ، مضاء من أعلاه إلى قاعدته بعلامات ضوئية متعرجة ، مثل أفاعي نار هائلة . سيولٌ من السيارات تنزلق ، صامتة ، جيئةً وذهاباً ، والنساء ذوات المنظر الغريب في الضوء

الشاحب ، يَرُحن ويغدون تحت الأروقة . أحياناً تنظر امرأة إلى بوريس أو إليّ ، ثم تشيح ببصرها عنّا بعد رؤية ملابسنا المشحّمة . معركةٌ أخرى تُخاض في المترو ، والوصول إلى المسكن في العاشرة . عموماً ، بين العاشرة ومنتصف الليل ، أذهبُ إلى مشرب صغير في شارعنا ، وهو مكان تحت الأرض يؤمّه الشغّالون العرب . إنه مكان سيّء بسبب المشاجرات ، وقد رأيت أحياناً زجاجات تلقى ، بأثرٍ مخيف مرةً ، لكن القاعدة أن العرب يتشاجرون بينهم ، ويتركون المسيحيين لشأنهم . العرق ، وهو مشروب العرب ، كان رخيصاً جداً ، والمشرب مفتوح طوال الساعات كلها ، ذلك لأن للعرب ـ وهذا من حسن حظهم ـ القدرة على العمل ، النهار كلهِ ، وعلى الشرب ، الليل كله .

إنها الحياة الأنموذجية لغاسل الصحون ، وهي لم تبدُ سيئةً ، حينَها . لم يكن لديّ إحساسٌ بالبؤس ، فحتى بعد دفع إيجاري ، ورصد مبلغ كافٍ للتبغ والتنقل ولطعامي أيام الآحاد ، يتبقّى لديّ أربعة فرنكات في اليوم للمشروب ، وكانت الفرنكات الأربعة ثروة . كان هناك ـ وهذا مما يصعب التعبير عنه ـ نوع من الرضا الثقيل ، الرضا الذي قد يشعر به حيوانٌ أُطعِمَ جيداً ، الرضا بحياةٍ غدت جدّ بسيطة ، إذ لا حياة أبسط من حياة غاسل الصحون . إنه يعيش في وتيرةٍ بين العمل والنوم ، بلا وقت للتفكير ، وبلا وعي بالعالم الخارجي . لقد انكمشت باريسُه إلى الفندق ، المترو ، المشارب القليلة . الفراش . أما إذا خرج أبعدَ ، فلشوارع قليلة فقط ، في جولة مع فتاةٍ خادمةٍ تجلس على ركبتيه وتزدرد المحار والبيرة . في يوم عطلته يظل في الفراش حتى الظهيرة ، يلبس قميصاً نظيفاً ، يلعب النرد للمشروب ، وبعد الغداء يعود إلى الفراش ثانيةً . لا شيء حقيقيّاً لديه إلا الشغل ، والشرب ، والنوم ، ومن بين هذه الأمور تكون للنوم المنزلة الأولى .

في ليلة ما ، قبيل الفجر ، حدثت جريمة قتل تحت نافذتنا مباشَرةً . أيقظتني ضجة شديدة ، وعندما ذهبت إلى النافذة ، رأيت رجلاً ممتداً على

الأحجار هناك . استطعت أن أرى القتلة ، وهم ثلاثة ، يهربون مبتعدين ، عند نهاية الشارع . نزل عددٌ منا ، ووجدوا الرجل ميتاً تماماً ، وقد هشّم جمجمته أنبوبُ رصاص . أتذكر لون دمه ، ومن الغريب أنه كان أرجوانياً ، مثل النبيذ ، هذا الرجل الميت كان لايزال على الأحجار حين عدت إلى المسكن ذلك المساء . وقيل إن تلاميذ المدارس جاؤوا لرؤيته ، قاطعين أميالاً . لكن ما صدمني ، وأنا أستعيد الأمر ، أنني كنت نائماً في فراشي ، بعد ثلاث دقائق من حدوث الجريمة . وهكذا كان أغلب الناس في شارعنا . لقد تأكدنا فقط من أن الرجل انتهى ، فعدنا إلى الفراش . نحن كنا عمّالاً ، ومن أين لنا الإحساس بإضاعة الوقت على جريمة قتل ؟

علّمني العمل في الفندق القيمة الحقيقية للنوم ، تماماً مثل ما علّمني الجوع القيمة الحقيقية للطعام . لم يعد النوم محض ضرورة جسدية ، إنه لشيءٌ شهواني ، مفسد ، أكثر منه مريحاً . لم أعد أهتم بالبقّ . أخبرني ماريو بعلاجٍ ناجعٍ له ، هو الفلفل فقط ، يُرَشُّ بكثافة على أغطية الفراش . الفلفل يجعلني أعطس ، لكن البق كله يكرهه ، فيهاجر إلى الغرف الأخرى .

17

مع ثلاثين فرنكاً في الأسبوع ، مخصصة للشراب ، صار بإمكاني المشاركة في الحياة الاجتماعية للحيّ . كانت لنا ليالٍ مرحة ، أيام السبت ، في المشرب الصغير أسفل «نُزل العصافير الثلاثة» .

الحجرة المرصوفة بالطابوق ، ذات الخمسة عشر قدماً مربعاً ، مكتظة بعشرين شخصاً ، والهواء مشبعٌ حتى العتمة بالدخان . الضجة تصمّ الآذان ، فالكل كانوا بين متكلم بأعلى صوته ، ومُغَنٍّ . أحياناً لا تسمع سوى غماغم ، وأحياناً ينفجر الحضور ، جميعاً ، في الأغنية ذاتها ـ المارسييز ، أو النشيد الأممي ، أو مادلون ، أو الكرز والتوت البري . آزايا ، وهي فلاحة مكتنزة تعمل أربع عشرة ساعة في مصنع زجاج ، تغني : «أضاع البنطلون ، في رقصة الشارلستون» . أما صديقتها مارينين ، الكورسيكية السمراء النحيلة ، المتشدِّدة في فضيلتها ، فكانت تعقد ركبتيها وترقص «رقصة الصدر» . أما آل روجيه العجوزان ، فكانا داخلين خارجين ، يتسوّلان الأشربة ، ويحاولان رواية قصة طويلة عن شخصٍ غشهما ، يوماً ، في أمر سرير . ر ، يجلس ، هيكلاً عظمياً صامتاً ، وهو يشرب بكل هدوء . وشارلي ، سكران ، كان نصف راقصٍ ، نصف مترنح ، وفي راحته يتوازن كأس ابسنث مغشوش ، يقرص النساء ، ويقرأ الأشعار . الناس يلعبون لعبة السهام ، ويغامرون على الأشربة بالنرد . مانويل الإسباني يجرّ الفتيات إلى البار ويخضّ علبة النرد على بطونهنّ ، طلباً للحظّ .

أما مدام ف ، فواقفة عند البار تصبّ ، بسرعة ، أنصافَ ليترات نبيذ ، عبر قمع من البيوتر ، وفي متناولها قطعة قماش غسيل مبتلة ، ذلك لأن كل رجل في الحجرة يحاول أن يمارس معها الحب . طفلان ، هما نغلا لويس الضخم راصف البلاط ، يجلسان في ركن وهما يشربان العصير . كان كل من في الحجرة سعيداً ، واثقاً تماماً ، بأن العالم مكان جميل ، وأننا نفرٌ مرموقٌ من الناس .

لمدة ساعة ، لم تكد الضجة تخفت . وفي حوالي منتصف الليل ، يرتفع صوتٌ ثاقبٌ : «أيها المواطنون!» يليه صوت كرسيّ يهوي . عاملٌ أشقر ، محمرّ الوجه ، وقف وشرع يدق قنينةً على الطاولة . توقّف الجميع عن الغناء . وانتقلت الكلمة من واحد إلى آخر «شـ... شـ... فوركس بدأ!» . كان فوركس شخصاً غريباً ، حجّاراً يعمل بانتظام طيلة الأسبوع ، ويشرب حدّ السقوط في نوبة أيام السبت . كان فقد ذاكرته ، ولا يستطيع أن يتذكر أي شيء قبل الحرب ، وكان يمكن للشرب أن يحطمه تحطيماً لولا عناية مدام ف . في ليالي السبت ، حوالي الساعة الخامسة ، كانت تقول لأحدهم : «أمسكْ فوركس قبل أن يصرف أجوره» ، وعندما يمسكونه تأخذ منه نقوده . في أحد الأسابيع أفلتَ ، وبينما كان يتدحرج أعمى من السكر في ساحة مونج ، دهسته سيارةٌ عابرة ، فأصيب بأذىً شديد .

العجيب في فوركس ، أنه ، بالرغم من كونه شيوعياً في الصحو ، يتحول إلى شوفينيّ في السكر . يفتتح أمسيته بمبادئ شيوعية جيدة ، لكنه بعد أربعة ليترات أو خمسة يكون شوفينياً قُحّاً ، يسبّ الجواسيس ، ويتحدى كل الأجانب للقتال ، وإن لم يمنعه أحد يقذف الناس بالقناني . في هذه المرحلة يلقي خطبته ـ إذ أنه يلقي خطبة وطنية كل مساء سبت . والخطبة تظل هي هي ، كلمة بكلمة :

«يا مواطني الجمهورية ، هل من فرنسيين هنا ؟ إن كان هنا فرنسيون ، فأنا أقف لأُذكّرهم ـ أذكّرهم في الواقع ، بالأيام المجيدة للحرب . حين يلتفت المرء إلى ذلك الزمن من الرفقة والبطولة ـ المرء يلتفت ، في الواقع ، إلى ذلك الزمن من الرفقة والبطولة . عندما يتذكر المرء الأبطال الموتى ، فإنه يتذكر ، في

الواقع الأبطال الموتى . يا مواطني الجمهورية . لقد جُرحت في فردان ـــــ » .

هنا ، يخلع بعض ملبسه ، ويكشف عن الجرح الذي أصابه في فردان . تتعالى صيحات الهتاف . ونفكر أن لا أمر في العالم أكثر تسليةً من خطبة فوركس . كان مشهداً شهيراً في الحيّ ، وقد اعتاد الناس المجيء من المشارب الأخرى ليشاهدوه في بدء نوبته . وتنتقل الكلمة من واحدٍ إلى آخر بإغراء فوركس . أحدهم يغمز للآخرين طلباً للصمت ، ويسأله أن يغني المارسييز . وإنه ليغنيها ، جيداً ، بصوتٍ جهير رفيع ، مع غرغرات وطنية ، تتعمق في صدره حين يبلغ : « إلى السلاح ، يا مواطنون ، كوّنوا كتائبكم! » . تنحدر دموع حقيقية على خديه ، وهو من السكر بحيث لا يعرف أن الجميع كانوا يضحكون منه . لكنْ ، قبل أن ينتهي ، يمسك به عاملان قويان من كلتا ذراعيه ، ويرغمانه على الجلوس ، بينما تهتف آزايا : « تعيش ألمانيا! » وهي على مبعدة . يكسو الأرجوان وجه فوركس لهذا العار . ويبدأ كل من في المشرب يهتف : « تعيش ألمانيا! ، تسقط فرنسا! » ، بينما يجاهد فوركس كي يبلغهم . لكنه فجأةً يفسد التسلية ، إذ يشحب وجهه ويتغضّن ، وتتيبس أطرافه ، ويمرض على الطاولة ، قبل أن يتمكن أحدٌ من إيقافه . آنذاك ، ترفعه مدام ف مثل كيس ، وتحمله إلى الفراش . يعاود الظهور في الصباح ، هادئاً مهذباً ، ويشتري نسخة من صحيفة لومانيتيه .

الطاولة مُسحتْ بقطعة قماش ، وجاءت مدام ف بمزيد من قناني الليتر وأرغفة الخبز ، وانكببنا ، ثانيةً ، على الشرب الجِدّي . يتعالى مزيدٌ من الأغاني . يدخل مغنٍّ جوال مع آلة البانجو ويؤدي وصلاتٍ بخمسة فلوس للوصلة الواحدة .

عربي وفتاةٌ من المشرب أسفل الشارع يرقصان رقصةً ، والرجل يلوّح بقضيب خشبٍ مصبوغ في حجم دبّوس شعر . ثمت فراغات في الضجة الآن . شرع الناس يتحدثون عن شؤونهم الغرامية ، والحرب ، واصطياد سمك البُني في نهر السين ، وعن الطريقة المثلى للقيام بالثورة ، والحكايات . شارلي صحا من سكره ، التقط الحديث ، وتكلم عن نفسه خمس دقائق . الأبواب والنوافذ فُتحت كي تبرد الحجرة . كان الشارع يخلو ، وفي البعيد يمكن

سماع قطار الحليب الوحيد مرعداً في بوليفار سان ميشيل . الهواء يهب بارداً على جباهنا ، والنبيذ الإفريقي الرديء لا يزال جيد المذاق . نحن لانزال سعداء ، إطلاقاً . نحسّ ببهجة الأمسية تتضاءل ، فنطلب قناني أخرى ، لكن مدام ف كانت تغش النبيذ الآن ، بالماء ، فلم يعد طعمه مثل ما كان . الرجال صاروا ميّالين إلى العراك ، والفتيات كنّ يتعرضن للتقبيل العنيف ، ولمدِّ الأيدي في صدورهن ، ولولا مغادرتهنّ لحدثَ الأسوأ .

لويس الضخم ، الحجّار ، كان سكران ، يزحف على الأرض ، نابحاً ، متظاهراً بأنه كلب . سئمه الآخرون ، وأخذوا يركلونه وهو يمرّ بهم . أمسك الناس بأذرعة بعضهم ، وبدأوا اعترافات طويلة صاخبة ، وكانوا يغضبون إن لم يُنصَتْ إليهم جيداً .

الحشد يخفّ . مانويل وشخص آخر ، والإثنان مغامران ، ذهبا إلى مشرب عربي ، حيث لعب الورق يستمرّ حتى مطلع الفجر . فجأة ، استدان شارلي ثلاثين فرنكاً من مدام ف ، واختفى ، ربما ذاهباً إلى مبغى . شرع الرجال يفرغون كؤوسهم ، ويقولون : « يا سادة ، يا سيدات! » ثم يغادرون إلى الفراش .

في الواحدة والنصف تتبخر آخر قطرات السرور ، غير مخلفةٍ وراءها إلا الصداع . وندرك أننا لسنا السكان الرائعين لعالمٍ رائع ، بل نحن جمعٌ من العمال قليلي الأجور ، وقد صرنا سكارى بصورة سيئة . نظل نعبّ النبيذ ، لكن بقوة العادة ، وبدا الشراب مقيِّئاً ، فجأةً . انتفخت رأس أحدنا ، مثل بالون ، وتلطخت الشفاه والألسنة بالأرجوان .

أخيراً ، لم تعد أي جدوى في الاستمرار . ذهب عددٌ من الرجال إلى الباحة خلف المشرب ، وكانوا مرضى . ونزحف نحن إلى الفراش ، لننهار عليه أنصاف عراة ، ونظل فيه عشر ساعات .

معظم أماسيَّ في السبت تمضي هكذا . وعلى العموم ، تستحق ساعتا السعادة الجامحة ، ما يأتي بعدها من صداع .

للكثير من رجال الحيّ ، وهم غير متزوجين ، ولا مستقبل لهم كي يفكروا فيه ، تأتي السكرة الأسبوعية لتجعل الحياة تستحق أن تعاش .

18

روى لنا شارلي ، في إحدى أمسيات السبت ، بالمشرب ، حكايةً بديعة . حاولْ أن تتصوره ـ سكران ، لكنه صاحٍ بما يكفي للحديث المستمر . دقَّ على البار المعدني ، وصرخ يطلب السكوت :

«سكوتاً ، يا سادة ، يا سيدات ، سكوتاً . أتوسلُ إليكم! استمعوا إلى هذه الحكاية ، التي سأرويها لكم . حكاية تُذكَر ، حكاية ذات مغزى . إحدى مأثورات حياةٍ مهذّبة متحضرة . سكوتاً ، يا سادة ، يا سيدات!

حدث الأمر ، عندما كنت في شدّة . أنتم تعرفون ذلك ، وكيف هو ملعونٌ أن يقع رجلٌ مهذبٌ في ورطة كهذه . النقود لم تصل من البيت ، وقد رهنت كل شيء ، ولم يعد أمامي إلا العمل ، وهو ما لن أفعله . كنت أعيش آنذاك مع فتاة ـ كان اسمها إيفون ـ وهي فتاة ضخمة فلاّحة نصف بلهاء ، مثل آزايا ، ذات شعر أصفر ، وساقين سمينتين . لم نأكل نحن الإثنان شيئاً ، لثلاثة أيام . يا إلهي! أي عذاب! كانت الفتاة تقطع الحجرة ، جيئة وذهاباً ، ويداها على بطنها ، عاويةً مثل كلب ، خشية الموت جوعاً . كان الأمر رهيباً .

لكن الذكي لا يعرف المستحيل . طرحت على نفسي السؤال : ما أسهل طريقة للحصول على المال بدون عمل ؟ وفوراً جاء الجواب : للحصول بطريقة أسهل ، على المال ، يجب أن يكون المرء امرأة . أليس لكل امرأةٍ

ما تبيع ؟ وبينما كنت أتأمل في ما يمكن أن أفعله لو كنت امرأةً ، خطرتْ لي فكرة . تذكرت مستشفيات الولادة الحكومية ـ أنتم تعرفون مستشفيات الولادة الحكومية ؟ إنها أماكن تعطى فيها المرأة الحامل وجبات مجانية ، بدون أسئلة تُسأل . وذلك تشجيعاً للإنجاب . بمقدور أي امرأة الذهاب إلى هناك وطلب وجبة . وسوف تتلقّاها فوراً .

فكّرتُ : يا إلهي! آهٍ لو كنت امرأة! إذاً لأكلت في أحد هذه الأماكن يومياً . ترى ، من يستطيع الجزم بأن هذه المرأة حاملٌ أو غير حامل ، بدون فحص ؟

التفتُّ إلى إيفون ، وقلت لها : أوقفي هذا العواء الذي لا يطاق . لديّ فكرة للحصول على الطعام .

قالت : كيف ؟

قلت : بسيطة . اذهبي إلى مستشفى الولادة الحكومي ، أخبريهم أنك حاملٌ ، واطلبي طعاماً .

امتعضت إيفون ، وصاحت : لكنْ ، يا إلهي! أنا لستُ حاملاً!

قلت : مَن يهتم ؟ سهلٌ أن نتدبّر الأمر . ماذا تحتاجين أكثر من مخدّة... مخدتين في حال الضرورة ؟ الفكرة إلهامٌ سماويّ ، يا عزيزتي ، لا تضيعيها .

حسناً ، أقنعتُها في النهاية ، فاستعرنا مخدة ، وأكملتُ استعدادها ، وصحبتها إلى مستشفى الولادة . استقبلوها بأذرع مفتوحة ، وأعطوها حساء ملفوف ، ويخنة بقر ، وبطاطا مهروسة ، وخبزاً وجبناً وبيرة ، وكل أنواع النصائح عن طفلها . التهمت إيفون الطعام حتى كاد جلدها ينفجر ، ودبّرتْ أن تخبئ لي في جيوبها خبزاً وجبناً . وصرت آخذها إلى هناك كل يوم حتى جاءت نقودي . لقد أنقذنا ذكائي .

استمر كل شيء جيداً ، حتى العام المقبل . كنت مع إيفون ثانيةً ، وفي أحد الأيام كنا نتمشى في بوليفار بور رويال ، قرب الثكنات . فجأة فغرت إيفون فاها ، واحمرّت وابيضّت واحمرّت .

صاحت : «يا إلهي! أنظر إلى تلك القادمة! إنها الممرضة المسؤولة عن مستشفى الولادة . لقد حلّ بي الخراب!» .

قلت : «أسرعي! اركضي!» .

لكن بعد فوات الأوان... فلقد عرفت الممرضة ، إيفون ، وجاءت إلينا مباشرة ، وهي تبتسم . كانت امرأة ضخمة ، سمينة ، مع نظارة ذهب ، وخدين محمرّين كالتفاح . إنها امرأة ، ذات طبيعة أمومية متدخِّلة .

قالت بصوت رقيق : «آملُ في أن تكوني بحالة جيدة ، يا صغيرتي ؟ وطفلك ؟ أليس جيداً أيضاً ؟ أكان ولداً كما أردتِ ؟» .

أخذت إيفون ترتجف بشدة ، حتى اضطررت أن أمسك بذراعها . أخيراً قالت : «لا» .

«آه ، إذاً ، هي بنت ؟» .

لكنّ إيفون البلهاء ، فقدت رشدها كاملاً ، وقالت من جديد : «لا» .

أجفلت الممرضة ، وهتفت : «كيف ؟ لا ولد ، ولا بنت! كيف يحدث هذا ؟» .

تصوّروا هذه اللحظة ، أيها السادة والسيدات . كانت لحظة خطرة . صار لون إيفون مثل الشمندر ، وأوشكت أن تنفجر باكيةً . ثانية واحدة فقط لتعترف بكل شيء . السماء وحدها تعلم ما كان سيحدث . أما أنا فقد احتفظت برباطة جأشي ، وتقدمتُ لأنقذ الوضع .

قلت بهدوء : «كانا توأمين» .

هتفت الممرضة : «توأمان!» . وسُرَّتْ سروراً بالغاً ، وربتت على كتفي إيفون ، وقبلتها من كلا خديها ، أمام الناس .

«نعم ، توأمان...» .

19

في أحد الأيام ، ونحن في فندق س ، لخمسة أسابيع أو ستة ، اختفى بوريس بلا إشعار مسبق . وفي المساء رأيته ينتظرني في شارع ريفولي . ضرب كتفي مبتهجاً .

« صرنا أحراراً في النهاية ، يا صديقي! بإمكانك تقديم إشعار في الصباح . الأوبرج سيفتح غداً » .

« غداً ؟ » .

« حسناً ، قد نحتاج يوماً أو يومين لتدبير الأشياء . لكن ، لا كافتيريا بعد اليوم ، على أي حال! لقد انطلقنا يا صديقي! واستعدت منذ الآن سترتي الطويلة من الرهن » .

كانت طريقة تصرفه جدّ عاطفية حتى لقد أحسست بأن ثمت شيئاً خطأً بالتأكيد ، ولهذا لم أشأ أن أترك عملي المضمون والمريح في الفندق . لكنني كنت وعدتُ بوريس ، وهكذا أشعرتُ الفندق بتركي العمل ، وذهبت صباح اليوم التالي إلى أوبرج جيان كوتار . كان مغلقاً . مضيت أبحث عن بوريس ، الذي انسلّ ثانيةً من مسكنه ، وأخذ غرفة في شارع لاكروا نيفر . وجدته نائماً مع فتاة التقطها الليلَ الفائت ، فتاةٍ ذات « مزاج عاطفي جداً » كما كان أخبرني . أما بصدد المطعم فقد قال إن كل شيء مرتَّبٌ ، ولم تبقَ إلا أشياء قليلة صغيرة ، وبعدها نفتح المطعم .

في الساعة العاشرة استطعت أن أُخرج بوريس من الفراش ، ثم فتحنا باب المطعم . وبنظرة واحدة أدركت ما تعني «الأشياء القليلة الصغيرة» . كانت ، باختصار ، الآتية : التحويرات لم تُمسّ منذ زيارتنا الأخيرة . مواقد المطبخ لم تصل . الماء والكهرباء لم يوصَلا . وثمت أعمالٌ عدة لم تجرِ ، من صبغ وتلميع ونجارة . المعجزة فقط بمقدورها أن تفتح المطعم خلال عشرة أيام . بل أن مرأى الأشياء يجعل الشخص يميل إلى فكرة أن المطعم قد ينهار حتى قبل أن يُفتح . كان صاحب المطعم يعاني من ضيق اليد ، وقد شغّلَ المستخدمين (نحن أربعة) كي يستخدمنا بدلاً من العمال . كان سيحصل على خدماتنا بالمجّان تقريباً ، إذ أن النادلين لا يتقاضون أجوراً ، ومع أنه سيدفع لي ، إلا أنني لن آكل قبل افتتاح المطعم . والحقُّ أنه غشّنا بعدة مئات من الفرنكات حين استدعانا من عملنا قبل أن يفتح المطعم . لقد تخلينا عن عمل جيدٍ ، مقابل لا شيء .

بالرغم من هذا ، كان بوريس مفعماً بالأمل . والفكرة الوحيدة التي تدور في رأسه ، هي أن في هذا المكان فرصته الأخيرة ليغدو من جديد نادلاً ذا سترة طويلة . ووصولاً إلى هذا كان مستعداً للعمل عشرة أيام بدون أجور ، مع إمكان أن يُترك عاطلاً في النهاية . كان يظل يردد : «صبراً! سيترتّب الأمر . انتظرْ حتى يفتح المطعم ، ولسوف نستعيد كل شيء . صبراً ، يا صديقي!» .

ولقد كنا بحاجة إلى الصبر ، إذ مرّت الأيام والمطعم لم يخطُ حتى خطوةً نحو الافتتاح . نظفنا الأقبية ، وثبّتنا الرفوف ، وصبغنا الجدران ، ولوّنّا الأرضية ، وصقلنا الأعمال الخشبية ، وغسلنا السقف ، لكن العمل الرئيس لم يتمّ بعدُ ، وهو مدّ الأنابيب ووصل الغاز والكهرباء ، ذلك لأن صاحب المطعم عاجزٌ عن دفع القوائم . والواضح أنه مفلسٌ تماماً ، فهو يرفض أدنى التكاليف ، ويتمتع بقدرة الاختفاء السريع حين يطالَب بنقود . كما أن مراوغته وأرستقراطيته تجعلان التعامل معه بالغ العُسر . الدائنون

المكتئبون يجيئون على مدى الساعات يسألون عنه ، وكنا ، حسب التعليمات ، نخبرهم بأنه في فونتينبلو ، أو سان كلو ، أو أي مكان آخر بعيد بما فيه الأمان .

في هذه الأثناء ، كنت أجوع ، أكثر فأكثر . تركت الفندق وفي جيبي ثلاثون فرنكاً ، وعليَ العودة ، فوراً ، إلى قوت يومي من الخبز اليابس . دبّرَ بوريس ، منذ البداية ، استلال ستين فرنكاً من صاحب المطعم ، كتسبيقة ، لكنه أنفق نصفها على استعادة ملابس النادل من الرهن ، والنصف الآخر على الفتاة ذات المزاج العاطفي . استدان ، كل يوم ، ثلاثة فرنكات من جول ، وهو نادل آخر ، لتصرف على الخبز . ولأيامٍ لم نكن نملك نقوداً للتبغ .

أحياناً ، كانت الطاهية تأتي لترى كيف تسير الأمور ، وعندما تشاهد المطبخ خالياً من القدور والمقلايات كانت تبكي عادةً . جول ، النادل الثاني ، رفض رفضاً باتاً المشاركة في العمل . كان مجرياً ، ذا سمرة خفيفة ، وملامح حادة ، ونظارات ، وكان لبق الحديث ، طالب طب سابقاً ، ترك دراسته بسبب قلة المال . كان يتلذذ بالحديث حين الآخرون يعملون ، وقد أخبرني كل شيء عنه وعن أفكاره . ظهرَ أنه شيوعي ، له عدة نظريات غريبة (بإمكانه البرهنة بالأرقام أن من الخطأ أن نعمل) ، وكان أيضاً ، مثل معظم المجريين ، ذا اعتزازٍ بالنفس ، وإباء . الرجال الأباة الكسالى لا يصيرون نادلين جيدين . أعزُّ ما يتباهى به جول ، أن زبوناً في مطعم أهانه مرةً ، فما كان من جول إلا أن يسكب صحناً من الحساء الساخن أسفل عنق الزبون ، ويغادر المطعم رأساً بدون أن ينتظر حتى أمر طرده من العمل .

مع كل يوم يمرّ ، كان جول يغدو أكثر حنقاً على خديعة صاحب المطعم لنا . كانت لديه طريقة خطابية متقطعة في الكلام . واعتاد المسير جيئة وذهاباً ، ملوِّحاً بقبضته ، محاولاً تحريضي ضد العمل :

«ضع هذه الفرشاة على الأرض ، أيها الأحمق! أنت وأنا من أقوامٍ أبيّةٍ ، نحن لا نعمل مقابل لا شيء ، مثل هؤلاء الأقنان الروس . أقول لك إن

الاحتيال علينا بهذه الطريقة هو عذابٌ لي . مرّت عليّ أوقاتٌ من حياتي ، تقيّأتُ فيها لأن شخصاً احتال عليّ بخمسة فلوس . نعم تقيّأتُ من غضبي .

وإلى جانب ذلك ، يا عجوزي ، لا تنس أنني شيوعي . تسقط البورجوازية! هل رآني أحدٌ في عملٍ إن استطعت تجنّبه ؟ لا . وأنا لا أكتفي بألاّ أرهق نفسي في العمل ، مثلكم ، أيها الحمقى ، لكني أسرق أيضاً ، فقط لأدلّلَ على استقلالي .

مرةً كنت في مطعم حاول صاحبه أن يعاملني معاملة كلب . وانتقاماً لنفسي اكتشفت طريقة لسرقة الحليب من عُلبه ، وختمها ثانية ، فلا يعرف أحدٌ بما جرى . أقول لك إنني ظللت أعبّ من ذلك الحليب ليل نهار . أشرب ، يومياً ، أربعة ليترات حليب ، مع نصف ليتر قشدة . كاد صاحب المطعم يفقد صوابه من تبدّد الحليب الذي لا يعرف له سبباً . أنا لم أفعل هذا لأني أحب الحليب ، أنت تفهم ، وإنما لأني أكره الحليب . المسألة مسألة مبدأ ، مبدأ فقط .

حسناً . في اليوم التالي ضبطني صاحب المطعم أسرق الحليب . قال : «أنت مطرود . تترك العمل في نهاية الأسبوع» . قلت : «عفواً ، يا سيدي ، سوف أترك هذا الصباح» . قال : «لا . لن تترك . فأنا لا أستغني عنك حتى السبت» . قلت : «حسنٌ جداً ، يا مولاي» . وفكرتُ مع نفسي : «دعنا نرى من سيتعب أولاً» ، وشرعت أكسر الأواني . كسرت تسعة أطباق في اليوم الأول ، وثلاثة عشر في الثاني . بعدها كان صاحب المطعم مبتهجاً لمغادرتي .

آه ، أنا لستُ واحداً من رُوسِكَ الموجيك...» .

مرت عشرة أيام . كان وقتاً سيئاً . كنت بلا نقود تماماً ، واستحقَ إيجاري منذ سبعة أيام . كنا ندور في المطعم الفارغ البغيض ، أشد جوعاً من أن نكمل العمل المتبقي . الآن ، بوريس وحده ، هو الذي يعتقد بأن المطعم سوف يُفتح .

لقد وضع نصب عينيه أن يكون رئيس نادلين ، واخترع نظرية تقول إن أموال المالك مربوطة في أسهم وإنه ينتظر اللحظة المناسبة لبيع الأسهم . في اليوم العاشر لم أجد ما آكله أو أدخِّنه ، وأخبرتُ المالك أنني لا أستطيع الاستمرار بدون تسبيقةٍ يدفعها ، وبمثل خفّته المعتادة وعدني بدفع التسبيقة ، لكنه اختفى ، حسب طريقته . مشيت بعضاً من الطريق إلى المسكن ، لكنني لم أكن مستعداً لمشهدٍ مع مدام ف حول الإيجار ، هكذا أمضيت الليل على مصطبة البوليفار . كانت وضعية غير مريحة بالكامل ـ ذراع المصطبة يحفر ظَهرك ـ والليل أشد برداً مما توقعت . والوقت متطاولٌ في الساعات المضجرة المديدة بين الفجر والعمل ، مهيّأً للتفكير بمبلغ حماقتي حين أسلمت أمري إلى أيدي هؤلاء الروس .

فجأةً ، تبدّل الحظّ ، صباحاً ، واضحٌ أن المالك توصّل إلى تفاهم مع دائنيه ، فقد جاء والمالُ في جيوبه ، وجعل التحويرات تستأنف ، وأعطاني تسبيقةً . اشترينا ، أنا وبوريس ، معكرونا ، وقطعة من كبد حصان ، وأكلنا أول وجبة ساخنة لنا في عشرة أيام .

جيء بالعمال ، وأجريت التعديلات بسرعة ورداءة لا تصدّقان . مثلاً ، كان ينبغي أن تغطى الموائد بنسيج البيز الأخضر ، لكن المالك حين وجد البيز غالياً ، اشترى بدلاً منه بطانيات عسكرية مستعملة ، تطلق رائحة عرقٍ لا تطاق . مفارش الموائد (كانت ذات مربعات ، كي تتماشى مع الديكورات «النورماندية») سوف تغطيها بالطبع .

في الليلة الأخيرة ، استمررنا نعمل حتى الثانية صباحاً ، كي نجعل الأشياء جاهزة . الأواني لم تصل إلا في الثامنة ، وينبغي غسلها لأنها جديدة . السكاكين والملاعق والشوكات لم تصل إلا في الصباح التالي ، وكذلك قطع القماش ، ولهذا كان علينا أن ننشف الأواني بقميص المالك وبغطاء وسادة من البوّاب . بوريس وأنا ، قمنا بالعمل كله . كان جول يتكاسل ، والمالك وزوجته يجلسان في البار مع أحد الدائنين ونفرٍ من

الأصدقاء الروس ، يشربون احتفالاً بالمطعم . الطاهية في المطبخ ورأسها على الطاولة ، تبكي ، لأنها توقعت أنها سوف تطهي لخمسين شخصاً ، بينما القدور والمقلايات تكفي لعشرة فقط . حوالي منتصف الليل حدثت مشادة مخيفة بين عدد من الدائنين الذين جاؤوا لأخذ ثمانية قدور حساء نحاسية كان المالك حصل عليها دَيناً . وقد استُرضي هؤلاء بنصف زجاجة براندي .

جول وأنا لم نستطع أخذ المترو الأخير إلى المسكن ، وكان علينا النوم على أرضية المطعم . أول ما شاهدناه في الصباح فأران كبيران جالسان على طاولة المطبخ ، يأكلان لحم خنزير هناك . إنها لعلامةُ شؤم . وتأكدتُ أكثر من السابق أن أوبرج جيان كوتار سوف يكون عملاً فاشلاً .

20

شـغّلني المـالك ، غاسـلَ صحـون في المطبخ ، وهذا يعني أن عـملي هو غسل الصحون ، وتـنظيف المطبخ ، وإعداد الخضروات ، والشاي ، والقهوة والشطائر ، والقيام بالطهي البسيط ، وأداء مـهمات مثل إيصال رسائل... الخ . والشروط كانت ، كالمعتاد ، خمسمائة فرنك في الشهر ، والطعام ، لكن لم يكن لي يوم عطلة ، ولا ساعات عمل محدَّدة . في فندق س ، عرفت تزويد الطعام Catering كأفضل ما يكون ، مع مالٍ غير محدود ، وتـنظيم جيد . أما الآن ، في الأوبرج ، فقد عرفت كيف تؤدى الأمور في مطعم بالغ الرداءة . المسألة تستحق الوصف ، ففي باريس مئات المطاعم المماثلة ، وكل زائر يأكل في أحدها بين حين وآخر .

عليّ أن أضيف ، أن الأوبرج لم يكن محلَّ أكلٍ عادياً رخيصاً يرتاده الطلبة والعمال . فنحن لا نقدم وجبة كافيةً بأقل من خمسة وعشرين فرنكاً ، كـمـا أن مطعـمنا ذو منظر حسـن ، ومظهـر فني ، مـمـا يرفع مكانتنا الاجتماعية . ثمت الصور غير المحتشمة في البار ، والديكورات النورماندية ـ عوارض مزيفة على الجدار ، ومصابيح كهرباء في هيأة شموع ، وفخّار « فلاحي » ، وحتى وَضَمٌ عالٍ عند الباب ـ والمالك ورئيس النادلين كانا ضابطين روسيين ، والعديد من الزبائن لاجئون روس ذوو ألقاب . وباختصار كان مطعمنا رفيعاً .

بالرغم من هذا ، كانت الأحوال خلف باب المطبخ تليق بزريبة خنازير . فهذه كانت ترتيبات خدمتنا .

طول المطبخ خمسة عشر قدماً ، وعرضه ثمانية . نصف هذه المساحة تحتله المواقد والطاولات . وينبغي وضع القدور كلها على رفوف بعيدة عن التناول ، ولا مكان إلا لسلّة قمامة واحدة . هذه السلّة تمتلئ حتى أعلاها في الظهر عادةً ، والأرضية مغطاة بعمق بوصةٍ من الأكل الموطوء بالأقدام .

لدينا ثلاثة مواقد غازية فقط بدون أفران مما يقتضي إرسال قطع اللحم الكبيرة إلى المخبز كي تشوى .

ليس لدينا مكان لحفظ المؤونة . وبدلاً منه هناك ظلّةٌ نصف مسقوفة في الباحة ، تتوسطها شجرة . واللحوم والخضروات وما إليها ملقاة على الأرض العارية ، معرّضة لغزو الفئران والقطط .

لا ماء ساخناً يُعتمد عليه بصورة مستمرة . ولهذا يسخَّن الماء بالقدور لغرض الغسيل ، وليس من موضعٍ لهذه القدور حين تطهى الوجبات ، فنضطر إلى غسل الصحون بالماء البارد . إن هذا يعني مع الصابون الناعم وماء باريس القاسي مسحَ الشحوم بمزق من ورق الصحف . كما أن لدينا نقصاً في القدور بحيث أُضطرُّ إلى غسل القدر حال الانتهاء منه ، بدلاً من تركه حتى المساء . إن هذا كله قد يهدر ساعة كاملة يومياً . وبسبب التقتير في الإنفاق ، كان المالك يطفئ المصابيح الكهربائية في الساعة الثامنة مساءً ، ولا يسمح لنا إلا بثلاث شموع في المطبخ . وعندما قالت الطاهية إن رقم ثلاثة لا يجلب الحظ ، بقيت لدينا شمعتان فقط .

مطحنة قهوتنا مستعارة من مشرب قريب ، وسلّة قمامتنا ومكانسنا من البوّاب .

بعد الأسبوع الأول ، لم تعد كمية غسيل من محل التنظيف ، بسبب عدم دفع القائمة . وكانت لنا متاعب مع مفتش العمل حين اكتشف أن ليس بين المستخدمين فرنسيون ، والتقى بالمالك عدة مرات ، وأظن أن المالك

قدّم له رشوة . مازلنا مدينين لشركة الكهرباء ، وعندما عرف الدائنون أننا نسترضيهم بالمشروبات فاتحة الشهية ، صاروا يجيئوننا كل صباح . نحن مدينون للبقال أيضاً ، وكان بالإمكان توقف البيع دَيناً لولا أن زوجة البقال (امرأة في الستين ذات شاربين) كانت معجبةً بجول الذي يُرسل كل صباحٍ ليتملّقها . وعليّ أيضاً أن أصرف ساعة ، كل يوم ، أساومُ على الخضروات في شارع كوميرس ، كي أوفر بضعة سنتيمات .

هذه نتائج فتح مطعم برأسمال غير كاف . في هذه الظروف ، كان عليّ ، مع الطاهية ، أن نتوقع إعداد ما بين ثلاثين وجبة إلى أربعين يومياً ، كي نجد أنفسنا نعدّ مائة . منذ اليوم الأول كان الأمر شديداً علينا . ساعات عمل الطاهية بين الثامنة صباحاً حتى منتصف الليل . وأنا أعمل من السابعة صباحاً حتى الثانية عشرة والنصف من الصباح التالي ـ سبع عشرة ساعة ونصف ، بدون انقطاع ، تقريباً . لم نكن لنستطيع الجلوس حتى الخامسة مساء ، وآنذاك أيضاً لم نكن لنجد كرسياً إلا سلّة القمامة . أما بوريس الساكن قرب المطعم ، وغير المحتاج إلى العودة بالمترو الأخير إلى المسكن ، فقد كان يعمل من الثامنة صباحاً حتى الثانية من صباح اليوم التالي ـ ثماني عشرة ساعة يومياً ، سبعة أيام في الأسبوع . مثل هذه الساعات ، مع أنها غير عادية ، ليست استثنائية في باريس .

لقد استقرت الحياة على رتابة جعلت فندق س يبدو مثل عطلة عيد . كل يوم في الساعة السادسة أجبرُ نفسي على ترك الفراش ، بلا حلاقة ، وأحياناً بلا استحمام ، وأُسرع إلى ساحة إيطاليا ، مناضلاً للحصول على مكان في المترو . في الساعة السابعة أكون في منعزَلِ المطبخ البارد القذر ، مع قشور البطاطا والعظام وذيول السمك التي تغطي الأرضية ، وأكوام الصحون الملتصقة ببعضها وهي في شحومها تنتظرني طوال الليل . لكن ليس بمقدوري بعدُ ، أن أبدأ أغسلُ الصحون ، إذ عليّ أن أحضر الحليب وأعدّ القهوة ، فقد وصل الآخرون في الثامنة وهم ينتظرون أن يجدوا القهوة

جاهزة . كما أن ثمت ، دائماً ، عدداً من الصواني النحاس للغسل . هذه الصواني النحاس هي جحيم غاسل الصحون . إذ ينبغي أن تجلى بالرمل والليف المسلسل ، كل واحدة منها ، لعشر دقائق ، ثم يُلمَّع خارجها بالبراسّو . ومن حسن الحظ أن فن صنعتها أخذ يختفي تدريجاً من المطابخ الفرنسية ، وإن ظل بإمكان المرء شراؤها مستعملةً .

حين أشرع أغسل الصحون ، تقول لي الطاهية أن أشرع أقشر البصل ، وحين أبدأ أقشر البصل يأتي المالك ويرسلني خارج المطعم لأشتري الملفوف . وإذ أعود مع الملفوف ترسلني زوجة المالك إلى دكان يبعد نصف ميل لأشتري أحمر شفاه . ما أن أعود حتى أرى أمامي المزيد من الخضروات المنتظِرة ، ومن الصحون اللازم غسلُها . وبهذه الطريقة تكدّسُ لاكفاءاتُنا عملاً على سواه ، طوال اليوم ، فلا نظفر من ذلك بشيء .

حتى العاشرة ، تسير الأمور يسيرةً ، بالمقارنة . ومع أننا نعمل بسرعة إلا أن الواحد منا لا يفقد السيطرة على أعصابه . الطاهية تجد وقتاً للحديث عن ميولها الفنية ، وتسأل إن كنت أظن تولستوي رائعاً ، وتغني بصوت سوبرانو بديع وهي تفرم لحم البقر على اللوحة .

لكن ، في الساعة العاشرة يبدأ النادلون يطالبون بغدائهم الذي يتناولونه مبكراً ، وفي الحادية عشرة يأتي أول الزبائن . فجأةً يغدو كل شيء عجلةً وسوء مزاج . لم تكن في الأوبرج تلك الصيحات والاندفاعات الهائجة التي في فندق س ، إلا أنه جوٌّ من الاختلاط والحسد الواطئ والسخط . اللارضا كان في قرارة هذا كله . المطبخ مكتظّ إلى حدٍ لا يطاق ، والأطباق ينبغي وضعها على الأرض ، وعلى المرء أن يحاذر المشي فوقها . ردفا الطاهية الفارهان يرتطمان بي إذ تتحرك جيئةً وذهاباً . وينطلق منها سيلُ أوامر لا ينقطع :

« أيها الأبله الفضيحة! كم مرةً أخبرتك ألا تجرح الشمندر ؟ عجِّلْ ، دعني أصل إلى المغطس! أبعِدْ تلك السكاكين . اشتغلْ بالبطاطا . ماذا فعلتَ بمصفاتي ؟ أوه ، اتركْ حبّات البطاطا هذه . ألم أقل لك أن تصفّي ماء اللحم ؟

ارفعْ إناء الماء ذاك عن الموقد . لا تهتم بالغسل . قطِّعْ هذا الكرفس . لا . ليس هكذا ، أيها الأحمق ، بل هكذا . آ! انتبه ، لا تدع البازلاء تغلي أكثر من اللازم! الآن ، اشتغلْ وأزِلْ صَدف أسماك الرنجة هذه . أنظر! أتظن هذا الصحن نظيفاً ؟ امسحْهُ بصدريتك . ضع تلك السلطة على الأرض ، تماماً حيث يمكن أن أسير عليها! انتبه ، ذلك القدر يغلي أكثر مما يلزم! أنزِلْ تلك المقلاة . لا... الأخرى . ضع هذه على المشواة . ارمِ تلك البطاطا . لا تضع وقتك ، ارمها على الأرض . ادعسْ عليها . الآن ، انثر بعض النشارة . هذه الأرضية مثل ساحة تزلّج . انتبه أيها الأحمق ، ذلك الستيك يحترق! يا إلهي... لماذا أرسلوا إليّ أبله باعتباره غاسل صحون ؟ مع من تتكلم ؟ أتعرف أن عمتي كانت كونتيسة روسية ؟ إلخ . إلخ . إلخ .

يظل الحال على هذا المنوال حتى الساعة الثالثة ، بلا أي تنويع ، سوى أنه في حوالي الساعة الحادية عشرة تصاب الطاهية ، عادةً ، بنوبة عصبية ، وبانهمار دموعٍ . الوقت بين الثالثة والخامسة راحةٌ للنادلين ، لكن الطاهية تظل منهمكة ، وأنا أشتغل بأقصى سرعة ، فثمت أكداسٌ من الصحون تنتظر ، وعليّ أن أسابق الزمن لأغسلها كلها ، أو أكاد ، قبل أن يبدأ العشاء . وكان الغسل جهداً مضاعفاً بسبب الظروف البدائية ـ لوح تنشيف متمعج ، ماء فاتر ، قماشات منقّعة ، ومغطس ينحبس كلَّ ساعة ، مرةً .

في الساعة الخامسة ، نغدو أنا والطاهية نترنّح ، فنحن لم نجلس ، ولم نرتح ، ولم نأكل ، منذ السابعة . وقد ألِفْنا أن ننهار ، هي على سلّة القمامة ، وأنا على الأرض ، نشرب زجاجة بيرة ، ونعتذر عما قيل في الصباح . الشاي هو ما يبقينا متوازنين . وكنا حريصين على أن يظل الشاي في متناولنا دائماً ، لنشرب منه الكثير طوال اليوم .

في الخامسة والنصف تبدأ العجلة والجلبة من جديد ، أسوأ من قبل ، ذلك لأن الجميع منهكون . للطاهية نوبة عصبية في السادسة ، وأخرى في التاسعة . وتأتي النوبتان منتظمتين ، حتى صار بالإمكان معرفة الوقت بهما .

كانت تنهار على سلّة القمامة ، وتبدأ تنشج في حالة هستيريّة ، وتعلن صارخةً أنها لم تفكر ، البتة ، في أن تعيش حياة كهذه ، لا يمكن أن تتحملها أعصابها ، لقد درست الموسيقى في فيينا ، وعندها زوجٌ مُقعدٌ ترعاه ، إلخ . إلخ . في وقت غير الذي نحن فيه كان المرء سيأسف لها ، لكننا ، نحن المتعبين ، لم نكن نحسُّ إلا بالانزعاج من صوتها المفعم بالنشيج . وقد اعتاد جول الوقوف في المدخل ومحاكاة صوتها . زوجة المالك تنقّ ، وبوريس وجول يتعاركان طيلة اليوم ، لأن جول تهرّب من عمله ، فاستولى بوريس ، باعتباره رئيس النادلين ، على حصة الأسد من الهِبات . في اليوم الثاني فقط لافتتاح المطعم ، تضاربا في المطبخ على هِبةٍ بخمسة فرنكات ، وقد فصلنا أنا والطاهية بينهما . الشخص الوحيد الذي يظل محتفظاً بهدوئه هو المالك . إنه يداوم الساعات التي نداومها ، لكنه لا يعمل ، إذ أن زوجته هي التي تدير الشؤون . عمله الوحيد ، إلى جانب طلب التجهيزات ، كان الجلوس في البار ، وتدخين السجائر ، والحفاظ على وضعية الشخص المهذَّب ، وكان يفعل ذلك حتى الكمال .

كنا ، أنا والطاهية ، نجد وقتاً لنتعشى بين العاشرة والحادية عشرة . في منتصف الليل تسرق الطاهية علبة طعام لزوجها ، وتخبئها تحت ثيابها ، وتغادر المكان ، مغمغمةً أن هذه الساعات سوف تقتلها ، وأنها ستقدم إشعاراً في الصباح . جول أيضاً يغادر في منتصف الليل ، عادةً بعد اختصام مع بوريس الذي عليه الاهتمام بالبار حتى الساعة الثانية . بين الساعة الثانية عشرة ، والثانية عشرة والنصف ، أفعلُ أنا ما أستطيعه من غسل الصحون . لا وقت لديّ كي أحاول أن أقوم بعملي خير قيام ، وقد اعتدتُ ، ببساطة ، أن أمسح الشحوم عن الصحون بمناديل المائدة . أما عن أوساخ الأرضية ، فإني أتركها في مكانها ، أو أُبعدها عن النظر ، تحت المواقد . في الساعة الثانية عشرة والنصف ، أرتدي سترتي ، وأسرع خارجاً .

المالك ، لطيفاً كعادته ، كان يستوقفني وأنا أقطع الممر عبر البار ،

ويقول لي : « كم تبدو متعباً ، يا سيدي العزيز! أرجوك أن تتفضّل عليّ ، بقبول كأس البراندي هذا » .

كان يناولني كأس البراندي ، باحترام ، حتى كأنني دوقٌ روسيٌ ، لا غاسل صحون . إنه يعاملنا ، جميعاً ، هذه المعاملة . وهي تعويضٌ عن عملنا سبع عشرة ساعة في اليوم .

المترو الأخير ، يكون كالمعتاد ، شبه فارغ . وهذا أمرٌ ذو نفع عظيم ، إذ بإمكان المرء أن يجلس وينام ، ربع ساعة . على العموم ، أكون في الفراش ، الساعة الواحدة والنصف . أحياناً لا أستطيع أن أدرك القطار ، فأنام على أرضية المطعم ، لكنّ هذا لا يهمني ، إذ بمقدوري النوم على الحجارة ، آنذاك .

21

استمرت الحياة هكذا ، حوالي أسبوعين ، مع زيادة طفيفة في العمل ، ناتجة عن الازدياد في عدد زبائن المطعم . كنت أستطيع أن أكسب ساعة في اليوم ، لو سكنتُ في غرفةٍ قرب المطعم ، لكن بدا من المستحيل أن أجد وقتاً لتغيير المسكن ـ أو ، لذلك السبب ، أن أحلق شعري ، وأنظر إلى صحيفة ، أو حتى أن أخلع ملابسي بالكامل . بعد عشرة أيام استطعت أن أجد ربع ساعة ، فكتبت إلى صديقي ب ، في لندن ، أسأله إن كان بمقدوره إيجاد عملٍ لي ، أياً كان ـ أي شيء ، يسمح لي بالنوم أكثر من خمس ساعات . أنا ، بكل بساطة ، لم أعد قادراً على الاستمرار في العمل سبع عشرة ساعة يومياً ، مع أن ثمت أناساً كثيرين لا يهمّهم هذا . حين يكون المرء منهكاً ، يجد مواساتَه في التفكُّر في آلاف الناس الذين يعملون في مطاعم باريس ، هذه الساعات كلها ، والذين يظلون يعملون ، لا لبضعة أسابيع ، بل لسنين وسنين . في مشربٍ قرب نُزلي ، فتاةٌ تشتغل من الساعة السابعة صباحاً حتى منتصف الليل ، لمدة عام كامل ، ولا تجلس إلا لتناول وجباتها . أتذكر أنني عرضتُ عليها أن تذهب معي للرقص ، فضحكت وقالت إنها لم تصل إلى أبعد من ركن الشارع منذ عدة شهور . كانت مسلولة ، وماتت حوالي وقت مغادرتي باريس .

بعد أسبوع واحد ، كنا جميعاً مرهقين عصبياً بسبب العمل ، ما عدا

جول الذي كان يتهرب باستمرار . المشادات التي كانت متقطعة في البداية ، أمست الآن دائمة . ولساعات كان أحدهم يتابع النقّ الذي يتصاعد في عاصفة شتائم كل بضع دقائق . تصرخ الطاهية «أعطني تلك القِدرة ، أيها الأبله!» (كانت أقصر من أن تطال الرفوف حيث القدور) . وأجيبها «أنزليها بنفسك ، أيتها العاهرة العجوز» . يبدو أن تعابير كهذه تولد تلقائياً من جو المطبخ .

نحن نختصم لأتفه الأشياء . سلّة القمامة مثلاً صارت مصدراً للمشادات لا ينتهي ـ أَتوضَعُ حيث أريد أنا فتكون في طريق الطاهية ، أم كما تريد هي فتكون بيني وبين المغطس ؟ في أحد الأيام ظلت تنقّ وتنقّ حتى بلغ بي الغضب مبلغه فرفعت سلة القمامة ووضعتها وسط الأرضية ، تماماً في ممشى الطاهية المألوف .

قلت : «الآن ، أيتها البقرة ، انقليها بنفسك» .

كانت السلة أثقل من أن تستطيع المرأة العجوز المسكينة رفعها . فجلست ، ووضعت رأسها على الطاولة وانفجرت تبكي ، وأنا أسخر منها . إنه تأثير الإعياء في سلوك الشخص .

بعد أيام قليلة كفّت الطاهية عن الكلام على تولستوي وميولها الفنية ، ولم نعد نتحدث مع بعضنا إلا في أمور العمل . بوريس وجول لم يعودا يتكلمان مع بعضهما ، كما أنهما كليهما لا يتكلمان مع الطاهية . حتى أنا وبوريس لم نعد نتكلم مع بعضنا إلا لماماً . كنا اتفقنا من قبل على أن شتائم ساعات العمل تُنسى بانتهاء العمل ، لكننا تشاتمنا بألفاظ أقبح من أن تُنسى ـ إلى جانب أنه لم يكن ثمت انتهاء عمل أو توقّف . صار جول أكثر كسلاً مع الأيام ، وكان يسرق الطعام باستمرار ـ من إحساسٍ بالواجب ، كما يقول . وكان يسمّي بقيّتنا ، الصُفر ، حين لا نشاركه السرقة . إن له نفساً ماكرة غريبة . وأخبرني متباهياً أنه عصَرَ في أحد الأيام خرقة غسيل قذرة في صحن حساء زبون ، قبل أن يقدم الصحن ، لسبب واحد فقط ، هو الانتقام من أحد أبناء البورجوازية .

صار المطبخ أقذر ، والفئران أجسر ، مع أننا نصيد بعضها . أدور ببصري في الحجرة القذرة ، وأرى اللحم الطري الملقى على الأرض المزبلة ، والقدور الباردة الملطخة المتناثرة في كل مكان ، والمغطس المحتبس المغطى بالشحوم ، فأتساءل إن كان في العالم مطعمٌ رديء مثل مطعمنا . لكن الثلاثة الآخرين كلهم قالوا إنهم كانوا في أماكن أشدّ قذارة . كان جول يسعد برؤية الأشياء قذرةً . وبعد الظهر ، حين لا يكون عنده مزيدٌ من العمل ، اعتاد أن يقف في مدخل المطبخ ، ويهزأ بنا لأننا نجهد أنفسنا في الشغل :

« أيها الأحمق! لمَ تغسل ذلك الصحن ؟ امسحه ببنطلونك . من يهتم بالزبائن ؟ هم لا يعرفون ما يجري . ما هو عمل المطعم ؟ أنت تقطّعُ دجاجةً لزبون ، الدجاجة تسقط على الأرض . أنت تعتذر ، تنحني ، وتخرج . وتعود بعد خمس دقائق ، عبر باب آخر ـ بالدجاجة نفسها . ها هو ذا عمل المطعم »... الخ .

والعجيب ، أن أوبرج جيان كوتار كان مطعماً ناجحاً ، بالرغم من كل القذارة والخَرَق . في الأيام القليلة الأولى ، كان كل زبائننا من الروس ، أصدقاء المالك ، وجاء بعدهم الأميركيون وأجانب آخرون ـ ليس من فرنسيين . وفي إحدى الليالي حدث اهتياجٌ كبير لأن أول فرنسيّ جاء . للحظةٍ ، نسينا خصوماتنا ، واتحدنا في جهودنا لتقديم عشاء جيد . بوريس انسلّ إلى المطبخ ، وأشار بإبهامه فوق كتفه ، وهمس في جوٍ تآمريّ : « شـ ـ شـ! انتباه! فرنسيّ! » .

بعد دقيقة جاءت زوجة المالك وهمست : « انتباه! فرنسيّ! احرصوا على تقديم حصة مضاعفة من الخضروات له » .

بينما الفرنسي يأكل ، وقفت زوجة المالك خلف شبكة باب المطبخ ، تراقب تعابير وجهه . في الليلة التالية ، عاد الفرنسي مع فرنسيين إثنين . وهذا يعني أن سمعة مطعمنا تتحسن ، إذ أن أوضح علامة على المطعم السيء أن يرتاده الأجانب فقط . وقد يعود سبب نجاح المطعم ، جزئياً ،

إلى أن المالك ، بالتماعة ذكاءٍ ، جهّزه بسكاكين مائدة ، حادّة جداً . والسكاكين الحادة ، بالطبع ، سر المطعم الناجح . وقد ابتهجت لهذا ، إذ أنه أجهزَ على أحد أوهامي ، وهو أن الفرنسيين يعرفون جودة الطعام بمجرد رؤيته . ومن يدري ، فربما كنا مطعماً فائق الجودة بمقاييس باريس ، حيث يعجز المرء عن تصوّر المطاعم الرديئة .

بعد أيام قليلة من كتابتي إلى ب ، ردّ قائلاً إن هناك عملاً لي بمقدوره الحصول عليه . هذا العمل هو العناية بشخص مصاب ببَلَهٍ خَلْقيّ ، مما رأيته علاج راحة بعد أوبرج جيان كوتار . تخيلت نفسي أطوف الدروب الريفية ، وأضرب بعصاي الأشواك ، وآكل حَمَلاً مشوياً ، وكعكة دبس السكّر ، وأنام عشر ساعات ليلاً في أغطية معطرة باللافندر . أرسل لي ب ورقة بخمسة جنيهات لدفع أجرة سفري واستعادة ملابسي من الرهن ، وبمجرد وصول المال ، قدّمت إلى المطعم إشعاراً ليوم واحد ، وتركت . تأثّر المالك لمغادرتي بهذه السرعة ، فهو مفلسٌ كالعادة ، وعليه أن يدفع أجوري ناقصةً ثلاثين فرنكاً . قدّم لي ، على أي حال ، كأس براندي كورفوازييه ٤٨ ، واعتقدَ بهذا أنه سدّد ما عليه . شغّلوا تشيكياً ، غاسل صحون ماهراً ، بدلاً مني ، وطردوا الطاهية العجوز المسكينة بعد أسابيع قليلة . علمت فيما بعد ، أن ساعات غاسل الصحون خُفضت إلى خمس عشرة ساعة ، إذ صار في المطعم شخصان ماهران . هذه الساعات الخمس عشرة لا يمكن لأي أحد تخفيضها ثانيةً ، إلا إذا تمّ تحديث المطبخ .

22

مهما كانت قيمة آرائي في حياة غاسل صحون باريسيّ ، فإني أريد أن أبيّنها . حين يفكر المرء بها ، يجد من الغريب ، أن آلاف الناس في مدينة حديثة عظيمة ، عليهم أن يُمضوا ساعات يقظتهم في غسل الصحون داخل جحورٍ ساخنة . السؤال الذي أقدِّمه هو : لماذا تستمر هذه الحياة ـ ما غايتها ، ومن يريد استمرارها ، ولماذا ؟ أنا لا أتخذُ مجرد الموقف المتمرد الكسول . بل أحاول أن أتفكرَ في الأهمية الاجتماعية لحياة غاسل الصحون . أعتقدُ ، بدءاً ، بالقول إن غاسل الصحون هو أحد عبيد العالم الحديث . لا حاجة إلى التوجع كثيراً عليه ، إذ أن حالته أفضل من عمالٍ يدويين عديدين ، غير أنه يظل بلا حرية أكثر مما لو كان يشترى ويباع . عمله ذليل وبلا فن . والأجور التي يتقاضاها لا تتيح له أكثر من البقاء حياً . عطلته الوحيدة هي الطرد . إنه محروم من الزواج ، فإن تزوّج كان على زوجته أن تعمل أيضاً . وباستثناء ضربة حظ سعيدة ، لا منجاة له من هذه الحياة ، إلا في السجن . في هذه اللحظة ، هناك في باريس أناسٌ ذوو شهادات جامعية يغسلون الصحون مقابل عشرة فرنكات أو خمسة عشر فرنكاً في اليوم . ليس بالمقدور القول إن هذا بسبب كسلهم ، فالعاطل لا يمكن أن يصير غاسل صحون . غير أن الرتابة أطبقت عليهم ، حتى غدا التفكير مستحيلاً . ولو فكر غاسلو الصحون قليلاً لشكّلوا نقابة ، منذ أمد بعيد ، وأضربوا عن

العمل ، مطالبين بمعاملة فضلى . لكنهم لا يفكرون ، لأنهم لا يملكون هذا الترف ، فقد حوّلتهم حياتهم إلى عبيد .

السؤال هو ، لماذا تستمر هذه العبودية ؟ يتفق الناس على أن لكل عمل غايةً سليمة . يرون شخصاً سواهم يؤدي عملاً غير مقبول ، فيظنون أنهم حلوا الإشكال بالقول إن العمل ضروري . استخراج الفحم ، على سبيل المثال ، عملٌ شاقٌ ، لكنه ضروري ـ يجب أن يكون لدينا فحم . العمل في المجاري غير لطيف ، لكن يجب أن يعمل شخص ما في المجاري . والأمر مماثلٌ في عمل غاسل صحون . يجب أن يأكل أناسٌ في المطاعم ، ولهذا يجب على أناسٍ آخرين أن يغسلوا الصحون لثمانين ساعة في الأسبوع . إنه عمل حضارة ، ولهذا لا يخضع للمُساءلة . هذه النقطة ينبغي التفكير فيها .

هل عمل الغاسل ضروري للحضارة ؟

لدينا شعور بأنه يجب أن يكون عملاً «شريفاً» ، لأنه شاقّ ، وكريهٌ ، ولأننا جعلنا من العمل اليدوي نوعاً من الصنم . نشاهد رجلاً يقطع شجرة ، فنقول إنه يسدُّ حاجة اجتماعية ، لمجرد أنه استعمل عضلاته ، ولا يخطر ببالنا أنه قطع شجرة جميلة ، فقط ليهيّء مكاناً لتمثالٍ شنيع . أظن الأمر ينطبق على غاسل الصحون . إنه يكسب خبزه بعرق جبينه ، لكن لا يستتبع ذلك أنه كان يؤدي عملاً نافعاً . ربما كان يُديم ترفاً هو في الغالب ليس ترفاً .

وكمثال على ما أعنيه بالترف الذي هو ليس ترفاً ، آخذُ حالةً متطرفة ، لا يراها المرء في أوروبا : عامل الريكشو الهندي ، وحصان العربة . في كل بلدة بالشرق الأقصى مئاتٌ من عمال الريكشو ، وهم سود تعساء ، يزن واحدهم حوالي خمسين كيلو ، ويلبسون الوزْرات . بعضهم مريض ، وبعضهم في الخمسين من العمر . أميالاً بعد أميالٍ يركضون ، تحت الشمس والمطر ، خافضين رؤوسهم ، يجرّون ، ويجرون ، والعرق يتحدّر من شواربهم الشائبة . وحين يبطئون يحثهم الراكب على السرعة .

إنهم يكسبون ثلاثين أو أربعين روبية في الشهر ، ويقذفون رئاتهم مع سعالهم بعد سنين قلائل . خيول عربات الجاري الهندية ، هزيلة متداعية ، بيعت رخيصةً ، بعد أن لم يتبقّ لديها سوى بضع سنوات من العمل . سائق العربة يعتبر السوط بديلاً من العلف . يعبِّر عملها عن نفسه في نوع من المعادلة ـ السوط زائداً الطعام يساوي الطاقة ، وعلى العموم هناك ستون بالمائة سوط ، وأربعون بالمائة علف . أحياناً تكون رقابها محاطة بتقرُّحٍ كبير ، فتظل طوال اليوم تجري على اللحم العاري . لكن لايزال بالإمكان جعلها تعمل ، على أي حال ، المسألة فقط هي تسويطها بحيث يكون الألم من الخلف أشد من الألم من الأمام . بعد بضع سنوات يفقد حتى السوط فعله ، فيذهب الحصان إلى مشتري الحيوانات الفانية . هذه أمثلة على العمل غير الضروري ، فالواقع أنْ ليس ثمت حاجة حقيقية إلى الجاري أو الريكشو ، وهي موجودة فقط لأن الشرقيين يأنفون السير . إنها ترف ، لكن من ركبها يعرف أنها ترفٌ بائسٌ . إنها تقدم قدراً ضئيلاً من الراحة ، لا يمكن أن يوازي عذاب البشر والحيوان .

الأمر ينطبق على غاسل الصحون . إنه ملكٌ مقارنة بمن يجرّ الريكشو ، وحصان الجاري ، لكن حالته مماثلة . إنه عبد فندق أو مطعم ، وعبوديته لا فائدة منها في كثير أو قليل . فما الحاجة الفعلية إلى الفنادق الضخمة والمطاعم الفاخرة ؟ المفترض فيها أن تقدم ترفاً ، لكنها في الواقع تقدم محاكاة رخيصة للترف . يكاد الجميع يكرهون الفنادق . ثمت فنادق أفضل من سواها ، لكن من المستحيل الحصول على وجبة جيدة في مطعم ، بالسعر نفسه ، أفضل مما يجدها في منزل خاص . لا شك في أنه يجب وجود المطاعم ، لكن لا حاجة إلى أن تستعبد مئات الناس . عمل الفنادق ليس في الأمور الجوهرية ، وإنما في الأمور المزيفة المفترض فيها أن تقدم ترفاً ، والأناقة ، كما تسمّى ، تعني أن يعمل المستخدمون أكثر ، ويدفع الزبائن أكثر ، ولا أحد يستفيد إلا المالك ، الذي سيشتري لنفسه دارةً في دوفيل . الفندق «الأنيق» هو ، أساساً ، مكان

يكدح فيه مائة إنسان كالشياطين ، حتى يدفع مائتا شخصٍ مبالغ كبيرة لأشياء لا يريدونها حقاً . لو انتهت السخافة من الفنادق والمطاعم ، وجرى العمل بكفاءة بسيطة ، فإن غاسلي الصحون سوف يعملون بين ست ساعات وثماني ساعات في اليوم ، بدلاً من عشر أو خمس عشرة .

لنفترض حصول اتفاق على أن عمل غاسل الصحون غير ذي فائدة ، في قليل أو كثير . آنذاك يأتي السؤال : لمَ يراد منه أن يظل يعمل ؟ أحاول أن أذهب إلى ماوراء القضية الاقتصادية المباشرة ، وأفكر... تُرى أي سرور يناله شخص ما حين يفكر بأناسٍ يظلون يغسلون الصحون طوال الحياة ؟ فلا شك في أن نفراً ـ من المرتاحين جداً ـ يجدون سروراً في مثل هذه الأفكار . قال ماركوس كاتو ، على العبد أن يعمل إن لم يكن نائماً . لا يهم إن كان عمله يسد حاجةً أم لا . المهم أن يعمل ، لأن العمل ذاته جيد ـ للعبيد في الأقل . هذا الشعور لايزال حياً ، وقد راكمَ جبالاً من الكدح غير المفيد .

أعتقد أن غريزة تخليد عمل غير نافع ، تعني ، في العمق ، الخوف من العامة . فالعامة (هكذا تمضي الفكرة) هم حيوانات وضيعة إلى حد أنهم يكونون خطرين لو أتيح لهم وقت الفراغ ، والأكثر مدعاةً للأمان أن يظلوا منشغلين إلى حدٍ يمنعهم من التفكير . والغني ، الذي قد يكون صادق الثقافة ، لو سئل عن تحسين العمل ، فسوف يقول عادةً ، كالآتي :

«نحن نعرف أن البؤس غير مفرح . والواقع أن البؤس مادام بعيداً عنا ، فإننا نتسلح بفكرة أنه غير مفرح . لكنْ لا تتوقع منا أن نفعل أي شيء بصدده . نحن آسفون لطبقاتكم الدنيا ، مثل ما نحن آسفون لقطةٍ جرباء ، غير أننا سنقاتل كالمردة ضد أي تحسين لظرفكم . نحن نشعر أنكم مأمونون أكثر وأنتم في حالكم هذا . إن الواقع الراهن يناسبنا ، ولسنا مستعدين لمخاطرة تحريركم ، حتى بساعة إضافية في اليوم . هكذا ، يا إخوتي الأعزاء ، إن كان عليكم أن تعرقوا لدفع رحلاتنا إلى إيطاليا ، فلتعرقوا ، ولتحلَّ عليكم اللعنة» .

هذا ، بخاصة ، هو موقف الناس الأذكياء المهذبين ، وبالإمكان قراءة جوهر الموقف في مائة مقال . قليلٌ جداً من الناس المثقفين يكسبون أقل من أربعمائة باوند مثلاً في العام ، ومن الطبيعي أنهم يقفون في صف الأغنياء ، لأنهم يتصورون أن أي حرية يُتنازل عنها للفقراء هي تهديدٌ لحريتهم . ولأن الرجل المثقف يرى اليوتوبيا الماركسية البغيضة بديلاً من هذا ، فهو يفضل الإبقاء على الأمور كما هي . قد لا يودّ كثيراً أصحابه الأغنياء ، لكنه يفترض أن أشد أصحابه ابتذالاً هو أقل عداءً لمسرّاته ، وللناس الذين هم على شاكلته ، من الفقير ، وأن الخير في أن يقف بجانبهم . هذا الخوف المفترض من العامّة الخطرين هو الذي يجعل معظم المثقفينَ قوماً محافظين في آرائهم .

الخوف من العامّة ، خوفٌ خرافيّ . مستند إلى فكرة وجود فرقٍ غامض أساسيّ بين الأغنياء والفقراء ، كأنهما من رِسَّينِ مختلفين ، كالسود والبيض . وفي الحقيقة لا يوجد مثل هذا الفرق . إن جمهرة الأغنياء والفقراء يتمايزون بدخولهم وليس بأي شيء آخر ، والمليونير العادي هو غاسل الصحون العادي مرتدياً بدلة جديدة . بَدّلْ المواقع ، واقلب الأشياء : مَن القاضي ؟ من اللص ؟ كل من اختلط مع الفقراء على قدم المساواة يعرف هذا جيداً . لكن المشكلة أن الناس المثقفين المهذبين أنفسهم ، المتوقع منهم أن يحملوا آراء ليبرالية ، لا يختلطون بالفقراء . ماذا يعرف غالب المثقفين عن الفقر ؟ في نسختي من قصائد فيّون* ، وجد الناشر ضرورة أن يشرح البيت : « لا نرى الخبز إلا مثقوباً » في هامشٍ ، بحيث بدا حتى الجوع جدّ غريب على تجربة المثقف . من هذا الجهل ينبع الخوف الخرافي من العامّة ، بصورة طبيعية تماماً . يتصور المثقف قطيعاً من أشباه البشر ، ينتظرون يوم حريةٍ فقط ، كي ينهبوا بيته ، ويحرقوا كتبه ، ويجعلوه يشتغل في إصلاح ماكنة ، أو تنظيف مراحيض . ويفكر : «ليأتِ أي شيء ، ليأت الظلم ، فلا

* فرانسوا فيّون (١٤٣١ ـ ١٤٦٣) شاعر فرنسي صعلوك . (المترجم)

ينطلق العامة» . وهو لا يرى ، مادام الفرق غير قائم بين جمهرة الفقراء والأغنياء ، أن لا موضع لإطلاق العامّة . إن العامة هم مُطْلقون الآن ، فعلاً ، وهم ـ في صورة الأغنياء ـ يستعملون سلطتهم لإقامة آلات الضجر ، مثل الفنادق «الأنيقة» . باختصار أقول إن غاسل الصحون عبدٌ ، عبدٌ مُضاعٌ ، يؤدي عملاً غبياً ليست له ضرورة تقريباً ، وهو محتجز في العمل ، إلى ما لا نهاية ، بسبب شعور غامض حول أنه سيكون خطراً لو أُطلق سراحه . والمثقفون الذين يجب أن يقفوا إلى جانبه ، مذعنون ، ذلك لأنهم لا يعرفون عنه شيئاً ، وبالنتيجة يخشونه . أقول هذا عن غاسل الصحون لأني كنت أدرس حالته هو ، التي تنطبق تماماً على المئات من الأعمال ، وأنماط العمال . هذه هي آرائي في الحقائق الأساسية لحياة غاسل الصحون ، قدّمتُها بدون رجوع إلى القضايا الاقتصادية المباشرة ، وربما كانت آراء عادية . إنني أقدمها ، نماذج للأفكار التي تخطر ببال المرء حين يعمل في فندق .

23

ما أن تركت أوبرج جيان كوتار حتى دخلت في الفراش ، ونمت على مدار الساعة ، إلا ساعة واحدة . ونظفتُ أسناني لأول مرة خلال أسبوعين ، استحممت ، وذهبت لأحلق شعري ، واستردَدت ملابسي من الرهن . وتسكعت يومين مجيدين . بل ذهبت في أبهى حللي إلى الأوبرج ، وجلست عند البار ، وصرفت خمسة فرنكات على زجاجة من البيرة الإنجليزية . ينتابك إحساسٌ غريب ، أن تكون زبوناً ، حيث كنتَ عبداً لعبدٍ .

كان بوريس آسفاً لأني تركت الفندق وقتَ انطلاقتنا ، وفرصة أن نكون ذوي مال . وصلتني أخباره ، وهو يقول إنه يكسب مائة فرنك في اليوم ، ويصاحب فتاة ، جادّة تماماً ، ولا تنبعث من فمها رائحة الثوم .

أمضيت اليوم أتجول في حيّنا ، وأودِّع الجميع . ذلك اليوم أخبرني شارلي بموت روكول البائس ، الذي كان يعيش في الحيّ . على الأكثر ، كان شارلي يكذب كعادته ، غير أن قصته كانت جيدة .

مات روكول ، في سن الرابعة والسبعين ، قبل حلولي في باريس بعامٍ أو عامين ، لكنّ أهل الحيّ كانوا لايزالون يتحدثون عنه وأنا هناك . لم يكن في مصافّ دانييل دانسيه أو من على شاكلته ، لكنه كان شخصية مثيرة للاهتمام . كان يذهب كل صباح إلى سوق الهال ليلتقط الخضروات الفاسدة ، ويأكل لحم القطط ، ويلبس ورق الصحف بدلاً من الملابس

الداخلية ، ويستعمل خشب تغليف حجرته وقوداً ، ويصنع لنفسه نعلين من الخيش - هذا كله مع نصف مليون فرنك مستثمرة . وددتُ كثيراً لو كنت عرفته .

ومثل بؤساء عديدين ، وضع روكول ماله في صفقة متهوِّرة . في أحد الأيام جاء إلى الحي يهوديّ ، شابٌ ، يقظ ، في ذهنه خطة من الدرجة الأولى تقضي بتهريب الكوكايين إلى إنجلترا . من السهل ، طبعاً ، شراء الكوكايين في باريس ، والتهريب بحد ذاته سيكون جدَّ سهل ، فقط ثمت دائماً جاسوسٌ ما ، سوف يشي بالخطة إلى الجمارك أو الشرطة . ويقال إن هذا يقوم به أولئك الناس أنفسهم الذين يبيعون الكوكايين ، لأن تجارة التهريب هي في أيدي شبكة واسعة لا تريد منافسةً من أحد . لكن اليهودي أقسمَ أنْ لا خطر ، وأنه يعرف طريقة للحصول على الكوكايين مباشرة من فيينا ، وليس عبر القنوات المعتادة ، وأنه لن تدفع أموالٌ لمبتزّين . اتصلَ بروكول عن طريق شابٍّ بولندي ، طالبٍ في السوربون ، كان سيضع في المشروع أربعة آلاف فرنك إذا وضع روكول ستة آلاف . هكذا يستطيعون شراء عشرة أرطال من الكوكايين الذي سيساوي ثروةً صغيرة في إنجلترا .

جاهد اليهودي والبولندي جهاداً مريراً للحصول على المال من بين مخالب روكول العجوز . ستة آلاف فرنك ليست كثيرة - لديه أكثر من ذلك ، مخيطاً في الحشيّة بحجرته - لكنه كان يعاني مُرَّ العذاب لو فارقَ فلسٌ كفَّه . ظل البولندي واليهودي أسابيع معه ، يشرحان ، ويلحّان ، ويدّعيان ، ويجادلان ، ويركعان أمامه على رُكبهم ، يتوسلانه إخراج مالِه . كان الرجل العجوز نصف مجنون ، بين الطمع والخوف . إنه ليتوق توقاً شديداً إلى المال ، ويلين لفكرة أنه قد يربح خمسين ألف فرنك ، لكنه في الوقت نفسه لا يريد أن يخاطر بماله . صار يجلس في زاوية ورأسه بين كفّيه ، يئنّ ، ويصيح أحياناً ، من فرط العذاب ، وغالباً ما كان يركع (كان ورِعاً) ويصلي طالباً القوّة . إلا أنه لايزال غير قادرٍ . وأخيراً ، بسبب الإرهاق ، وليس

بسبب آخر ، رضخ فجأةً ، وفتح حشيّته ، حيث المال مخبّأ ، وسلّم اليهودي حوالي ستة آلاف فرنك .

اليهوديّ سلّم الكوكايين في اليوم نفسه ، واختفى فجأةً . وفي الوقت نفسه ، وبدون استغراب ، ونظراً للضجة التي أثارها روكول ، عرف الحيُّ كله بالخبر . وفي الصباح التالي أغارت الشرطة على النُزل وفتشته .

روكول والبولندي في محنة شديدة . كانت الشرطة في أسفل النزل ، يتابعون طريقهم ، وهم يفتشون المكان غرفةً غرفة . في الغرفة كانت علبة كوكايين كبيرة على الطاولة ، ولا سبيل لإخفائها ، ولا فرصة للنجاة عبر نزول السلّم . البولندي يؤيد إلقاء الكوكايين من النافذة ، لكن روكول لم يوافق البتة . أخبرني شارلي أنه كان حاضراً في المشهد . قال إنهم حين حاولوا أخذ العلبة شدّها روكول إلى صدره وظل يصارع مثل مجنون ، مع أنه في الرابعة والسبعين . كان متوحشاً من الخوف ، إلا أنه كان يفضل السجن على ضياع ماله .

أخيراً ، حين كان رجال الشرطة يفتشون الطابق الأدنى مباشرة ، خطرت لبعضهم فكرة . كان في طابق روكول رجل عنده اثنتا عشرة علبة من مسحوق الوجه ، يبيعها لقاء نسبة ، وقد اقترح وضع الكوكايين في العلب ، باعتباره مسحوق وجه . وسرعان ما أُلقي بالمسحوق من النافذة ، ووضع الكوكايين موضعه ، وعُرضت العلب بصورة مكشوفة على طاولة روكول ، كأن لا شيء يستحق الإخفاء . بعد بضع دقائق جاء رجال الشرطة ليفتشوا غرفة روكول . دقّوا على الجدران ، ونظروا في المدخنة ، وأخرجوا الأدراج ، وفحصوا ألواح الأرضية ، وقبل أن يغادروا ، خائبين ، لاحظ المفتش العلب على الطاولة . قال : «هاكُم ، أنظروا في هذه العلب . أنا لم أرها من قبل . ماذا فيها ؟» .

قال البولندي هادئاً قدر استطاعته : «مسحوق وجه» . لكن روكول ، في اللحظة ذاتها ، أطلق أنّةً عالية ، من شدة ذعره ، فشكّ الشرطة في الأمر فوراً . فتحوا إحدى العلب ، وأفرغوا محتوياتها ، وبعد أن شمّوها قال

المفتش إنه يشك في أنها تحتوى كوكايين . أخذ روكول والبولندي يقسمان بالقدّيسين على أنه مسحوق وجه ، لكن لا فائدة ، فبقدر احتجاجهما كان الشرطة يزدادون شكّاً . قُبض على الإثنين ، واقتيدا إلى مركز الشرطة ، متبوعين بنصف سكان الحيّ .

في مركز الشرطة ، استجوب المفوضُ روكول والبولندي ، بينما أُرسلت إحدى العلب للتحليل . قال شارلي إن المشهد الذي فعله روكول لا يمكن أن يوصف ، إذ بكى ، وتوسل ، وأدلى بإفادات متناقضة ، واعترف على البولندي فوراً ، كل هذا بصوت عالٍ يمكن سماعه على مبعدة شارع . وكان رجال الشرطة ينفجرون ضحكاً عليه .

بعد ساعة عاد الشرطي بعلبة الكوكايين ، وبتقرير من المختبر . كان يضحك .

قال : «هذا ليس كوكايين ، يا سيدي» .

قال المفوض : «ماذا ؟ ليس كوكايين ؟ إذاً ، ماذا فيها ؟» .

«مسحوق وجه» .

أُطلق سراح روكول والبولندي ، في الحال ، بريئين تماماً ، لكنهما غاضبان جداً . لقد خدعهما اليهودي . فيما بعد ، عندما انتهى الهياج ، تبيّن أنه لعب اللعبة ذاتها على اثنين من سكان الحي .

كان البولندي جدّ مسرور لنجاته ، بالرغم من خسارته أربعة آلاف فرنك . أما روكول المسكين فقد انهار فجأةً ، ولازم فراشه ، وظل الناس يسمعونه طوال ذلك اليوم ، وحتى منتصف الليل ، يشتم ويدمدم ، ويصرخ أحياناً بأعلى صوته :

«ستة آلاف فرنك! باسم يسوع المسيح! ستة آلاف فرنك!» .

بعد ثلاثة أيام ، أصابته سكتةٌ ما ، ومات بعد أسبوعين ، كسير القلب ، كما قال شارلي .

24

سافرت إلى إنجلترا بالدرجة الثالثة ، عبر دنكرك وتيلبري ، وهي أرخص ، وليست أسوأ طريق لعبور القنال . عليك أن تدفع أكثر لمقصورة ، ولهذا نمت في الصالون ، مع معظم مسافري الدرجة الثالثة . وقد وجدت في يومياتي ما كتبته ذلك اليوم :

«النوم في الصالون ، سبعة عشر رجلاً ، وست عشرة امرأة . ومن النساء لم تغسل امرأة واحدة وجهها هذا الصباح . أغلب الرجال ذهبوا إلى الحمّام ، أما النساء فاكتفين بإخراج علب التجميل ، وغطّينَ الأوساخ بالمسحوق . سؤال ـ فرقٌ جنسيّ ثانوي ؟

في الرحلة ، تعرّفت على زوجين رومانيين ، يكادان يكونان طفلين . كانا ذاهبين إلى إنجلترا في شهر العسل . سألا أسئلة لا تحصى عن إنجلترا ، وأجبتهما بعدد من الأكاذيب الصارخة . كنت سعيداً بالعودة إلى الوطن بعد شهورٍ قاسية في مدينة أجنبية ، حتى بدت لي إنجلترا كالفردوس . أمورٌ عدة في إنجلترا تجعلك فرحاً بالعودة إلى الوطن . غرف الحمّام . الكراسي ذات المساند ، صلصة النعناع ، البطاطا الصغيرة المهيّأة جيداً ، الخبز الأسمر ، المربّى ، البيرة ذات حشيشة الدينار الحقيقية ـ كلها ممتاز ، إن استطعتَ الدفع . إنجلترا بلادٌ جيدة تماماً ، إن لم تكن فقيراً ؛ وبالطبع لن أكون فقيراً مع معوّقٍ خَلقيّ أرعاه . فكرة ألا أكون فقيراً ملأتني بالروح الوطنية . وكلما

سألني الرومانيون ، مدحتُ إنجلترا أكثر ، الطقس ، المناظر الطبيعية ، الفن ، الأدب ، القوانين ـ كل شيء في إنجلترا كان كاملاً . سألني الرومانيان : «هل فن العمارة في إنجلترا جيد ؟» . أجبتهما : «ممتاز! وعليكما فقط أن تشاهدا تماثيل لندن! باريس مبتذلة . نصفها فخامة ، ونصفها أحياء فقيرة ، لكن لندن...» .

أخيراً صارت السفينة بمحاذاة رصيف تيلبري . أولى بنايات الساحل التي شاهدناها كانت أحد تلك الفنادق الضخمة . كله أبراج وزخارف جصية تبدو من الساحل الإنجليزي مثل بلهاء ينظرون من جدار مستشفى مجاذيب . رأيت الرومانيين ينظران صوب الفندق ، أكثر تهذيباً من أن يقولا شيئاً . أكدتُ لهما : «بناه معماريون فرنسيون» ، وحتى فيما بعد حين كان القطار يزحف في الأحياء الشرقية الفقيرة للندن ، ظللت أتحدث عن جماليات المعمار الإنجليزي . وبدا لي أنه ليس من أشياء كثيرة حسنة تُقال عن إنجلترا ، وبخاصة ، بالنسبة لي ، أنا العائد إلى وطني ، بلا مشقّة سوف أعانيها .

ذهبت إلى مكتب ب ، وقد حطّمت كلماته الأولى كل شيء نثاراً . قال : «أنا آسف . مستخدموك سافروا خارج البلد ، المريض والجميع . إلا أنهم سوف يعودون بعد شهر . أعتقد أن بمقدورك تدبير أمرك حتى ذلك الوقت ؟» .

كنت خارج المكتب ، في الشارع ، حتى قبل أن يخطر لي الاقتراض منه . عليّ الانتظار شهراً ، وليس لديّ سوى تسعة عشر شلناً وستة بنسات . لقد كتمت الأنباء أنفاسي . لفترة طويلة لم أستطع أن أفكر في ما سوف أفعله . تسكعت ، النهار ، في الشوارع . وحين حلّ الليل ، وأنا لا أملك فكرة عن الحصول على مبيت رخيص في لندن ، ذهبت إلى نُزل «عائلي» ، حيث الأجرة سبعة شلنات وبنسان . بعد دفع القائمة بقي لديّ عشرة شلنات وبنسان .

في الصباح أعددتُ خططي . عليَّ الذهاب عاجلاً أم آجلاً إلى ب ، للمزيد من النقود ، لكني رأيت من غير اللائق أن أذهب إليه في هذا الوقت ، وفي الوقت نفسه يجب أن أدسَّ نفسي في جحر ما ، وأن أتدبّر شؤوني . تجربتي السابقة جعلتني أرفض رهن بدلتي الجيدة . سوف أترك كل أشيائي في غرفة الأمانات بالمحطة ، ما عدا بدلتي الثانية الجيدة التي سوف أستبدل بها ملابس رخيصةً ، وربما باوناً .

إن كنت أريد العيش بثلاثين شلناً في الشهر ، فينبغي أن ألبس ملابس رديئة ـ حقاً ، الأردأ هو الأفضل . ليست لديّ فكرة عما إذا كانت الشلنات الثلاثون تكفي شهراً ، فأنا لا أعرف لندن قدر معرفتي باريس . ربما أستطيع التسوّل ، أو بيع خيوط الأحذية ، وتذكرت مقالات قرأتها في صحف الأحد عن شحّاذين يمتلكون ألفَي باون ، مخيطةً في بنطلوناتهم . على أي حال ، من المستحيل إلى حدٍ بعيد ، أن يجوع المرء في لندن ، لذا فلا مَدعاة للقلق .

لبيع ملابسي ، ذهبت إلى لامبث ، حيث الناس فقراء ، وحيث دكاكين الألبسة القديمة كثيرة . في أول دكان ، كان المالك مؤدباً لكنه لا يمدّ يد العون . في الثاني كان المالك فظّاً . الثالث كان صاحبه أصمّ كالحجر ، أو أنه تظاهر كذلك . أما الدكان الرابع فكان صاحبه شاباً أشقر ، أحمر ، مثل شريحة من لحم الخنزير . نظر إلى الملابس التي أرتديها وتحسسها بين إبهامه وإصبعه .

قال : «قماش رديء . رديء جداً ، (كانت بدلةً جيدة) كم تطلب ؟» .

بيّنت له أنني أريد ملابس قديمة ، وقدر ما يمكن أن يعطيني من مال . فكّر لحظة ، ثم جمع بضع خرقٍ ، ورماها إليّ ، على النُضد . قلتُ آملاً في باون : «والمال ؟» . زمّ شفتيه ، ثم أخرج شلناً ووضعه إلى جانب الخرق . لم أجادل ـ كنت أريد ذلك ، لكن ما أن فتحت فمي حتى مدّ يده كمن يريد أن يستعيد الشلن . وجدتُ أني بلا حَول . سمح لي بتغيير ثيابي في حجرة صغيرة خلف الدكان .

كانت الملابس سترةً (بُنّية غامقة يوماً ما) وبنطلوناً قطنياً ، ولفحة ، وقلنسوة قماش . وكنت احتفظت بقميصي وجواربي وجزمتي ، وفي جيبي مشط وموسى . شعرت شعوراً غريباً وأنا في تلك الثياب . لقد ارتديت ملابس رديئة من قبلُ ، لكني لم أرتد مثل هذه البتة . فهي لم تكن قذرة وبلا شكل فقط ، بل كانت ـ كيف لي أن أعبّر ؟ ـ مخجلةً ، وقذارةً عتيقة ، مختلفة تماماً عن الرثاثة . كانت من نوع الملابس التي ترى بائع خيوط الأحذية يرتديها ، أو المتشرد . بعد ساعة ، رأيت في لامبث شخصاً هو متشرّدٌ واضحٌ ، يتجه إليّ ، وعندما نظرتُ ثانيةً وجدته أنا نفسي في واجهة مخزن منعكساً . كان الوسخ يغطي وجهي بالفعل . الوسخ يحترم الأشخاص احتراماً عظيماً ، إنه لا يقترب منك حين ترتدي ثياباً جيدة ، لكن ما أن تذهب لياقتك حتى يندفع إليك من مختلف الجهات .

بقيت في الشوارع حتى ساعة متأخرة من الليل ، حريصاً على الحركة باستمرار . إذ مع الملابس التي أرتديها ، كنت شبه خائف من أن الشرطة قد يظنونني متشرداً فيقبضون عليّ ، ولم أجرؤ على التحدث مع أحد متصوراً أنهم قد يلحظون الفرق بين لهجتي وملبسي . (أدركت فيما بعد أن هذا لم يحدث) . لقد وضعتني ملابسي الجديدة ، فوراً ، في عالم جديد . وتصرُّف الناس تبدّل فجأةً . ساعدتُ بائعاً متجولاً في جمع محتويات عربته التي انقلبت ، فقال مبتسماً : «شكراً يا صاحبي» . لم يدعني أحدٌ ، «صاحبي» طوال حياتي ـ كان ذلك فعل الملابس . وللمرة الأولى لاحظت ، أيضاً ، كيف يختلف موقف النساء من الملابس . حين يمرّ بهنّ شخص سيئ الهندام يرتجفن منه في حركة احتقار صريحة ، كأنه قطة ميتة . الملابس أشياء قوية . آن تلبس لبوس المتشرد ، يغدو صعباً عليك ، في اليوم الأول ، ألا تشعر بأنك في منزلة أدنى . ربما شعرت بالعار نفسه ، شعوراً لاعقلانياً لكنه حقيقي ، كما لو أنك في ليلتك الأولى بالسجن .

في حوالي الحادية عشرة بدأت أبحث عن منام . كنت قرأت عن بيوت

المنام المؤقت (وبالمناسبة هي لا تدعى كذلك) ، وظننت أن بإمكان المرء الحصول على فراش بأربعة بنسات . رأيت رجلاً ، عاملاً يدوياً ، أو على شاكلته ، يقف في المنعطف بشارع واترلو . توقفت وسألته . قلت إني مفلسٌ تماماً ، وأريد أرخص فراش يمكن الحصول عليه .

قال : «أوه . إذهب إلى ذلك المنزل عبر الشارع ، الذي يحمل لافتة (أفرشة جيدة للعزّاب) ، فهو مكان جيد للنوم . كنت هناك بين وقت وآخر . ستجده رخيصاً ونظيفاً» .

كان منزلاً عالياً متداعياً ، مع أضواء خافتة في كل النوافذ التي رُقِّع بعضها بورق بُنّي . دخلت عبر ممر حجري ، فظهر من باب مؤدٍ إلى القبو صبيٌّ عليلٌ ذو عينين مثقلتين بالنعاس . سمعت غمغماتٍ من القبو ، وأحسست بموجة من الهواء الساخن والجبن . تثاءب الصبي ومدّ يده . «تريد فراشاً ؟ سيكون ثمنه كذا...» .

دفعت شلناً ، فصعدت مع الصبي سلّماً مهتزاً معتماً ، إلى غرفة نوم . شممت راحة أفيونٍ مسكّن وشراشف عطنة ، ويبدو أن النوافذ مغلقة بإحكام ، والهواء خانق للوهلة الأولى . ثمت شمعة متقدة ، ورأيت أن مساحة الغرفة خمسة عشر قدماً مربعاً ، وارتفاعها ثمانية أقدام ، وفيها ثمانية أسرّة . هناك ستةٌ نائمون ، منذ الآن . إنهم مكوَّمون بأشكال غريبة مع ملابسهم ، وحتى جزماتهم قائمةٌ فوقهم . أحدهم كان يسعل سعالاً رهيباً في إحدى الزوايا .

حين دخلت الفراش وجدته قاسياً مثل لوح ، أما الوسادة فليست سوى إسطوانة قاسية مثل قطعة خشب . كان الأمر أسوأ من النوم على طاولة ، لأن الفراش لم يكن ستة أقدام طولاً ، كما أنه ضيق جداً . والحشيّة كانت حدباء بحيث يتعيّن على المرء الإمساك بها لئلا يسقط . والشراشف تنفث رائحة عرق شنيعة ، لم أحتملها ، فلجأت إلى إبعاد الشراشف عن أنفي . أما الأفرشة فتتألف من الشراشف ومن لحاف قطن فقط . هذا اللحاف لم يكن

مدفئاً ، وإن كان ممتلئاً . ارتفعت في الليل ضجّاتٌ عدة . الشخص الذي ينام إلى يساري ، وأظنه بحّاراً ، كان يستيقظ مرة كل ساعة ، ليشتم شتائم قبيحة ، ويشعل سجارة . شخص آخر ، مصاب بمرض في المثانة ، استيقظ اثنتي عشرة مرة ليستعمل مبولة الغرفة صاخباً . والشخص الذي في الزاوية كان يصاب بنوبة سعال كل عشرين دقيقة ، وبصورة منتظمة ، حتى أن المرء لينصت إليه ، كما ينصت إلى النبحة الثانية لكلبٍ ينبح القمرَ . كان صوتاً مقززاً ، قعقعة شنيعة ، ومحاولة للتقيؤ كأنّ أحشاء الرجل ستخرج . وعندما أشعل عود ثقّاب ، مرةً ، رأيته رجلاً طاعناً في السن ، ذا وجه غائرٍ مُرْبَدّ مثل وجه جثة ، وكان يعتمر بنطلونه ملفوفاً على رأسه مثل قلنسوة ليلية ، وهو أمرٌ امتعضت منه لسبب ما . وكلما سعل هذا ، أو شتم ذاك ، ارتفع صوتٌ نعسان من الناحية الأخرى : «أسكتوا! أوه ، بحق المسيح ، اسكتوا!» .

بالمجموع ، حصلت على ساعة نوم . في الصباح استيقظت على انطباع أن شيئاً بُنّياً عريضاً يتّجه إليّ ، فتحت عيني ، فرأيت إحدى قدمي البحّار خارجةً من الفراش ، قرب وجهي . كانت بنّية غامقة ، بنية غامقة جداً ، مثل قدم هنديّ ، مع أوساخها . الجدران كانت مجذومة ، والأفرشة التي مضت على غسلها ثلاثة أسابيع ذات لون كالعنبر الطازج . قمت ، وارتديت ملابسي ، ونزلت السلّم . كان في القبو عدد من الأحواض ولَفّتان من المناشف الدوّارة . لديّ في جيبي قطعة صابون ، وكنت أعتزم الاستحمام ، حين رأيت كل حوض مغطى بطبقة سوداء ، متصلبة ، من الأوساخ . خرجت بدون أن أغتسل . على أي حال ، يمكن القول إن المنزل لم ينطبق عليه وصف «رخيص ونظيف» ، لكنه كما وجدت لاحقاً ، يمثل تمثيلاً صادقاً ، سواه .

عبرتُ النهر ، ومشيت طويلاً ، شرقاً ، لأصل إلى مقهى في تاور هيل . إنه مقهى لندنيّ عادي ، مثل آلاف المقاهي الأخرى . وبدا لي غريباً وأجنبياً

بعد مقاهي باريس . كان غرفة صغيرة مزدحمة ذات مقاعد عالية الظّهر كانت سائدة في الأربعينيات* ، أما وجبة اليوم فكانت مكتوبة على مرآة بقطعة صابون ، وفتاة في الرابعة عشرة تقدم الصحون .

كان العمال يأكلون من لفّات ورق جرائد ، ويشربون الشاي بأقداح بلا صحون مثل الكؤوس الصينية . وفي إحدى الزوايا جلس يهوديّ ، وحيداً ، وخِطْمُه في صحن ، يأكل البيكون** .

سألتُ الفتاة : «هل بإمكاني أن آخذ شاياً وخبزاً وزبدةً ؟» .

نظرت إليّ ، وقالت مستغربة : «لا زبدة . المرغرين فقط» . وكرّرتْ الطلب ، بالجملة التي تعني في لندن ما تعنيه في باريس جملة «كأس أحمر» : «شاي كبير ، وشريحتان!» .

على الجدار ، إلى جانب مقعدي ، إعلان يقول : «أخذُ السكّر ممنوع» . وتحت الإعلان كتب زبونٌ ذو ميولٍ شعرية :

كلُّ من يأخذُ منّا سكّرا
سوف يُدعى قذرا (. . .)

ويبدو أن أحدهم تعب كثيراً في محو الكلمة الأخيرة .

ها هي ذي إنجلترا . الشاي والشريحتان كلفتني ثلاثة بنسات ونصفاً ، وبقي لديّ شلنان وبنسان .

---

* أربعينيات القرن التاسع عشر . (المترجم)

** نوع من لحم الخنزير . (المترجم)

25

استمرت الشلنات الثمانية معي ، لمدة ثلاثة أيام وأربع ليال . بعد تجربتي السيئة في شارع واترلو* ، اتجهت شرقاً ، وبتُّ الليلة التالية في منزل بـ« بنيفيلدز » . وهو منزل أنموذجي ، كالعشرات من أمثاله في لندن . إنه مهيّأ لاستقبال ما بين خمسين رجلاً إلى مائة ، ويديره « نائب » ـ نائبٌ للمالك ، فهذه المنازل مشاريع مربحة يملكها أغنياء . خمسة عشر أو عشرون منّا ينامون في مهجع . الفُرُش باردة قاسية أيضاً ، لكن الشراشف لم يمض على غسلها أكثر من أسبوع ، وهذا يُعَدّ تحسُّناً . والأجر تسعة بنسات أو شلن (في مهجع الشلن تكون المسافة بين سرير وآخر ستة أقدام بدلاً من أربعة) ، وعليك أن تدفع الأجر في السابعة مساءً ، وإلا خرجت .

في الطابق الأسفل مطبخ مشترك لجميع الساكنين ، مع نارٍ بالمجّان ، وعدد من قدور الطبخ ، وأواني الشاي ، وشوكات التحميص . ثمت موقدان بالفحم الحجري يظلان مشتعلين ليل نهار ، طوال العام . أما إدامة النيران ، وكنس المطبخ ، وتهيئة الفُرُش فيقوم بها الساكنون بالتناوب . أحد كبار الساكنين ، وهو مُحَمِّل سفن ، نورماندي الملامح ، لطيف ، اسمه ستيف ، كان يلقَّب « رأس المنزل » ، يتوسط في المنازعات وشؤون الأكل غير المدفوع .

* حقيقة غريبة ، وإن كانت معروفة ، أن البقّ في شرقي لندن أكثر منه في شماليِّها . وهو لم يعبر النهر بأعداد كبيرة ، لسبب ما .

أحببتُ المطبخ . إنه قبو ، خفيض السقف ، تحت الأرض ، ساخنٌ جداً ، ويدعو إلى النعاس بسبب أدخنة فحم الكوك ، ومضاءٌ بالنيران فقط التي ترسم ظلالاً مخملية سوداء في الزوايا . أسمالٌ مغسولة تتدلى من حبالٍ بالسقف . رجالٌ أضاءتهم النيران بالحمرة ، محمَّلو سفنٍ في الغالب ، يتحركون بين النيران ، والقدور بين أيديهم . بعضهم كانوا عراةً بالكامل ، إذ كانوا يغسلون ملابسهم ، وهم الآن ينتظرون أن تجفَّ . في الليل ألعاب القُرعة ، والأغنية المفضلة هي «أنا الفتى ، الذي صنعه ، خطأً ، والداه» ، وكذلك أغنية أخرى عن تحطم سفينةٍ . أحياناً ، في ساعة متأخرة من الليل ، يأتي رجالٌ بسطلٍ من الحلازين البحرية اشتروها رخيصةً ، ويتقاسمونها . كانت هناك مشاركة عامة في الطعام ، وكان إطعام العاطلين أمراً متفقاً عليه . وكان في المنزل شخصٌ ضئيل ، شاحب ، حكيمٌ ، يُحتَضَر كما هو واضح ، اسمه «براون المسكين» ، وقد ظل تحت علاج الطبيب ، وأجريت له عمليات جراحية ثلاث مرات ، هذا الشخص يطعمه الآخرون بصورة منتظمة .

اثنان من الساكنين أو ثلاثة ، كانوا متقاعدين كبار السنّ . حتى ملاقاتهم لم أكن أعرف البتة أن في إنجلترا أناساً يعيشون على تقاعدٍ مبلغه عشرة شلنات في الأسبوع . ليس لأي من هؤلاء الرجال موردٌ آخر من أي نوع . أحدهم كان يحبّ الكلام ، وقد سألته كيف يدبِّر عيشه . قال :

«حسناً . هناك تسعة بنسات كل ليلة للمبيت ـ أي ثلاثة شلنات وثلاثة بنسات في الأسبوع . ثم هناك ثلاثة بنسات يوم السبت للحلاقة ـ المجموع خمسة شلنات وستة بنسات ـ ثم قل إنك تحلق شعر رأسك مرة في الشهر بستة بنسات ـ وهذه ثلاثة شلنات وبنس أخرى في الأسبوع ، هكذا يكون عندك حوالي أربعة شلنات وأربعة بنسات للأكل وسواه» .

ليس بمقدوره أن يتخيل مصروفات أخرى . طعامه الخبز والمرغرين والشاي ـ وفي أواخر الأسبوع الخبز اليابس والشاي بلا حليب ـ وربما جاءت ملابسه من جمعية خيرية . يبدو راضياً ، مهتماً بفراشه وناره أكثر من

الطعام . لكن أن ينفق نقوداً على الحلاقة ، مع مدخولٍ قدره عشرة شلنات في الأسبوع ـ الأمر مدعاةٌ للعجب .

طوال اليوم تسكعتُ في الشوارع ، شرقاً حتى وابنغ ، وغرباً حتى وايت شابل . كان الأمر مدعاةً للاستغراب بعد باريس ؛ كل شيء كان أنظف وأهدأ وأكثر وحشةً . لقد افتقدت صرخات الترام ، والحياة الضاجة الفاسدة في الشوارع الخلفية ، والرجال المسلحين يقعقعون في الساحات . كان جموع الناس أفضل ملبساً ، والوجوه أكثر بشاشةً ولطفاً وتماثُلاً ، بدون الفردية الصارخة للفرنسيَ وخبثه . السُكْر أقلّ ، وكذلك القذارة والعراك ، أما التبطُّل فأكثر ، حتى أنك لترى عُصَباً من الرجال واقفين في كل الزوايا ، سيئي التغذية قليلاً ، إلا أنهم يظلون واقفين على أرجلهم بسبب الشاي والشريحتين كل ساعتين ، كما ألِفَ اللندنيون . المرء هنا يتنفس هواء ذا شحنةٍ أقل من باريس . هنا بلاد برّاد الشاي وبورصة العمل ، بينما باريس بلاد المشرب ودكان الحلويات .

ممتعٌ أن تراقب الناس . نساء شرقيّ لندن جميلات (ربما بسبب امتزاج الدم) ، واللايمهاوس يعجّ بالشرقيين ، صينيين ، وبحّارة من تشيتاغونيا ، ودرافيديين يبيعون لِفاعات حرير ، وحتى بعض السيخ الذين لا يعرف أحد كيف جاؤوا . اجتماعات شوارع تنعقد هنا وهناك . في وايت شابل شخصٌ يدعى المبشِّر المغنّي يتعهد بإنقاذك من جهنم لقاء ستة بنسات . في طريق رصيف الهند الشرقية كان جيش الخلاص يعقد اجتماعاً . كانوا يغنّون «هل من أحدٍ هنا مثل يهوذا الغدّار ؟» على لحن أغنية «ماذا نفعل لبحّارٍ سكران ؟» . على التاور هِل كان اثنان من المورمون يحاولان مخاطبة اجتماع . وحول منصتهما حشدٌ من الرجال المتصايحين المقاطعين . بعضهم كان يشتمهما بسبب تعدد الزوجات . رجلٌ أعرجُ ، ملتحٍ ، ملحدٌ كما هو واضحٌ ، سمع لفظ الله ، فصار يلحف بأسئلته حانقاً . كان هناك ضجة أصوات مشوّشة .

«يا أصدقائي الأعزاء ، دعونا فقط نُنهِ ما نقوله ـ ! ـ نعم . هذا صحيح . قل لهم ما تريد . لا تناقش! ـ لا ، لا ، أجِبني . أباستطاعتك أن تُريني الله ؟ إن أريتني الله فسوف أُومن به . ـ أوه ، اخرسْ ، امتنعْ عن المقاطعة! ـ قاطعْ نفسَك ـ يا متعددي الزوجات! يمكن أن يقال الكثير عن تعدد الزوجات . خذوا النساء من الصناعة ، على أية حال ـ يا أصدقائي الأعزاء! لو أنكم فقط ـ لا! لا! لا تتهرب! هل رأيتَ الله ؟ هل لمستَه ؟ هل صافحتَه ؟ ـ أوه ، لا تدخلْ في النقاش ، بحقّ الله لا تدخل في النقاش»... الخ . الخ .

استمعت مدة عشرين دقيقة متلهفاً لأن أعرف شيئاً عن مذهب المورمون ، لكن الاجتماع لم يصل إلى أبعد من الصياح ، وهذا هو المآل العامّ لاجتماعات الشوارع .

في شارع ميدل سكس ، بين جموع الناس في السوق ، كانت امرأة مسحوقة تحمل طفلاً ذا خمس سنوات . لوّحت ببوق صفيحٍ في وجهه مهدِّدةً . كان الطفل يصرخ .

صاحت المرأة «متِّعْ نفسك! لماذا تظنني جئت بك إلى هنا ، واشتريت لك بوق الصفيح وكل شيء ؟ أتريد أن تجلس على ركبتيَ ؟ أيها النغل ، ستمتِّعُ نفسك!» .

سقطت قطراتُ بصاقٍ من البوق . اختفت الأم والطفل ، وهما يزعقان . كان المشهد جدَّ غريب بعد باريس .

في ليلتي الأخيرة بمنزل بنيفيلدز حدث عراكٌ بين اثنين من ساكنيه ، عراك خسيس . أحد المتقاعدين الشيوخ ، وهو في نحو السبعين ، كان عارياً حتى الخصر (قد كان يكوي ملابسه) يشتم عنيفاً ، مُحمِّلَ سفنٍ قصيراً ثخيناً ، يقف وقد أعطى ظهره للنار . كان بمقدوري أن أرى في ضوء النار وجه الرجل العجوز ، وكان يوشك أن يبكي أسىً وغضباً . واضحٌ أن أمراً جدّياً قد حدث .

المتقاعد العجوز : « أنت ـ ! »

مُحمِّلُ السفن : « أغلق فمك ، أيها البوم ـ ، قبل أن أتولاّك! »

المتقاعد العجوز : « لو حاولتَ فقط! ـ أنا أكبرك بثلاثين عاماً ، لكني لن أتعب كثيراً في ضربة تجعلك سطلاً مليناً بالبول! »

محمّل السفن : « آه ، وبعدها قد لا أحطِّمك ، أيها البوم ـ! »

وهكذا ، استمرّ الحال على هذا المنوال ، خمس دقائق ، بينما الساكنون يجلسون تعساء ، منقبضي الأنفس ، محاولين إهمال ما يجري . بدا محمِّلُ السفن منقبضاً ، لكن العجوز ظلَّ يزداد غضباً ، وهو يقوم باندفاعات صغيرة إزاء الآخر ، مقرِّباً وجهه ، صائحاً بالمحمّلِ من مبعدة إنشات قليلة ، مثل قطة على جدار ، وهو يبصق . كان يحاول تهييج نفسه ليضرب الآخر ، بدون أن يفلح . أخيراً انفجر صارخاً :

« أنت ـــ هذا هو من أنت ، أنت ـــ! خذ هذا في فمك القذر ومُصَّهُ ، أنت! ـــ وحقٍّ ـــ سأهشمك قبل أن أقضي عليك . أنت ـــ هذا هو من أنت ، ابن عاهرة ، إلحسْ ذاك ، أنت ـــ! هذا ما أراك . أنت ـــ أنت ـــ أنت ـــ أيها النغل الأسود! »

وفجأةً انهار على المصطبة ، وضع وجهه بين يديه ، وشرع ينتحب . أما الآخر ، فقد خرج بعد أن رأى مشاعر القوم ضدّه .

بعد ذلك سمعت ستيف يشرح سبب العراك . وقد ظهر أن الأمر يتعلق بما قيمته شلنٌ واحدٌ من الطعام . فلقد أضاع العجوز ، بطريقة ما ، مخزونه من الخبز والمرغرين ، هكذا لن يتبقى لديه ما يأكل لمدة الثلاثة الأيام القادمة ، عدا ما يقدمه إليه الآخرون شفقةً وإحساناً ، ويبدو أن المحمِّل الذي كان يشتغل ويأكل جيداً ، قد سخر منه بصورة مهينة . ومن هنا حدث العراك .

حين تدنّى ما لديَّ إلى شلن واحد وأربعة بنسات ، ذهبت كي أنام في منزل مبيت ، بـ« بو » حيث الأجرة ثمانية بنسات فقط . المرء يهبط إلى

حيّزٍ ، ثم يدخل ، عبر دهليز ، في قبو عميق خانق ، مساحته عشرة أقدام مربعة . كان عشرة رجال ، معظمهم شغّالون ، يجلسون في الوهج الشديد للنار . الوقت منتصف الليل ، إلا أن ابن النائب ، وهو طفل شاحب نحيل في الخامسة ، كان يلعب على رُكَبِ الشغّالين . إيرلنديّ عجوز كان يصفر لعصفور أعمى في قفص صغير . كانت ثمت طيور مغردة أخرى ـ مخلوقات صغيرة متضائلة عاشت حياتها كلها تحت الأرض . الساكنون يبولون عادةً في النار ، كي يوفروا على أنفسهم مشقة الذهاب إلى المرحاض عبر الباحة . عندما جلست إلى الطاولة أحسست بشيء يتحرك عند قدميّ ، وإذ نظرت إلى أسفل ، رأيت موجة سوداء تتحرك ، بطيئةً ، عبر الأرضية . كانت خنافس سوداً .

في المهجع ستة أسِرّة ، والشراشف مُعلَّمةٌ بحروف كبيرة «مسروقة من رقم ـ ، شارع ـ» ، كانت ذات رائحة كريهة . في السرير المجاور يرقد رجلٌ طاعنٌ في السنّ ، فنّان رصيف ، منحني الظهر انحناءً غريباً ، حتى أنّه ليبدو خارج السرير ، وقد صار ظهره غير بعيد عن وجهي إلا بقدم أو اثنين فقط . كان ظهره عارياً ، ارتسمت عليه أشكال عجيبة من الأوساخ ، مثل ظاهر طاولة رخام . خلال الليل ، جاء رجل سكران ، واقتعد الأرضية! مريضاً ، قرب فراشي . كان هناك بقٌّ أيضاً ، ليس سيئاً كما في باريس ، لكنه كافٍ لإبقاء المرء مستيقظاً . إنه لمكانٌ قذرٌ . إلا أن النائب وزوجته كانا طيبين ، مستعدين لتقديم كوب شاي في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل .

26

في الصباح ، بعد أن دفعت ثمن الشاي وشريحتي الخبز ، كالمعتاد ، وبعد شرائي نصف أونصة تبغ ، بقي لديّ نصف بنس . لم أكن مهتماً ، بعدُ ، بالتوجه إلى «ب» طالباً المزيد من النقود . لذا لم يكن لديّ خيارٌ سوى الذهاب إلى ملجأٍ عابرٍ . ليست لديّ أدنى فكرة عن تحقيق ذلك ، لكني أعرف أن في رومتون ملجأً عابراً ، وهكذا سرت إلى هناك ووصلت في حوالي الثالثة أو الرابعة عصراً . رأيت عجوزاً إيرلندياً رزيناً ، متشرداً بصورة واضحة ، يقف مستنداً إلى حظيرة الخنازير في سوق رومتون . مضيت إليه واستندت إلى الحظيرة بجانبه ، وقدّمت له علبة تبغي . فتح العلبة ونظر إلى التبغ مندهشاً :

قال : «يا إلهي! هنا ستة بنسات من التبغ الجيد! بحقّ الجحيم ، كيف حصلت على ذلك ؟ أنت لم تكن متشرداً لوقت طويل ؟» .

قلت : «ماذا ؟ أليس لدى المتشردين تبغ ؟» .

«أوه ، لدينا . أنظر» .

أخرج علبة صفيح صدئة ، كانت لمكعّبات أوكسو . وفي العلبة رأيت عشرين أو ثلاثين من أعقاب السجائر الملتقَطة من الرصيف . قال الإيرلندي إنه لايكاد يعرف أي نوع آخر من التبغ ، مضيفاً أن بمقدور الشخص المهتمّ أن يجمع أونصتي تبغ يومياً من أرصفة لندن .

سألني : «هل خرجتَ من أحد سبايكات لندن (الملاجئ العابرة) إيه ؟»
أجبت بالإيجاب ، ظاناً أنه سيتقبلني زميلاً متشرداً . واستفسرت منه عن سبايك رومتون .

«حسناً ، إنه سبايك كاكاو . هناك سبايكات شاي ، وسبايكات كاكاو ، وسبايكات سْكِلِي . في رومتون ، لحسن الحظ ، لا يقدمون لك سْكِلِي . لم يفعلوا ذلك آخر مرة كنتُ فيها . بعدها كنت في يورك وحول ويلز» .

قلت : «سكلي ؟ أي شيء هو ؟»

«سكلي ؟ علبة ماء ساخن في قاعها شوفانٌ كريه . هذا هو السكلي . إن سبايكات السكلي هي الأسوأ» .

استمررنا نتحدث ، ساعة أو ساعتين . كان الإيرلندي شيخاً ودوداً ، لكن رائحته لا تطاق ، وهو أمرٌ غير مستغرب ، بعد أن عرفت عدد الأمراض التي أصيب بها . وتبيَّنَ (هو يصف أعراضه بدقة) الآتي ، حين تأخذه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه : أعلى رأسه (كان أصلع) مصاب بالأكزيما . كان يعاني من قصر نظر ولا يمتلك نظّارات . يعاني من مرض مزمن في القصبات ، ومن ألم غير مشخَّصٍ في ظهره . عنده عسر هضم . التهاب في الحالب . الدوالي ، تورّمٌ في إبهام القدم . قدم مسطّحة . مع هذه المجموعة من الأمراض ، كان عليه أن يذرع الطرقات ، متشرداً ، طيلة خمس عشرة سنة .

في حوالي الخامسة قال الإيرلندي : «هل تريد كوباً من الشاي ؟ إن السبايك لن يفتح إلا في الساعة السادسة» .

قلت : «أعتقد أنني أريد» .

«حسناً ، ثمت مكان يعطونك فيه شاياً وكعكة بالمجّان . الشاي جيد . وهم يجعلونك تردد كثيراً من الصلوات اللعينة بعد ذلك . لكن بحق الجحيم ، نحن نُمضي الوقت هدراً . تعال معي» .

تقدَّمني إلى ظُلّة صفيح في شارع جانبي ، تشبه بهو كريكت قروياً . وكان حوالي خمسة وعشرين متشرداً ينتظرون . كان القليل منهم صعاليك

مألوفين قذرين ، أما الكثير فكانوا شباناً حسني المنظر من الشمال ، قد يكونون عمال مناجم ، أو في صناعة القطن ، عاطلين عن العمل ، فُتح الباب تواً ، ودعتنا إلى الدخول سيدةٌ ذات ثوب حرير أزرق ، ونظارتين ذهبيتين ، وصليب . في الداخل ثلاثون أو أربعون كرسياً قاسياً ، وأُرغن ، وصورة شنيعة لمشهد الصلب . نزعنا قلانسنا ، غير مرتاحين . وجلسنا . قدَّمت لنا السيدة الشاي ، وكانت تتحرك جيئة وذهاباً ، وتتحدث بدون انقطاع ، بينما نحن نأكل ونشرب . تكلمت في شؤون دينية ـ عن رأفة يسوع المسيح الدائمة بالبؤساء أمثالنا ، وعن الوقت الذي يمرّ سريعاً وأنت في الكنيسة ، وعن التغير الذي سيلحق بالمتشرد لو أدّى صلواته منتظمة . كرهنا ذلك . كنا نجلس إلى الحائط ، ونفرك قلانسنا (يشعر المتشرد أنه مكشوف بصورة غير لائقة إذا خلع قلنسوته) ، ونحمرُ خجلاً ، ونحاول أن نغمغم شيئاً إذا خاطبتنا السيدة . لاشكَّ في نواياها الحسنة ولطفها . حين جاءت إلى أحد شبّان الشمال بصحن من الكعك ، قالت له :

« وأنت ، يا ولدي ، كم مضى عليك منذ أن ركعتَ وتكلمت مع أبينا الذي في السماوات ؟ »

الفتى البائس ، لم ينبس ببنت شفة ، لكنَّ معدته أجابت بقرقعة لمرأى الطعام . وهكذا غلبه الخجل ، حتى لم يكد يبتلع كعكته . شخص واحد فقط استطاع أن يجيب السيدة بطريقتها ، كان نشيطاً أحمر الأنف ، يبدو مثل عريف فقد شَرْطته بسبب السكر . كان بمقدوره أن ينطق كلمات « السيد المسيح العزيز » بخجلٍ أقلّ من أي شخص عرفتُه . ولا ريب في أنه تعلَم ذلك في السجن .

انتهى الشاي ، ورأيت المتشردين يتلاحظون . كانت فكرة مكتومة تسري من واحد إلى آخر ـ هل بإمكاننا الإفلات قبل أن تبدأ الصلوات ؟ تحرك أحدهم في كرسيه ـ لم ينهض فعلياً ، لكنه نظر إلى الباب ، كما لو أنه يقترح فكرة المغادرة . سمَّرته السيدة بنظرةٍ منها ، وقالت بصوت أكثر عذوبةً من قبلُ :

« لا أظنكم تريدون المغادرة منذ الآن . فالملجأ العابر لن يفتح إلا في

السادسة ، ولدينا الوقت كي نركع ونقول بضع كلمات لأبينا أولاً . أعتقد أننا سوف نكون أحسن ، بعد ذلك... أليس كذلك ؟ »

الرجل ذو الأنف الأحمر ، قدَّمَ العون ، ساحباً الأرغن إلى موضعه ، وموزعاً كتب الصلوات . كان ظهره إلى السيدة ، ولعبتُه الساخرة أن يقدم الكتب مثل ورق اللعب ، هامساً لكل شخصٍ وهو يفعل ذلك : « لك ، أيها الزميل ، مفاجأة لك! أربعة آسات وشايب! » الخ .

مكشوفي الرؤوس ، ركعنا بين الفناجين القذرة ، وشرعنا نغمغم أننا لم نفعل ما ينبغي فعله ، وفعلنا ما لا ينبغي فعله ، وأننا لسنا معافَين . كانت السيدة تصلي بحميَّةٍ ، لكن عينيها تلاحقاننا طوال الوقت ، كي تتأكد من أننا مشاركون . حين لا تنظر إلينا نضحك ونتغامز ، ونهمس بنكات بذيئة ، فقط لنبيِّن أننا غير معنيّين . لكنّ الصلوات تنحبس قليلاً في حناجرنا . ذو الأنف الأحمر فقط كان رابط الجأش بحيث يرفع إجاباته فوق مستوى الهمس . تحسَّنَ أمرنا مع الغناء ، باستثناء متشرد عجوز لا يعرف إلا لحن « إلى الأمام ، يا جنود المسيح! » ، فيعود إليه أحياناً ، مفسداً الانسجام .

الصلوات استمرت ساعة ، ثم غادرنا المكان ، بعد مصافحة عند الباب .

قال أحدهم بمجرد ابتعادنا عن إمكان السماع : « حسناً . انتهت متاعبنا . ظننت الصلوات اللعينة لن تنتهي إلى الأبد » .

قال آخر : « أكلتَ كعكتك ، وعليك أن تدفع ثمنها » .

« تعني ، أن أصلّي لها . آه ، أنت لا تحصل على شيء مقابل لاشيء . إنهم لا يعطونك حتى كوب شاي ببنسين بدون أن تركع » .

تعالت غمغمات موافقة . واضحٌ أن المتشردين لم يكونوا ممتنّين لشايهم . ومع هذا ، كان الشاي ممتازاً يختلف عن شاي المقاهي اختلاف نبيذ البوردو عن ذلك الشراب المسمّى كلاريه كولونيال ، وكنا مبتهجين له جميعاً!

كما أنني متأكد ، من أن الشاي قُدِّم إلينا بروح طيبة ، بدون أي مقصدٍ لإذلالنا ، لذا ، فمن العدل أن نكون ممتنّين ـ إلا أننا لم نكن .

27

حوالي السادسة إلا الربع قادني الإيرلنديّ إلى السبايك . كان كعبةً كالحة ، داخنة الصفرة من الطابوق ، ماثلةً في ركن في ساحة الورشة . هذا السبايك ، بصفوف نوافذه الصغيرة ذات القضبان ، وسوره العالي ، وبوآباته الحديد ، يبدو مثل سجن . منذ الآن كان طابور من الرجال ذوي الأسمال ينتظر فتح البوابات . إنهم من أعمارٍ شتى ، أصغرهم فتى ناضر الوجه في السادسة عشرة ، وأكبرهم شخصٌ مومياءٌ ، منحني الظهر ، أدرد ، في الخامسة والسبعين . بعضهم كان صعلوكاً متمرساً تعرفه من عصاه وهراوته ووجهه المغبرّ ، وبعضهم كان عامل مصنع عاطلاً ، وبعضهم كان عاملاً زراعياً . أحدهم موظف ذو ياقة وربطة عنق ، واثنان معتوهان . كان منظر هذا الجمع المنتظِر مثيراً للاشمئزاز . لا شيء أثيمٌ أو خطرٌ . إنهم حشد بالغ الزراية من البشر المهلهلين ، سيئي التغذية . لكنهم كانوا ودودين ، ولم يسألوا أسئلة . وقد قدّم لي بعضهم التبغ ، أعقابَ سجائر .

استندنا إلى السور ، ندخن ، وشرع المتشردون يتحدثون عن السبايكات التي أمُّوها مؤخراً . وقد ظهر مما قالوه أن كل السبايكات مختلفة ، ولكل سبايك مزاياه ونواقصه ، ومن الضروري معرفة هذه المزايا والنواقص إن كنتَ تذرع فضاء الله . إن متشرداً عريقاً سوف يخبرك عن خصائص كل سبايك في إنجلترا ، مثل : في سبايك «أ» مسموحٌ لك بالتدخين ، لكنّ في الحُجيرات

بقاً . في « ب » الأسرَّة مريحة لكن البوّاب غليظ . في « ج » يُدخلونك مبكراً في الصباح لكن الشاي كريه . في « د » يسرق الموظفون نقودك إن كان لديك شيء منها ـ وهكذا . وثمت دروبٌ مطروقة منتظمة حيث يبعد السبايك عن الآخر مسافة مسيرة يوم . ولقد أُخبرت أن طريق بارنيت سانت ألبانز هو الأفضل ، وأخبروني أن أتجنب بيلاريكي وتشيلمز فورد ، وكذلك آيدهيل في كينت ، وقيل إن تشيلزي هو أفخر سبايك في إنجلترا ، وقال لي أحدهم ممتدحاً إن البطانيات هناك هي أقرب إلى بطانيات السجين منها إلى تلك التي في السبايكات . المتشردون ينتشرون بعيداً في الأرياف صيفاً ، لكنهم في الشتاء يحومون أكثر حول البلدات الكبيرة ، فهي أدفأ وأكثر إحساناً . إلا أن عليهم الترحال المستمر ، فأنت لا تستطيع أن تدخل سبايكاً واحداً ، أو أي سبايكين في لندن ، أكثر من مرة واحدة في الشهر ، خشيةَ أن تُحبس أسبوعاً .

بعد السادسة بقليل فتحت البوّابات ، وأخذنا ننتظم في طابور فرديّ . في الباحة مكتبٌ يدوِّن موظفٌ فيه أسماءنا وأعمارنا في سجلٍّ ، وكذلك الأماكن التي جئنا منها ، وتلك الذاهبين إليها ـ والمقصود من الأخيرة ضبط تحركات المتشردين . سجّلت مهنتي « رسّاماً » . كنت رسمت بالألوان المائية ـ من لم يفعل ذلك ؟ كما استفسر منا الموظف إن كان لدينا نقود ، والجميع قالوا لا . إن الدخول إلى السبايك بأكثر من ثمانية بنسات مخالفٌ للقانون ، وكل مبلغ يقلّ عن ذلك يجب تسليمه عند البوابة . لكن القاعدة أن المتشردين يفضلون تهريب نقودهم إلى الداخل معقودة في قطعة قماش كي لا ترنّ . وهم يضعونها ، عموماً ، في كيس الشاي أو السكّر الذي يحمله كل متشرد ، أو بين ما لديهم من « أوراق » . « الأوراق » تعتبر مقدَّسةً ، ولا تخضع للتفتيش البتة .

بعد تسجيلنا في المكتب ، يتولى إدخالنا في السبايك موظفٌ يدعى « رائد المتشردين » ، (مهنة الإشراف على العابرين ، وهو في العادة رجل فقير يعيش على نفقة الورشة) ، وبوّابٌ وغدٌ ضخمٌ في بزّة زرقاء ، يعاملنا معاملة القطيع . يتكون السبايك من مجرد حمّام ومرحاض ، والباقي صفوف مزدوجة

من حُجيرات حَجريّة ، يبلغ عددها المائة . إنه مكانٌ عارٍ ، كئيب ، من الحجر والطلاء الأبيض ، نظيفٌ ، ذو رائحة توقّعتُها من مَظهره ، رائحة صابون ناعم ، وسائل جَيز ، ومراحيض ـ رائحة باردة ، محبِطة ، مثل رائحة السجن .

ساقنا البوّاب جميعاً نحو ممرٍّ ، ثم أخبرنا بدخول الحمّام ، كل ستةٍ في دفعة ، كي نفتَّش قبل الاستحمام . التفتيش يتعلق بالنقود والتبغ ، إذ أن سبايك رومتون أحد تلك السبايكات المسموح لك بالتدخين فيها إذا استطعت تهريب تبغك ، لكن هذا التبغ سوف يصادر إذا عُثر عليه عندك . أخبرنا المتشردون العريقون أن البواب لا يفتش أسفل الركبة ، ولهذا ، أخفينا قبل الدخول ، تبغنا في كواحل جزماتنا . في ما بعد ، ونحن نخلع ملابسنا ، نضع التبغ في جيوب ستراتنا التي يسمحون لنا بالاحتفاظ بها ، كي نستعملها مخدَاتٍ .

المشهد في الحمّام منفِّرٌ للغاية . خمسون رجلاً قذراً عارياً يتزاحمون بالمناكب ، في حجرة مساحتها عشرون قدماً مربعاً ، ذات حوضين فقط ، ومنشفتين خفيفتين دوّارتين بينهم جميعاً . لن أنسى عطن الأقدام الوسخة . أقل من نصف المتشردين استحموا بالفعل (سمعتهم يقولون إن الماء الساخن يضعف الجسم) ، لكنهم جميعاً غسلوا وجوههم وأقدامهم ، والمِزَقَ الصغيرة المدهَّنة الفظيعة التي يدعونها قماشات أصابع القدم ، والتي يلفّونها حول أصابع أقدامهم . الماء النظيف مسموحٌ به فقط للرجال الذين يستحمون استحماماً كاملاً ، ولذلك يستحم رجالٌ عديدون في ماءٍ غسل فيه آخرون أقدامهم . البوّاب يُدخلنا ويُخرجنا ، موجِّهاً كلمات قاسية إلى من يضيع الوقت . حين جاء دوري للاستحمام ، استفسرت عمّا إذا كان بإمكاني تغيير ماء الحوض الذي كان قذراً ، قبل أن أستحمَ . أجابني ببساطة : «أغلقْ فمك ، واستحمَّ! » . هكذا عرفت الطبيعة الاجتماعية للمكان ، فلم أفتح فمي ثانيةً .

عندما أنهينا استحمامنا ، عقد البوّابُ ملابسنا في صُررٍ وأعطانا قمصان الورشة ـ وهي قطنيّات مشكوكٌ في نظافتها ، تسبه جلابيات نومٍ مختصرة . أُرسلنا فوراً إلى الحُجيرات ، ثم جلب البواب ورائد المتشردين عشاءنا من

الورشة . كانت أرزاقنا نصف رطل من الخبز الممسوح بالمرغرين ، وباينت من الكاكاو المر ، بدون سكّر ، في إناء صفيح . التهمنا هذا ، في خمس دقائق ، مقتعدين الأرض . وفي حوالي السابعة أُغلقت أبواب الحجيرات من الخارج ، كي نظل محتبسين حتى الثامنة صباحاً .

يُسمح لكل واحد بالنوم مع زميله ، وقد صُممت الحجيرات لينام في كل واحدةٍ منها اثنان . لم يكن لديّ زميل ، ولهذا وُضعت مع شخص آخر منفرد ، ذي وجهٍ محكوكٍ وحَوَلٍ ضئيل . الحجيرة خمسة أقدام × ثمانية ، وارتفاعها ثمانية أقدام ، وهي من الحجر ، وفيها كوّةٌ عالية في الجدار ذات قضبان ، وعين تجسس في الباب مثل زنزانة سجن . وكان فيها ست بطانيات ، ومبولة ، وأنبوب ماء ساخن ، ولا شيء عدا ذلك . ثم أدركت في صدمة اندهاش ما أنا فيه ، فهتفت :

«اللعنة! لكن أين الفراش ؟ »

قال الرجل الآخر مستغرباً : « الفراش ؟ ليس من فراش! ماذا تتوقع ؟ إن هذا من السبايكات التي تنام فيها على الأرض . بحق المسيح! ألم تعتدْ ذلك بعدُ ؟ » .

ظهر أن غياب الفراش أمرٌ عاديّ في السبايك . لففنا ستراتنا ووضعناها لصق أنبوب الماء الساخن ، وحاولنا أن نرتاح قدر المستطاع . صارت الحجيرة فاسدة الهواء ، إلا أنها لم تكن من الدفء بحيث يكون باستطاعتنا أن نضع كل البطانيات تحتنا ، وهكذا تعيَّنَ علينا أن نكتفي ببطانية واحدة تخفف من قسوة الأرضية . نمنا على مبعدة قدم من الآخر ، والواحد منا يتنفس في وجه الثاني ، وأطرافنا العارية تتلامس باستمرار ، متدحرجين إزاء بعضنا كلما غرقنا في النوم . كان واحدنا ينقلب من جنب إلى آخر بدون جدوى ، وكيفما انقلبت داهمك شعورٌ بالكآبة ، ثم وجعٌ حادٌ من قسوة الأرضية التي تبلغك عبر البطانية . بإمكان المرء أن ينام ، لكن ليس أكثر من عشر دقائق لكل رقدةٍ .

حوالي منتصف الليل ، بدأ الرجل الآخر محاولاتٍ لواطيـةً معي . وهي تجربة عجيبة في حجيرة مغلقة ، مطبقة الظلام . كان شخصاً ضعيفاً ، وبإمكاني

تدبير أمره بسهولة ، لكن النوم صار مستحيلاً بالطبع . أمضينا بقية الليل ندخن ونتحدث . أخبرني الرجل بقصة حياته . كان مصلّحَ آلاتٍ عاطلاً مدة ثلاث سنوات عن العمل ، وقد هجرته زوجته بعد أن فقد عمله ، ومُذّاك انقطع عن النساء حتى كاد ينساهنّ . قال إن اللواط شائع بين المتشردين العريقين .

في الساعة الثامنة ، اجتاز البوّاب الممرَّ وهو يفتح الأبواب ، هاتفاً : «الجميع ، إلى الخارج! » . انفتحت الأبواب مُصدرةً عطناً حامضاً . وبغتةً امتلأ الممر بهيئات زريّة ترتدي قمصاناً رمادية ، وكل واحدٍ يحمل مبولته ، متجهاً إلى الحمّام . وظهر أن حوض ماءٍ واحداً ، يخصص لنا جميعاً ، في الصباح ، وعندما وصلتُ كان عشرون متشرداً غسلوا وجوههم . ألقيت نظرة واحدة على الأوساخ السوداء الطافية على وجه الماء ، فلم أغسل وجهي . بعد ذلك قُدِّم لنا طعام فطور مثل طعام العشاء ، وأعيدت ملابسنا إلينا ، وأُمرنا بالخروج إلى الباحة كي نشتغل . وكان شغلنا تقشير البطاطا لغداء رائد المتشردين ، لكنه عملٌ شكليّ يُقصد به إشغالُنا حتى مجيء الطبيب الذي سوف يفحصنا . معظم المتشردين تكاسلوا بصورة بيّنةٍ . حضر الطبيب في حوالي الساعة العاشرة ، وأُمرنا بالعودة إلى حجيراتنا ، وخلع ملابسنا ، وانتظار الفحص في الممر .

عراةً ، مرتجفين ، اصطففنا في الممر . ليس بمقدورك أن تتصوّر أيّ مخاليق بائسة منحطّة كنا نبدو ، واقفين هناك في ضوء الصباح الذي لا يرحم . إن ملابس المتشرد رديئة ، لكنها تخفي أشياء أردأ . ولكي ترى المتشرد ، كما هو ، غير مستتر ، عليك أن تراه عارياً . أقدامٌ مسطّحة ، بطونٌ منتفخة ، صدورٌ غائرة ، عضلاتٌ سائبة ـ كل نوع من التعفن الجسدي هناك . كلهم تقريباً سيء التغذية ، وبعضهم معتلّون تماماً . اثنان كانا يرتديان حزامي فتْق ، أما الشخص المومياء ذو الأعوام الخمسة والسبعين فإن المرء ليستغرب من أنه قادرٌ على السير . وحين تنظر إلى وجوهنا غير الحليقة ، المتغضنة من رقاد البارحة ، تظننا جميعاً نستفيق من أسبوع شربٍ متواصل .

الفحص مخصصٌ فقط لكشف الجدري ، ولا يهتم بحالتنا العامة . طالب طبٍّ شابّ ، يدخن سجارته ، مسرعاً عبر الطابور ، ناظراً إلى أعلى وأسفل ، لا يسأل إن كان أحدنا مريضاً أم غير مريض . وعندما خلع زميلي في الحجيرة ملابسه رأيت صدره مليناً بطفح أحمر ، وقد شعرت بفزع العدوى من الجدري ، لأنني أمضيت ليلتي جدَّ قريب منه . لكن الطبيب فحص الطفح وقال إنه بسبب سوء التغذية فقط .

بعد الفحص ارتدينا ملابسنا ، وأُرسلنا إلى الباحة ، حيث نادى علينا البوّاب بأسمائنا ، وأعاد إلينا ممتلكاتنا التي كنا تركناها في المكتب ، ووزّع علينا بطاقات وجبات طعام . قيمة كل بطاقة ستة بنسات ، وهي معتمدة في مقاهي الطريق التي سميناها البارحة . مما يجلب الانتباه أن عدداً كبيراً من المتشردين لا يعرفون القراءة ، وأن عليهم اللجوء إليّ ، وإلى سواي ، من «الأساتذة» ، كي نحلَّ رموز بطاقاتهم .

فُتحت البوابات ، فتفرّقنا فوراً . كم عذبٌ هو الهواء بعد عفونة السبايك المغلق! لديّ الآن زميل ، فعندما كنا نقشر البطاطا صادقتُ متشرداً إيرلندياً اسمه بادي جاك ، وهو رجلٌ شاحب كئيب يبدو نظيفاً ومقبولاً . كان متجهاً إلى سبايك إيدبري ، واقترح عليّ أن نمضي إلى هناك سويّةً . انطلقنا ، لنصل إلى هناك في الثالثة عصراً . كانت المسيرة اثني عشر ميلاً ، لكننا جعلناها أربعة عشر ميلاً ، بسبب ضياعنا في الأحياء الفقيرة الموحشة شماليّ لندن . كانت بطاقات وجباتنا موجهة إلى مقهى إلفورد . وعندما بلغنا المقهى ، رأت الخادمة المحتالة الصغيرة بطاقاتنا ، وعرفت أننا متشردان ، فأعرضتْ عنا ، ولم تخدمنا إلا بعد مرور وقت طويل . أخيراً ألقت على الطاولة بكوبي شاي كبيرين وأربع شرائح خبز وشيء من سائل الشواء ــ وهذا طعام ثمنه ثمانية بنسات . وقد ظهر أن هذا المقهى اعتاد أن يغشّ المتشردين ببنسين أو نحوهما في كل بطاقة ، وبما أن المتشردين يحملون بطاقاتٍ لا نقوداً ، فلم يكن بمقدورهم الاحتجاج أو الذهاب إلى مكان آخر .

28

ظلّ بادي زميلي معظم الأسبوعين القادمين ، وبما أنه أول متشرد عرفته جيداً ، أريد أن أقدم صورة عنه . أعتقد أنه متشرد أنموذجيّ ، وثمت في إنجلترا عشرات الآلاف ممن يشبهونه .

كان فارع الطول ، في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر ، ذا شعر أحمر أخذ يتجعد ، وعينين زرقاوين مترقرقتين . كان حسن الملامح إلا أن خدّيه ترهّلا ، وظهرت عليهما تلك السيماء المربدّة القذرة ، المتأتية من اغتذاء الخبز والمرغرين فقط .

ملبسُه أفضل من أغلب المتشردين : سترة صيد من قماش التويد ، وبنطلون مساء لايزال محتفظاً بخطٍّ عَقْصته . ويبدو أن العقصة تمثل في ذهنه بقيةً من الاحترام ، لذا يحرص على خياطتها كلما اهترأتْ . وهو يعتني بمظهره ، عامةً ، ويحتفظ بموسى وفرشاة أحذية لن يبيعهما ، مع أنه باع «أوراق»ـهُ ، وحتى مطواتَه ، منذ أمدٍ بعيد .

ترعرع في إيرلندا ، وخدم في الحرب سنتين ، ثم اشتغل في مصنع للدهان المعدني ، حيث فقد عمله منذ سنتين . كان يشعر بالعار من كونه متشرداً ، إلا أنه اكتسب كل طرائق المتشرد . وهو يمسح الأرصفة باستمرار ، ملتقطاً أعقاب السجائر ، دون أن يخطئه عَقِبٌ ، أو حتى علبة سجائر فارغة ، فهو يستعمل الورق اللمّاع للفّ السجائر .

في طريقنا إلى إيدبري رأى لفّةَ صُحفٍ على الرصيف ، وثبَ عليها ، ليجد أنها تحتوي على شطيرتين من لحم الخروف ، مقضومتي الطرفين ، وقد أصرَّ على اقتسامهما معي . وهو لن يمرّ على آلة أوتوماتيكية بدون أن يدير مقبضها ، فهو يقول إن هذه الآلات قد تكون معطلة ، ولهذا سوف تقذف بنسات حين تدير مقبضها . لكنه لا يطيق الجريمة . عندما كنا في ضواحي رومتون ، رأى بادي زجاجة حليب على عتبة منزل ، متروكة هناك خطأً ، كما هو واضح . توقّفَ ونظر إلى الزجاجة بنهم .

قال : «بحق المسيح! هذا غذاء جيد معرَّض للفساد . أحدهم سوف يخطف هذه الزجاجة ، إيه ؟ يخطفها بسهولة» .

رأيت أنه يفكر في أن يخطفها بنفسه .

نظر إلى الشارع . كانت المنطقة سكنية ، ولا أحد هناك . كان وجه بادي المريض المترهل يتوق إلى الحليب . استدار عن الزجاجة ، قائلاً بأسى :

«الخير أن نتركها . لا منفعة تُرجى من السرقة . شكراً للّه ، أنا لم أسرق حتى الآن شيئاً» .

الذعرُ ، وليدُ الجوع ، هو ما جعله فاضلاً .

فبوجبتين جيدتين ، أو ثلاث ، في معدته ، كان سيجد الشجاعة لسرقة الحليب . مادتا حديثه اثنتان ، خجله من كونه متشرداً ، وأفضل طريقة للحصول على وجبة مجّانية . وبينما نحن نطوّف في الشوارع ، كان يظل يغمغم بمونولوج على هذا النحو ، في صوت شاكٍ باكٍ ، صوتٍ إيرلنديّ :

«جحيمٌ أن تذرع الطرقات ، إيه ؟ وقلبك ينكسر وأنت تدخل هذه السبايكات اللعينة . لكن ماذا يستطيع المرء أن يفعل غير هذا ؟ إيه ؟ أنا لم آكل وجبة لحمٍ منذ حوالي الشهرين ، وجزمتي تزداد حالتها سوءاً - وبحق المسيح! ماذا سيكون لو حاولنا الحصول على كوب الشاي عن طيب خاطر . آه ، ماذا سيفعل المرء بلا دين ، إيه ؟ أنا أخذت كوب شاي من الأديرة ،

ومن المعمدانيين ، والكنيسة الانجليكانية ، ومن كل الأصناف . أنا نفسي ، كاثوليكيّ . لكني لم أذهب إلى الاعتراف منذ سبع عشرة سنة ، غير أني لاأزال أحتفظ بمشاعري الدينية ، أنت تفهم . وتلك الأديرة جيدة دائماً لكوب من الشاي... » الخ . الخ . كان يظل يتحدث على هذا النحو طوال اليوم ، بدون أن يتوقف تقريباً .

كان جهله مطبقاً ، ومثيراً للامتعاض . على سبيل المثال ، سألني مرة إن كان نابوليون عاش قبل يسوع المسيح أو بعده . ومرة ثانية ، حين كنت أنظر في واجهة مكتبة ، ارتبك كثيراً لأن أحد الكتب يحمل عنوان « عن تقليد المسيح » ، وقد اعتبر ذلك كفراً . سأل غاضباً : « بحق الجحيم! ماذا تريد من تقليده ؟ » . إنه قادر على القراءة لكنه يكره الكتب . في طريقنا من رومتون إلى إيدبري ، دخلتُ مكتبة عامة ، ومع أن بادي لم يرد أن يقرأ ، غير أني اقترحت عليه أن يدخل ويريح ساقيه ، لكنه فضّلَ الانتظار على الرصيف . قال : « إن منظر هذه المطبوعات كلها يجعلني أمرض » .

مثل معظم المتشردين كان شديد البخل بأعواد الكبريت . كانت لديه علبة كبريت حين التقيت به ، لكني لم أره يخرجها ليشعل منها عوداً . وقد اعتاد أن يلقي عليّ محاضرة عن الإسراف إذا أشعلت أحد أعواد كبريتي . وطريقته أن يؤرث سجارته من الغرباء ، مفضلاً البقاء نصف ساعة بلا تدخين على إشعال عود كبريت .

رثاء الذات كان مفتاح شخصيته . ويبدو أن فكرة سوء طالعه لا تفارقه لحظةً . وكان يقطع أوقات صمت طويلة ، بهتافه ، دونما سبب : «لعنةٌ أن تبدأ ثيابك تهترئ» ، أو «ذلك الشاي في السبايك لم يكن شاياً ، كان بولاً » ، كأنْ ليس في العالم شيء آخر يمكن الكلام عليه . وكان يحسد حسداً خسيساً كل من هو أفضل حالاً منه ـ لا أقصد الأغنياء ، فهم خارج أفقه الاجتماعي ، وإنما الرجال الذين يعملون . إنه يتشوف إلى العمل ، كما يتشوف فنان إلى الشهرة . فإن رأى رجلاً عجوزاً يعمل قال بمرارة : «أنظر

إلى ذلك ـ العجوز ، يدع الرجال القادرين بلا عمل » ، أمّا إذا كان فتىً ، فسوف يقول : «هؤلاء الأبالسة الصغار يأخذون خبزك من فمك» . الأجانب كلهم « كلاب حقيرة » حسب قوله ، ونظريته تقول إن الأجانب مسؤولون عن البطالة . وهو ينظر إلى النساء نظرةً فيها مزيجٌ من اللهفة والبغض . الشابّات الجميلات كنّ أبعد من أن يدخلن في ذهنه ، لكن فمه يتحلَّب لمرأى العاهرات . تمرّ مخلوقتان عجوزتان قرمزيتا الشفاه ، فيحمرّ وجه بادي احمراراً شاحباً ، ويلتفت إلى المرأتين ناظراً بنهم ، ويغمغم : « عاهرتان! » مثل ما ينظر صبيّ إلى واجهة محل حلويات . أخبرني مرةً أنه لم يعاشر امرأة منذ سنتين ، بعد أن فقد عمله ، وأنه نسي أن بمقدور المرء التفكير بغير العاهرات . إنه يمتلك الشخصية العادية للمتشرد ـ الدنيئة ، الحاسدة ، شخصية ابن آوى .

بالرغم من هذا كله ، كان إنساناً طيباً ، كريماً بطبعه ، وقادراً على مقاسمة صديقٍ كِسرته الأخيرة . وقد جعلني ، بالفعل ، أشاركه كسرة خبزه الأخيرة ، أكثر من مرّة . وقد يكون قادراً على العمل أيضاً ، لو تهيّأت له تغذية جيدة لمدة شهور قليلة . لكن عامين من الخبز والمرغرين حَطّا من حاله إلى حدّ اليأس . لقد عاش عل طعامٍ مقلَّدٍ قذر حتى صار عقله وجسده من طينةٍ أدنى . سوء التغذية ، لا سواه من الأدواء ، هو ما حطّمَ رجولته .

29

في طريقنا إلى إيدبري ، أخبرت بادي بأن لديّ صديقاً أستطيع أن آخذ منه مالاً بالتأكيد ، وعرضتُ عليه أن نمضي رأساً إلى لندن بدلاً من قضاء ليلة أخرى في السبايك . لكن بادي لم يكن في سبايك إيدبري مؤخراً ، ومثل أي متشرد ، لم يرد أن يضيع قضاء ليلة بالمجان . اتفقنا على الذهاب إلى لندن في الصباح التالي . كان لديّ نصف بنس فقط ، أما بادي فكان لديه شلنان يمكن لنا ، بهما ، أن ننام ، ونشرب بضعة كؤوس شاي .

لا يختلف سبايك إيدبري كثيراً عن سبايك رومتون . وأسوأ ما فيه أن كل التبغ يصادَر عند البوابة ، وإن قُبض على شخص يدخِّن أُخرج من السبايك فوراً . وبموجب قانون التشرد ، تمكن مقاضاة المتشرد إذا دخّن في السبايك ـ والواقع أن المتشردين تمكن مقاضاتهم لأي شيء ، لكن السلطات تتجنب متاعب المقاضاة بطرد الرجال المخالفين . لا عمل هنا نؤديه ، والحجيرات مريحةٌ جداً . نمنا كلانا في حُجيرة واحدة ، أحدنا في الأعلى ، والثاني في الأسفل ، أي أن أحدنا نام على رفٍّ خشبي ، والآخر على الأرض ، مع حشيّتي قش ، وبطانيات كثيرة ، قذرة ، لكنها لا تعجّ بالحشرات . الطعام كان مثل طعام رومتون ، باستثناء تقديم الشاي لا الكاكاو . وبالإمكان الحصول على شاي إضافي في الصباح ، ذلك لأن رائد المتشردين يبيع كأس الشاي بنصف بنس ، سراً بالطبع . وقد أعطي كل منّا قطعة خبز وجبناً لنأخذها معنا ، وجبةَ غداء .

عندما بلغنا لندن كان علينا أن نقتل ثماني ساعات قبل أن تفتح بيوت الإقامة . غريبٌ كيف لا يلاحظ المرء الأشياء . لقد كنت في لندن مرّاتٍ عدة ، لكني لم أكتشف حتى ذلك اليوم أسوأ شيء في لندن ـ حقيقة أن الجلوس ذاته يكلِّف مالاً . في باريس ، حين لا تكون لديك نقود ، ولا تجد مصطبة عامّة ، تستطيع الجلوس على الرصيف . الله وحده يعلم ما قد يؤدي إليه الجلوس على الرصيف في لندن ـ ربما السجن . مع الساعة الرابعة ، كنا وقفنا خمس ساعات ، وأحسسنا بأقدامنا ساخنة حتى الإحمرار من صلابة الأحجار . كنا جائعين ، وقد أكلنا أرزاقنا بمجرد مغادرتنا السبايك ، ونفد تبغي ـ وهو أمرٌ يهمّ بادي على الأقل ، مادام يلتقط أعقاب السجائر . حاولنا دخول كنيستين فوجدناهما مغلقتين . وحاولنا الاستراحة في مكتبة عامة ، لكنها كانت بلا مقاعد . اقترح بادي ، في أملٍ أخير ، أن نجرِّب بيتاً من بيوت روتون التي لا يسمح لنا بدخولها ، عادةً ، قبل السابعة . لكننا قد نتسلل إليها ، خِفيةً . سرنا حتى المدخل الفاخر (بيوت روتون فاخرة حقاً) وحاولنا أن نبدو مثل مقيمين حقيقيين ، وشرعنا نخطو إلى الداخل . فجأةً أغلق طريقنا ، شخصٌ متمددٌ في المدخل ، حادُّ القسَمات ، في موقع مسؤولية كما يبدو ، وقال :

« أكنتما نائمين هنا البارحة ؟ »

« لا »

« إذاً ، اغربا عن وجهي » .

أطعنا الأمر . ووقفنا ساعتين أخريين في ركن الشارع . الوقوف غير مريح ، لكنه علّمني ألا أستخدم تعبير « متسكع ركن الشارع » ، فربحتُ شيئاً .

في الساعة السادسة ذهبنا إلى أحد ملاجئ جيش الخلاص . ليس باستطاعتنا حجز أسرّة حتى الساعة الثامنة ، كما أننا لسنا متأكدين من أننا سنجد أماكن شاغرة ، لكن موظفاً نادانا بـ« الأخ » أدخلنا ، شريطة أن ندفع

ثمن كوبي الشاي . قاعة الملجأ الرئيسة ، تشبه مخزن حبوب ، وهي مطلية بالأبيض ، نظيفة وعارية بصورة مقبضة ، وليس فيها من نار . كان مائتان من الرجال المقبولين مظهراً يجلسون على مصاطب خشبية طويلة . وهناك موظفان يرتديان زيّاً موحداً يمشيان جيئةً وذهاباً . على الجدار صور للجنرال بوث ، وإعلانات عن منع الطبخ والتدخين والبصاق والسِّباب والعراك والقمار . ولأمثِّل على هذه الإعلانات ، أختارُ واحداً استنسختُه حرفياً :

> **« كل من وُجد يقامر أو يلعب الورق سوف يُطرد ، ولن يسمح له بالدخول تحت أي ظرف كان .**
> **تُمنح جائزة لكل إخبارٍ يؤدي إلى اكتشاف مثل هؤلاء الأشخاص .**
> **الموظفون المسؤولون يدعون كل الساكنين إلى مساعدتهم في الحفاظ على هذه المضافة خالية من شرّ القمار البغيض » .**

« المقامرة أو لعب الورق » تعبير بهيجٌ .

في نظري أن ملاجئ جيش الخلاص ، بالرغم من نظافتها ، هي أسوأ من بيوت الإقامة .

إن بعض الناس هناك ، ميؤوسٌ منهم تماماً ـ أنماط معقولة منكسرة من البشر الذين رهنوا ياقاتهم لكنهم لايزالون يحاولون الحصول على وظائف . والمجيء إلى ملجأ لجيش الخلاص ، حيث المكان نظيف في الأقل ، يمثل لديهم آخر تشبثٍ بالوقار . عند الطاولة المجاورة ، كان أجنبيان ، يرتديان أسمالاً ، لكنهما سيّدان كما يبدو عليهما . كانا يلعبان الشطرنج شفاهياً ، دون حتى أن يسجلا النقلات . كان أحدهما أعمى ، وسمعتهما يقولان إنهما كان يوفِّران منذ زمن طويل كي يشتريا رقعة شطرنج ، ثمنها نصف كراون ، لكنهما لم يفلحا البتة . هنا وهناك كان موظفون عاطلون عن

العمل ، غارقون في حالاتهم . وبين مجموعة منهم كان شابٌ طويل نحيفٌ شاحبٌ شحوب الموتى يتحدث باهتياج . كان يضرب الطاولة بقبضته ويواصل ادّعاءاته بأسلوب غريب محموم . وعندما صار الموظفان على غير مسمعٍ منه انفجر في عبارات كفرٍ مباغتة :

« أخبركم أيها الأولاد ، بأنني سوف أحصل على ذلك العمل غداً . أنا لست واحداً من كتيبتكم الراكعة اللعينة . أستطيعُ أن أتدبَّر أمري . أنظروا إلى ذلك الإعـــلان هناك! « الله كـــريم! »... إنه لم يتكرم عليّ بشيء . لن تجـــدوني أومن بالله . اتركـــه لي أيهـــا الأولاد . ســـوف أحـــصل على ذلك العمل »... الخ . الخ .

راقبته ، مصعوقاً بطريقة حديثه الوحشية الهائجة . بدا لي هستيرياً ، أو ثملاً قليلاً . بعد ساعة دخلت في حجرة صغيرة منفصلة عن القاعة الكبيرة ، أنوي القراءة . لم تكن فيـهـا كتب أو أوراق ، ولهـذا لا يكاد السـاكنون يدخلونها . وما أن دخلت حتى وجدت الموظف الشاب وحده هناك . كان يصلي راكعاً . قبل أن أغلق الباب ثانيةً ، أتيح لي أن أرى وجهـه ، وكان يتألم . وبغتةً أدركتُ من تعبير وجهه أنه كان جائعاً . أجرة السريرين كانت ثمانية بنسات . وبقي لدينا ، بادي وأنا ، خمسة بنسات ، وقد أنفقناها في « البار » حيث الطعام رخيص ، وإن لم يكن أرخص من بعض بيوت الإقامة الأخرى . وظهر لي أن الشاي معدٌ من « غبار » الشاي الذي قد يكون قُدِّمَ إلى جيش الخلاص تبرُّعاً ، مع أنهم يبيعونه بثلاثة بنسات ونصف البنس للكوب الواحد ، ولقد كان سائلاً عكراً . في الساعة العاشرة سار موظف حول القاعة مطْلقاً صفّارته . وعلى الفور انتصب الجميع واقفين .

قلت لبادي مستغرباً : « لمَ هذا ؟ »

« هذا يعني أن عليك الذهاب إلى النوم . ويجب أن تكون منضـــبطاً أيضاً » .

مثل الخراف ، سار الرجال المائتان ، طائعين ، إلى الفراش ، بإمرة

الموظفين . كان المهجع عِلِّيةً واسعة مثل حجرة ثكنة ، تحتوي على ستين فراشاً أو سبعين . الأفرشة نظيفة ومريحة ، لكنّ الأسرّة قريبة جداً من بعضها ، حتى أن المرء ليتنفس ، مباشرةً ، في وجه جاره . نام موظفان في المهجع كي يتأكدا أن أحداً لن يدخن ، أو يتحدث ، بعد إطفاء الأنوار . أنا وبادي لم تغمض لنا عين ، فقد كان إلى جوارنا شخص يعاني متاعب عصبية ، صدمةَ قنابل ربما ، جعلته يصرخ في فترات غير منتظمة «بيب! » . كان صوتاً عالياً ، مروِّعاً ، شيئاً مثل ما يصدره بوق سيارة صغير . أنت لا تعرف متى يجيء ، وهو بالتأكيد مانعٌ للنوم . وقد ظهر أن «بيب» كما يسميه الآخرون ، ينام بصورة منتظمة في الملجأ ، وأنه في كل ليلة ظل يوقظ عشرة أو عشرين من رقادهم . إنه أنموذجٌ لذلك الشيء الذي يمنع المرء من أن يأخذ كفاية نومه حين الناس مزدحمون في بيوت الإقامة هذه مثل خراف في حظيرة .

في الساعة السابعة ، انطلقت صفّارة أخرى ، ودار الموظفون كي يوقظوا من لم ينهضوا على الفور . مُذّاك نمتُ في عدد من ملاجئ جيش الخلاص ، ووجدت أنه بالرغم من الاختلاف الطفيف بين البيوت ، إلا أن الضبط شبه العسكري هو نفسه في جميعها . إنها رخيصة بالتأكيد ، غير أنها تشبه الورشات في رأيي . في بعضها صلوات إجبارية ، دينية ، مرة أو مرتين في الأسبوع ، على المقيمين حضورها وإلا أُخرجوا من البيت . والواقع أن جيش الخلاص مؤمنون تماماً بأنهم جهازٌ خيريّ إلى حدّ أنهم لا يستطيعون تسيير بيت إقامة بدون أن يجعلوا الرائحة النتنة للإحسان تفوح منه .

في الساعة العاشرة ذهبت إلى مكتب «ب» ، وسألته أن يقرضني باوناً . أعطاني باونين ، وأخبرني أن أعاود المجيء إليه حين الضرورة ، وهكذا تحررت أنا وبادي من متاعب النقود لمدة أسبوع في الأقل . تسكعنا طوال النهار في ساحة الطرف الأغر ، باحثين عن صديقٍ لبادي لم يظهر قَطُّ ، وفي الليل ذهبنا إلى بيت إقامة في زقاق خلفيّ قرب الستراند . كانت الأجرة

أحد عشر بنساً ، لكنه كان مكاناً معتماً ، كريه الرائحة ، وملاذاً شنيعاً للفتيان اللواطيين . أسفل البيت ، في المطبخ المضبَّب ، كان ثلاثة شبّان ذوو مظهر ملتبس وبدلات زرق أنيقة ، يجلسون وحدهم على مصطبة ، وقد أهملهم النزلاء الآخرون . أعتقد أنهم لواطيّون . وهم يبدون متماثلين مثل الشبّان الأباش في باريس ، باستثناء أن هؤلاء ليست لديهم سوالف طويلة . أمام النار كان رجلٌ بكامل لباسه يتساوم مع رجل بكامل عريه . كانا بائعي صحف . والرجل كامل اللباس يبيع ملابسه إلى الرجل العاري .

قال المشتري أخيراً ، بعد الاتفاق على السعر : «حسناً . اخلعْها الآن . عليَّ الخروج كي أبيع طبعتي المتأخرة» .

خلع البائع ملابسه ، وفي ثلاث دقائق تبادلا المواقع . وأسرع الآخر خارجاً مع لوحة الديلي ميل .

كان المهجع مظلماً ، ضيقاً ، فيه خمسة عشر سريراً . وتفوح رائحة بول شنيعة حتى أن المرء ليضطر إلى التنفس أنفاساً قصيرة كي لا يملأ رئتيه من هواء المكان الفاسد . وعندما تمددت في فراشي ، خرج رجلٌ من الظلام ، وانحنى عليّ ، وشرع يغمغم في صوت مهذّبٍ نصف مخمور :

«طالب مدرسة عامة قديم ، ماذا ؟ [كان سمعني أقول لبادي شيئاً] لا تلقى الكثير من المدرسة القديمة هنا . أنا خريج إيتون قديم . أنت تعرف ـ عشرون سنة في هذا الجو ، وكل ذلك» . ثم أخذ يردد أغنية إيتونية لسباق الزوارق :

«جوٌ بديعٌ للقوارب
والحصادُ تبنٌ...» .

صاح عدة نزلاء : «أوقفْ تلك الضجة!»

قال الإيتونيّ القديم : «منحطّون . منحطّون جداً . مكان ممتعٌ لك ولي ، إيه ؟ أتعرف ما يقول لي أصدقائي ؟ يقولون يا «م» لا نفع يرجى منك . وهذا صحيح ، إذ لا نفع يرجى مني ، فلقد خسرت مكانتي في العالم ،

ولست مثل هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يخسروا مكانتهم حتى لو أرادوا . نحن الخاسرين يجب أن نتعاون قليلاً . الشباب لايزال في وجوهنا ـ أنت تعرف . هل أقدِّمُ لك كأساً ؟ » .

أخرج قنينة من براندي الشيري ، وفي الوقت نفسه فقد توازنه ، فهوى ثقيلاً على ساقيَّ . ادرك بادي الذي كان يخلع ملابسه ، أمره ، وأوقفه على رجليه .

« عد إلى فراشك ، أيها البوم العجوز! »

مشى الإيتوني القديم ، مترنحاً إلى فراشه ، وزحف تحت الأغطية ، مرتدياً كل ملابسه ، حتى جزمته . سمعته في الليل ، يردد مرّاتٍ عدّة : « يا ـ م ـ لا نفع يرجى منك » كأن العبارة استهوته . في الصباح كان يرقد نائماً بكامل لباسه ، والقنينة بين ذراعيه . كان في حوالي الخمسين ، ذا وجه لطيفٍ منهكٍ ، وملابس تثير الاستغراب لأناقتها . وإنه لعجيبٌ أن ترى الجزمة الجلدية الممتازة تطل من ذلك الفراش القذر . وخطر لي أن قنينة براندي الشيري كلّفت ما يوازي إقامة أسبوعين ، ولهذا فمن الممكن أنه ليس في حالة فقر . ربما كان يرتاد بيوت الإقامة العادية بحثاً عن الشبان اللواطيين .

لم يكن الفراش يبعد عن الآخر أكثر من قدمين . استيقظت حوالي منتصف الليل لأجد الرجل الذي بجانبي يحاول سرقة نقودي من تحت مخدتي . كان يتظاهر بالنوم وهو يفعل ذلك ، ماداً يده تحت وسادتي في خفّة الفأر . في الصباح رأيته أحدب ، ذا ذراعين طويلتين كالقرد . أخبرتُ بادي بمحاولة السرقة . ضحك وقال :

« بحقِّ المسيح! يجب أن تعتاد على ذلك . بيوت الإقامة هذه ملأى باللصوص . في بعض البيوت لن تأمن إلا إذا نمت بكامل ثيابك . رأيتهم يسرقون ساقاً خشبية من مُقعد قبل الآن . مرةً رأيت رجلاً ضخماً يزن حوالي مائتي رطل يدخل في بيت إقامة ومعه أربعة باونات وعشرة بنسات . وضع المبلغ تحت حشيّته . قال : « كل من يلمس هذا المال يفعل ذلك على

جسدي» . لكنهم فعلوا ذلك على أي حال . في الصباح استيقظ ليجد نفسا على الأرض ، إذ رفع أربعة أشخاص حشيّته من أطرافها الأربعة ورفعوه معها فكان في خفّة الريشة . إنه لم ير باوناته الأربعة وبنساته العشرة ثانيةً» .

30

في الصباح التالي ، بدأنا نبحث ، ثانيةً ، عن صديق بادي ، المسمّى بوزو ، والذي كان فنّان رصيف . ليس للعناوين وجودٌ في عالم بادي ، لكن لديه فكرة غامضة عن احتمال أن نجد بوزو في لامبث ، وفي الأخير وجدناه عند سدّ الشاطئ ، حيث مَرْبعُه ، غير بعيد عن جسر واترلو . كان منحنياً على الرصيف مع صندوق طباشير ، ينسخ صورة لونستون تشرشل من دفتر ملاحظات . كان الشبه غير سيّئ إطلاقاً . كان بوزو رجلاً ضنيلاً ، أسمر ، معقوف الأنف ، جعد الشعر . ساقه اليمنى مشوّهة ، وقدمه ملتوية بحيث صار الكعب إلى الأمام في صورة فظيفة . قد يوحي مرآه بأنه يهوديّ ، لكنه اعتاد أن ينكر ذلك بشدة . كان يقول عن أنفه إنه «رومانيّ» ، ويتباهى بأنه يشبه إمبراطوراً رومانياً ما ـ هو فيسابسيان كما أعتقد .

لبوزو طريقة في الكلام غريبة . فهي لهجة الكوكني الدارجة ، غير أنها صافيةٌ معبِّرة . لكأنه قرأ كتباً جيدة إلا أنه لم يهتمّ قطّ بتصحيح نحوه . ظللنا أنا وبادي فترة عند سدّ الشاطئ ، نتحدث ، وقدّم لنا بوزو نبذةً عن حرفة الرسم على الأرصفة . وأنا أعيد هنا ، إلى هذا الحد أو ذاك ، ما قاله بكلماته :

«أنا أُدعى رسّام رصيف جاداً . أنا لا أرسم بطباشير السبّورات كما يفعل الآخرون ، بل أستعملُ ألواناً أصلية كالتي يستعملها الرسامون ، وهي

غالية جداً ، وبخاصة الأحمر . أنا أستعمل ما قيمته خمسة شلنات من الألوان في يوم طويل ، ولا أقل مما قيمته شلنان . اهتمامي الكارتون ـ أنت تعرف ، سياسة وكريكت وما إلى ذلك . ـ أراني دفتر ملاحظاته ـ هنا مُشابهات كل رجال السياسة التي نقلتُها من الصحف . لديّ كارتون جديد كل يوم . مثلاً ، حين أعلنت الميزانية ، رسمت كارتوناً لونستن وهو يحاول أن يدفع فيلاً عليه كلمة «ديون» ، وأسفل الكرتون كتبت : هل سيحرِّكه ؟ أترى ؟ بإمكانك أن ترسم كارتونات عن أي حزب من الأحزاب ، لكنّ عليك ألاّ تضع شيئاً لصالح الإشتراكية ، ذلك لأن الشرطة لن تطيق ذلك . مرةً رسمت كارتوناً فيه أفعوانُ البوا مع كلمة «رأسمال» يلتهم أرنباً مع كلمة «عمّال» . جاء الشرطيّ وشاهد الكارتون ، ليقول لي «امسح هذا ، وانتبهْ جيداً» . كان عليّ أن أمسح الكارتون . للشرطيّ الحقُّ في أن يطردك من المكان بدعوى التسكع ، وليس من الصواب الردُّ عليه» .

استفسرت من بوزو عمّا يكسبه من الرسم على الأرصفة . قال :

«في هذا الوقت من السنة ، حين لا مطر ، أكسبُ حوالي ثلاثة جنيهات بين الجمعة والأحد ـ الناس يقبضون أجورهم يوم الجمعة ، كما ترى . لا أستطيع العمل في المطر ، فالمطر يجرف الألوان رأساً . على مدار السنة ، أنا أكسب باوناً كل أسبوع ، لأنك لا تستطيع أن تفعل الكثير في الشتاء . في يوم سباق القوارب ، وفي يوم نهائيّ الكأس ، ربحتُ أربعة باونات . لكنّ عليك أن تقتطع النقود اقتطاعاً من الناس ، أنت تعرف ، ولن تحصل على شلن واحدٍ إذا اكتفيت بالجلوس والنظر . نصف بنس هو الهِبة المعتادة ، ولن تحصل على نصف البنس هذا إلا إذا تحدثت مع الناس وحاورتهم . فإن ردّوا عليك خجلوا من ألاّ يعطوك شيئاً . والأفضل أن تغيِّر رسْمتَك باستمرار ، لأنهم لو رأوك وأنت ترسم فسوف يتوقفون لمراقبتك . المشكلة أن المتسولين يأتون بمجرد أن تقوم بدورتك مع القبعة . أنت بحاجة إلى مُساعد في هذه اللعبة ، حقاً . تظل تعمل ، وتنجح في تجميع حشدٍ حولك ،

ويأتي المساعد كالعابر خلف ظهورهم . هم لا يعرفون أنه المساعد . وفجأة ينزع قلنسوته ، فتضع الناس بين نارين . لن تحصل على أي هِبةٍ من الناس الأنيقين . الناسُ غير الأنيقين ، والأجانبُ هم الذين يعطونك . بل إنني حصلت على ستة بنسات من يابانيين وسودٍ ومن إلى ذلك . إنهم ليسوا بخلاء مثل الإنجليزي . وعليك أيضاً أن تتذكر إخفاء نقودك ، ما عدا بنساً واحداً في القبعة . الناس لن يعطوك إن رأوا أنّ لديك جنيهاً أو اثنين » .

بوزو يكنّ احتقاراً عميقاً لرسامي الرصيف الآخرين عند سدّ الشاطئ . وهو يسمّيهم « جحوش السالمون » . في تلك الأيام ، كان رسّام رصيف عند كل خمس وعشرين ياردةً ، على امتداد سدّ الشاطئ ، وهي أقل مسافةٍ فاصلة معتبرة بين رسّام وآخر . أشار بوزو ، باحتقار ، إلى رسّام رصيف عجوز ، شائب اللحية ، على مبعدة خمسين ياردة .

« أترى ذلك الأحمق الغبيّ العجوز ؟ لقد ظلّ يرسم الصورة ذاتها ، يومياً ، لمدة عشر سنوات . يسمّي صورته « الصديق المخلص » ، وهي عن كلب يسحب طفلاً من الماء . النغلُ العجوز الغبيّ لا يستطيع أن يرسم أفضل من طفل ذي عشر . لقد تعلّم تلك الصورة حسب طريقة الإبهام ، مثل ما تجمع أجزاء صورة في لغز . ثمت العديد من أمثاله ، يجيئون أحياناً ليسرقوا أفكاري ، لكنني لا أهتمّ . الأغبياء لا يستطيعون أن يفكروا بشيء خاصٍ بهم ، لذا فأنا أتقدمهم دائماً . شغل الكارتون مع الوقت . مرةً حصرَ طفلٌ رأسه بين قضبان حاجز جسر تشيلسي . حسناً ، سمعت بالنبأ ، فكان كارتوني مرسوماً على الرصيف قبل أن يخرجوا رأس الطفل من بين القضبان . أنا مستعدٌ » .

بدا بوزو شخصاً ممتعاً ، وكنت أتلهف لأن أعرفه أكثر . عصر ذلك اليوم ذهبت إلى سدّ الشاطئ كي أراه ، فقد رتّبَ أن يأخذني وبادي إلى بيت إقامة جنوبيّ النهر . مسح بوزو رسومه عن الرصيف ، وعدّ ما كسبه ، ستة عشر شلناً ، سيكون ربحه الصافي منها اثني عشر أو ثلاثة عشر شلناً . سرنا إلى

لامبث . بوزو يعرج في سيره البطيء ، مع حيوية غريبة تشبه حركة السرطان ، نصف مستدير ، ساحباً ساقه المشوّهة خلفه . إنه يحمل عصا في كل يد ، ويدلّي صندوق ألوانه على كتفه . وبينما كنا نعبر الجسر توقّفَ عند إحدى الفجوات كي يستريح . أخلدَ إلى صمت دقيقةً أو دقيقتين ، ولدهشتي رأيته ينظر إلى النجوم . لمس ذراعي وأشار إلى السماء بعصاه .

«قُلْ ، ألا تنظر إلى الدَّبران! أنظر إلى اللون . مثل برتقالة دم عظيمة!» .

من طريقة كلامه ، يمكن التفكير في أنه ربما كان ناقداً فنياً في رواق صور . لقد دُهشتُ ، واعترفتُ بأنني لا أميِّز الدَّبران ، حقاً ، ولم ألحظ من قبلُ أن للنجوم ألواناً مختلفة . شرع بوزو يقدم لي بضع معلومات عن الفلك ، مشيراً إلى المجرات الكبرى . يبدو أنه قلقَ لجهلي . قلت له مندهشاً :

«يبدو أنك تعرف الكثير عن النجوم» .

«ليس الكثير . لكني أعرف شيئاً عنها . تسلّمتُ رسالتين من الفلكيَ الملكيَ يشكرني فيهما على كتابتي عن الشُّهب . النجوم عرضٌ بالمجّان . واستعمالُ عينيك لن يكلفك شيئاً» .

«أي فكرة جيدة! إنها لم تخطر لي» .

«حسناً . عليك أن تهتم بشيء . كونُ المرء يذرع الطرقات لا يعني أن يفكر بالشاي وشريحتي الخبز فقط» .

«لكن ، أليس صعباً أن تهتم بأشياء ، أشياء مثل النجوم ، وأنت تحيا هذه الحياة ؟» .

«أتعني الرسم على الرصيف ؟ ليس بالضرورة . هذه الحرفة لن تحوّلك إلى أرنب لعينٍ ، إذا صمَّمتَ» .

«يبدو أن لها ذلك التأثير في معظم الناس» .

«طبعاً . أنظرْ إلى بادي . إنه مدمن شاي متسكع عجوز ، صالحٌ فقط لالتقاط أعقاب السجائر . هذه هي الصفة الغالبة عليهم . إنني أحتقرهم .

لكنك لستَ مضطراً لأن تكون هكذا . إن كان لديك أي تعليم ، فلن يهمّك أن تظل تذرع الطرقات طوال حياتك » .

قلت : « حسناً . لكني وجدت العكس . ويبدو لي أنك لو سلبتَ أحداً ماله فلن يصلح لشيء منذ تلك اللحظة » .

« لا . ليس بالضرورة . إن صممتَ فبمقدورك أن تحيا الحياة ذاتها ، فقيراً كنتَ أم غنياً . بمقدورك أن تظل مع كتبك وأفكارك . فقط عليك أن تقول لنفسك « أنا رجلٌ حرٌّ هنا » ـ ودقَّ على جبهته ـ كي تكون بخير » .

ظلَّ بوزو يتحدث أكثر في التوتر ذاته ، وأنصتُّ إليه بانتباه . بدا لي رسامَ رصيف غير عادي ، كما أنه أول شخص سمعته يقول بأن البؤس لا يهمّ . رأيته كثيراً في الأيام القليلة التي تلتْ . ولعدة مرات هطل المطر فما كان باستطاعته العمل . أخبرني بقصة حياته ، وكانت قصة غريبة .

إنه ابنٌ لبائع كتب مفلس . اشتغل في طلاء المنازل منذ الثامنة عشرة . ثم خدم ثلاث سنين في فرنسا والهند ، أثناء الحرب . بعد الحرب وجد في باريس عملاً لطلاء المنازل ، وأقام ثمت عدة سنوات . راقت له فرنسا أكثر من إنجلترا (وهو يحتقر إنجلترا) ، وكانت حاله جيدة في باريس ، فقد وفَّر مالاً ، واتخذ فتاةً فرنسية خطيبةً . في أحد الأيام سُحقت الفتاة حتى الموت تحت عجلات حافلة . ظل بوزو عاكفاً على الشراب أسبوعاً ، ثم عاد إلى العمل ، مختضاً . في الصباح نفسه سقط من سقّالة كان يعمل عليها من ارتفاع أربعين قدماً ، على الرصيف ، وسُحقت قدمه اليمنى سحقاً . ولسبب ما تلقّى ستين باوناً فقط تعويضاً . عاد إلى إنجلترا ، وصرف ماله باحثاً عن عمل . جرَّب البيع المتنقل للكتب في سوق شارع ميدل سكس ، ثم جرَّبَ بيع الدمى من صينية ، وأخيراً استقرَّ على رسم الرصيف . عاش عيشة كفاف مُذّاك ، نصف جائع في الشتاء ، ينام غالباً في السبايك أو على سدّ الشاطئ . حين عرفته لم يكن يملك إلا الثياب التي يرتديها ، وأدوات رسمه ، وبعض الكتب . ملابسه كانت أسمال الشحاذ المألوفة ، غير أنه يلبس ياقة وربطة

عنق يتباهى بهما . الياقة ، وعمرها أكثر من سنة ، دائمة الدوران حول رقبته ، واعتاد بوزو أن يثبتها بحواشٍ يقتطعها من طرف قميصه ، حتى صار قميصه بدون طرف . ساقه المعطوبة تزداد سوءاً ، وربما كان ينبغي بترها . أما ركبتاه فقد تقرَّن جلدهما من كشرة الركوع على الأرصفة ، فغدتا مثل كعبي حذاء . والواضح أن ليس له من مستقبل سوى التسول أو الموت في ورشة .

مع هذا كله ، لم يكن ليشعر بالخوف ، أو الندم ، أو رثاء النفس . لقد واجه موقفه ، وصنع فلسفته . يقول إن كونه فقيراً ليس خطأه ، وهو يرفض أن يحسَّ بأي وخز إزاء هذا الفقر ، ولا يدعه يزعجه . كان عدوَّ المجتمع ، مستعداً كامل الاستعداد لارتكاب جريمة حين يرى الفرصة مواتية . يرفض مبدئياً أن يكون شحيحاً . في الصيف لا يوفِّر شيئاً ، وينفق رزقه الفائض على الشراب ، فهو لا يهتم بالنساء . أما إذا أمسى خالي الوفاض آن الشتاء ، فعلى المجتمع التكفل بأمره . كان مستعداً لانتزاع أي بنس يستطيعه من الجهات الخيرية ، شرط ألاّ يقول شكراً . وهو يتجنب الجهات الخيرية الدينية ويقول إن حنجرته لا تقبل أن يغني الترانيم مقابل الكعك . إن لديه صفاتٍ شريفة متنوعة ، فهو يفتخر ، مثلاً ، بأنه لم يلتقط عقب سجارة ، حتى لو كان يتضور جوعاً . ويعتبر نفسه في مرتبة أعلى من المتسولين المعتادين ، الذين يرى فيهم قوماً أدنياء ، لا يتمتعون حتى بميزة أن يكونوا جاحدين .

يتحدث بالفرنسية بين حين وآخر ، وقرأ بعض روايات زولا ، وكل مسرحيات شكسبير ، ورحلات جليفر ، وعدداً من المقالات . باستطاعته أن يصف مغامراته في كلمات يتذكرها المرء . قال لي ، مثلاً ، وهو يتحدث عن الجنائز :

«أرأيتَ ، مرةً ، جثةً تُحرَق ؟ أنا رأيت ذلك في الهند . هم يضعون الرجل العجوز على النار ، وفي اللحظة التالية كدت أخرج من جِلدي ، لأنني رأيت الرجل يَرفس . كانت عضلاته فقط تنكمش من الحرارة ، لكنني

فزعت . كان ينتفض قليلاً مثل سمكة على الجمر ، ثم انفجرت معدته بفرقعة يمكن سماعها من بعد خمسين ياردة . لقد جعلني المشهد أقف ضد حرق الموتى » .

أو ، ما قاله بصدد حادث سقوطه :

« الطبيب قال لي « أنت سقطت على قدم واحدة ، يا رَجُلي ، وإنك لمحظوظٌ إذ لم تسقط على قدميك كلتيهما فتنطبق مثل الكونسرتينا ، ويخرج عظما وركيك من أذنيك! » .

واضحٌ أن العبارات لم تكن للطبيب ، بل كانت لبوزو . لقد استطاع أن يبقي ذهنه سليماً منتبهاً ، وهكذا عجز أي شيء عن جعله يستسلم للبؤس . قد يرتدي الأسمال ، ويشعر بوطأة البرد ، ويتضور جوعاً ، غير أنه كما قال لي ، يظل حراً ، مادام يستطيع القراءة والتفكير ومراقبة النجوم .

كان ملحداً حدَّ المرارة (من نمط الملحد الذي لا يتعلق الأمر بعدم إيمانه بالله ، وإنما بالبغض الشخصي له) ، ويحسّ بنوع من السرور في التفكير بأن شؤون الإنسان لن تتحسن إطلاقاً . قال لي إنه يجد سلواه ، وهو نائم على سدّ الشاطئ ، يراقب المريخ أو المشتري ، حين يفكر باحتمال أن يكون هناك أناسٌ نائمون على السدّ . وعنده نظرية عجيبة حول هذا . يقول إن الحياة على الأرض قاسية ، لأن الكوكب فقير في ضروريات العيش . والمريخ ، بجوه البارد ومائه الشحيح يجب أن يكون أفقر ، والحياة أقسى بالتالي . وبينما تكون عقوبتك في الأرض ، السجن ، حين تسرق ستة بنسات ، فإنك في المريخ قد تشوى حياً .

هذه الفكرة تبهج بوزو ، ولا أدري لماذا . لقد كان شخصاً جدَّ استثنائي .

31

أجرة المبيت ، في بيت إقامة بوزو ، تسعة بنسات للّيلة . كان مكاناً واسعاً ، مزدحماً ، بتجهيزات تكفي خمسمائة شخص ، وموئلاً للمتشردين ، والشحاذين ، والمجرمين الصغار . كل الأعراق ، حتى السود والبيض ، مختلطون فيه ، ضمن شروط المساواة . ثمت هنود أيضاً ، وحين تكلمت مع أحدهم بلغة أوردو رديئة أجابني بكلمة يرتعد لها المرء لو كان في الهند . لقد صرنا تحت مستوى التحامل العرقيّ . يطّلع المرء على لقطات من حيوات غريبة . «الجد» العجوز ، وهو متشرد في السبعين يعتاش في الغالب على جمع أعقاب السجائر وبيع تبغها بثلاثة بنسات للأونصة . «الطبيب» ـ وكان طبيباً حقيقياً شُطب اسمه من سجل الأطباء بتهمة ما ، يعيش إلى جانب بيعه الصحف ، على استشارات طبية مقابل بضعة بنسات كل مرة . بحّارٌ صغير من تشيتاغونيا ، حافٍ وجائعٌ ، كان هجر سفينته ، وظل يطوف أياماً في لندن ، ضائعاً ، مسكيناً ، إلى حد أنه لا يعرف في أي مدينة هو . كان يظن أنه في ليفربول حتى أخبرتُه . كاتبُ رسائل تسوُّلٍ ، صديق لبوزو ، يكتب رسائل مؤثرة طالباً العون لدفع نفقات جنازة ، جنازة زوجته ، وعندما تبلغ رسالةٌ مقصدها يملأ جوفه حتى الانفجار بالخبز والمرغرين . كان شخصاً مقرفاً كالضبع . تحدثت إليه ، ووجدته مثل سائر المحتالين ، يصدق معظم أكاذيبه . كان بيت الإقامة هذا ، مرتعاً وملاذاً ، لمثل هذه النماذج .

حين كنت مع بوزو علّمني شيئاً عن تقنيّة التسول اللندني . والأمر أعقد مما يُتصوَّر . المتسولون يختلفون اختلافاً شديداً ، وهناك خطّ اجتماعي حادّ بين أولئك الذين يتسولون حسبُ ، وأولئك الذين يحاولون إعطاء قيمة ما للنقود . كما أن المبالغ التي يمكن كسبها من الحيل المختلفة ، مختلفة أيضاً . أما الحكايات التي ترويها صحف الأحد عن متسولين ماتوا ليتركوا ألفي باون مخيطةً في سراويلهم ، فهي أكاذيبُ محضٌ . لكن الفئة العليا من الشحاذين يحالفها الحظ ، فيكسبون أجرة أسابيع في كل ضربة . المتسولون الميسورون أكثر من سواهم ، هم أكروباتيو الشوارع وفوتوغرافيّوها . في موقع مناسب ـ مكان اصطفاف لدخول مسرح مثلاً ـ غالباً ما يحصل أكروبات الشارع على خمسة باونات في الأسبوع . فوتوغرافيو الشوارع قد يكسبون المبلغ ذاته ، لكن عملهم يعتمد على الطقس اللطيف . ولهؤلاء حيلهم في ترويج حرفتهم . فحين يرون ضحيةً ممكنةً ، مُقبلةً ، يسرع أحدهم ليكون خلف الكامرا ، ويتظاهر بأنه التقط صورةً . وعندما تصل الضحية إليهم ، يهتفون :

«هاأنتذا ، سيدي ، خذ صورتك اللطيفة ، الثمن شلن» .

تحتجّ الضحية : «لكني لم أسألكم أن تلتقطوها» .

«ماذا ؟ أنت لا تريد أن تأخذها ؟ لماذا ؟ نحن حسبنا أنك أومأت بيدك . حسناً . لقد خسرنا لوحة! هذا يكلفنا ستة بنسات» .

آنذاك تشعر الضحية بالشفقة ، فتقول إنها ستأخذ الصورة بعد كل ذلك . المصورون يفحصون لوحة الفيلم ويقولون إنها فاسدة ، وإنهم سيلتقطون صورة جديدة مجاناً . هم لم يلتقطوا الصورة الأولى ، طبعاً ، وهكذا لن يخسروا شيئاً ، لو رفضت الضحية .

العازفون على الأرغن ، مثل الأكروبات ، يعتبرون فنانين أكثر من كونهم شحاذين . وقد أخبرني عازف أرغن ، اسمه شورتي ، وهو أحد أصدقاء بوزو ، كل شيء عن حرفته . هو وزميله «يشغِّلون» المقاهي

والحانات حول وايت تشابل وكوميرسيال رود . من الخطأ القول إن عازفي الأرغن يكسبون رزقهم في الشارع . إن تسعة أعشار نقودهم تؤخذ من داخل المقاهي والحانات ـ الحانات الرخيصة فقط ، فهم ممنوعون من دخول الحانات ذات المستوى الرفيع .

يتبع شورتي طريقةً معينة ، وهي أن يقف خارج حانةٍ ويعزف لحناً ، بعد ذلك يتقدم زميله ، وهو ذو ساقٍ خشبية تثير الرأفة ، ويدخل ، دائراً بقبعته . وممّا يعتبره شورتي مسألة شرف ، أن يعزف دائماً لحناً ثانياً بعد تلقّيه الهِبة . أما فكرته فهي أنه مُسلٍّ أصيل ، وليس كمن يُدفع له ليُصرَف . يكسب شورتي وزميله باونين أو ثلاثة باونات في الأسبوع ، بينهما ، لكنهما لا يربحان في الواقع إلا باوناً واحداً لكل منهما ، إذ يتعيّن عليهما دفع الإيجار الأسبوعي للأرغن ، وهو خمسة عشر شلناً . وهما يطوفان الشوارع منذ الثامنة صباحاً ، حتى العاشرة ليلاً ، وأكثر من ذلك في أيام السبت .

رسّامو الأرصفة يُدعَون أحياناً فنانين ، وأحياناً لا . قدّمني بوزو إلى واحد كان فناناً «حقيقياً» ـ أي أنه درس في باريس ، وقدّم صوراً إلى الصالون في أيامه . كان اختصاصه استنساخ الرسّامين العظام ، وكان يفعل ذلك فعلاً رائعاً ، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنه يرسم على الحجر . أخبرني كيف بدأ يعمل رسّام رصيف :

«زوجتي وأولادي كانوا يتضورون جوعاً ، وكنت أسير ليلاً عائداً إلى المنزل ، مع لوحات كثيرة كنت أدور بها على المتعاملين ، وكنت أفكر بأي طريقة أستطيع الحصول على باون أو اثنين . وإذا بي أرى ، في الستراند ، شخصاً منحنياً يرسم على الرصيف ، والناس يعطونه بنسات . وعندما مررت به ، قام ، ودخل في حانة . فكّرتُ (اللعنة! إن كان باستطاعته الحصول على نقود هكذا ، فأنا قادرٌ) . وبتأثير هذا الحافز انحنيت وبدأت أرسم بالطباشير . الله يعلم كيف فعلتُها . ربما كان رأسي خفيفاً بسبب الجوع .

الشيء الغريب هو أنني لم أستعمل الباستل من قبل ، وكان عليّ أن أتعلم تقنياته خلال العمل . حسناً ، شرع الناس يتوقفون ويقولون إن رسومي ليست سيئة ، وأعطوني تسعة بنسات . في هذه اللحظة خرج الشخص الآخر من الحانة ، وقال : (ماذا تفعل في مكاني ؟) . بيّنتُ له أنني كنت جائعاً ، محتاجاً أن أكسب شيئاً . قال : (أوه ، تعال وخذ كأساً معي) . هكذا أخذت كأساً ، ومن حينها غدوتُ رسّام رصيف . إنني أكسب باوناً في الأسبوع ، لكن من حسن حظي أن زوجتي تكسب قليلاً من الخياطة .

أسوأ شيء في هذه الحياة ، البردُ ، والتالي في سوئه هو التدخل الذي يجب أن ترضخ له . في البداية ، وكنت غير عارف بما يكفي ، ألفتُ أحياناً أن أنسخ امرأة عارية على الرصيف . أول ما فعلت ذلك كان خارج كنيسة القديس مارتن . خرج شخصٌ يرتدي السواد ، ربما كان من حراس الكنيسة ، وهو يتميز غضباً . صرخ بي : «أتظن أننا نرضى بهذه الفضيحة المشينة خارج بيت الله المقدس ؟» . هكذا تعيَّنَ عليَّ أن أمسحها . كانت تقليداً لفينوس بوتيشللي . مرة ثانية نسخت الصورة نفسها على سدّ الشاطئ . رآها شرطيّ عابر ، وبدون أن يتفوه بكلمة ، شرع يسير عليها حتى مسحها بقدميه الضخمتين المسطحتين» .

بوزو حدثني الحديث ذاته عن تدخل الشرطة . حين كنت معه ، كانت هناك قضية «سلوك غير أخلاقي» في هايد بارك ، تصرَّف فيها رجال الشرطة تصرفاً سيئاً . رسم بوزو كارتوناً لهايد بارك يظهر فيه رجال الشرطة مختبئين في الأشجار ، مع عبارة تقول : (اللغز ، جِدْ رجال الشرطة) . قلت له أليس من الأفضل وضع عبارة : (اللغز ، جِد السلوك غير الأخلاقي) ؟ لكن بوزو لم يوافق . قال إن أي شرطيّ يرى الصورة سوف يطرده ، ليفقد مكانه نهائياً .

في منزلة أدنى من رسامي الأرصفة ، يأتي من ينشدون الترانيم ، أو يبيعون الكبريت ، أو خيوط الأحذية ، أو الظروف التي تحتوي على بضع حبّات من اللافندر ـ تسمى عطراً بتعبير مهذب . هؤلاء الناس جميعاً ، هم

بكل صراحة شحّاذون ، يستغلون مظهراً من مظاهر البؤس ، ولا يتجاوز ما يكسبه واحدهم نصف كراون يومياً .

أما سبب تظاهرهم ببيع الكبريت وما إليه ، بدلاً من التسوّل الصريح ، فيعود إلى ما تتطلبه القوانين الإنجليزية غير المعقولة حول التسوّل . القوانين السارية تقضي ، إذا تقدمتَ إلى شخص غريب وطلبت منه بنسين ، بحبسك أسبوعاً ، في حال استدعاء ذلك الشخص شرطياً . لكن إذا أفسدتَ الجو بزعيقك : «أقرب ، يا إلهي ، إليك» ، أو خربشتَ بالطباشير على رصيف ، أو وقفت تحمل صينية فيها علب كبريت ـ وباختصار ، إذا جعلتَ من نفسك مصدر إزعاج ، فسوف تعتبر ذا حرفة مشروعة ، لا متسولاً . إن بيع الكبريت والغناء في الشوارع ، هما ، بكل بساطة ، جرائم قانونية . لكنها ليست جرائم مربحة ، فليس في لندن مغنٍّ أو بائع كبريت قادرٌ على تأمين خمسين ليرة في العام ـ وهو عائدٌ بائس للوقوف أربعاً وثمانين ساعة في الأسبوع على الناصية ، والعربات تأكل ظهرك .

يجدر بي أن أقول شيئاً عن الوضع الاجتماعي للمتسولين ، فحين يتعرف عليهم المرء ، ويجد أنهم بشرٌ عاديّون ، يصدمه الموقف الغريب الذي يتخذه المجتمع إزاءهم . ويبدو أن الناس يشعرون بأن ثمت اختلافاً جوهرياً بين المتسولين والناس «العاملين» . إنهم رِسٌّ منفصل ـ منبوذون ، مثل المجرمين والبغايا . العمال «يعملون» ، والمتسولون لا «يعملون» ، إنهم كائنات طفيلية بطبيعتهم . والمتعارف عليه أن المتسول لا «يكسب» رزقه ، مثل ما «يكسب» بنّاء القرميد أو الناقد الأدبي ، رزقه . المتسول زائدةٌ اجتماعية ، نتحمله لأننا نعيش في عصر إنسانيّ ، لكنه خسيسٌ في جوهره .

لكن لو دقق المرء النظر فلن يجد فرقاً «جوهرياً» بين معيشة المتسول ومعيشة عدد لا يحصى من الناس المحترمين . المتسولون لا يعملون ، كما يقال ، لكنْ ، ما «العمل» ، إذاً ؟ العامل غير الماهر يعمل ملوِّحاً برفش . المحاسب يعمل بإضافة أرقام . المتسول يعمل بوقوفه خارج الأبواب في كل

تقلبات الطقس ، ويصاب بالدوالي والتهاب القصبات المزمن... الخ . التسول حرفة ، شأنها شأن أي حرفة أخرى ، عديمة النفع ، بالطبع ـ لكن ثمت الكثير من الحرف المحترمة عديمة النفع . والمتسول باعتباره نمطاً اجتماعياً ، تمكن مقارنته بالعديد من الآخرين . وإنه لنزيهٌ ، صادقٌ ، مقارنةً بمعظم بائعي الأدوية ، وأفضل ذهناً إذا قارنّاه بمالك صحيفة من صحف الأحد ، وأكثر وداً من وكيل إيجار ـ ويمكن القول باختصار إنه من الطفيليات ، لكن الطفيليات غير الضارّة . ونادراً ما يأخذ من المجتمع أكثر من كفاف العيش . أما ما يبرره حسب أفكارنا الأخلاقية ، فإنه يدفع ثمنه ، مراراً ومراراً ، بمعاناته . وأنا لا أظن في المتسول شيئاً يجعله مختلف المرتبة عن الآخرين ، أو يعطي معظم الرجال العصريين حقَّ احتقاره .

ثم يأتي السؤال : لماذا يُحتقر المتسولون ؟ ـ ذلك لأنهم محتقرون على نحو شامل . أعتقد أن لهذا سبباً بسيطاً ، هو أنهم أخفقوا في كسب حياةٍ لائقة . عملياً ، لا يهتم أحدٌ إن كان العمل نافعاً أم غير نافع ، منتجاً أم طفيلياً ، الأمر المطلوب الوحيد أن يكون العمل مربحاً . في كل الكلام الحديث عن القدرة ، والكفاءة ، والخدمة الاجتماعية ، وما إلى ذلك ، أهناك معنى آخر غير «اكسب مالاً ، اكسبه بطريقة مشروعة ، واكسب منه الكثير» ؟

لقد صار المال اختبار الفضيلة الأكبر . في هذا الاختبار يفشل المتسولون ، ولهذا يُحتقرون . ولو أمكن كسب عشرة باونات أسبوعياً من التسول ، لصار التسول مهنة محترمة ، على الفور . إذا نظرنا إلى المتسول نظرة واقعية ، فلسوف نجده ببساطة ، رجلَ أعمال ، ومثل رجال الأعمال الآخرين يكسب رزقه ، بالطريقة التي يعتمدها . وهو لم يبع شرفه أكثر مما فعل معظم الناس . لقد أخطأ ، فقط في اختياره مهنة يستحيل معها أن يصير غنياً .

32

أريد أن أدوّن بعض الملحوظات ، المختصرة قدر الإمكان ، عن دارجة لندن وشتائمها . لقد حذفت المعروف منها ، لأذكر الآتية :

A gagger ـ متسول ، أو لاعبٌ في الشارع من أي نوع

A moocher ـ المتسول صراحة بدون أن يدَّعي حرفةً

A nobber ـ من يجمع البنسات لشحّاذ

A chanter ـ مغنّي شارع

A chodhopper ـ راقص شارع

A mugfaker ـ مصور فوتوغرافي في الشارع

A glimmer ـ شخص يراقب السيارات الفارغة

A gee (or jee) ـ متواطئ مع مُتاجر بالسلع الرخيصة ، يشجع المهنة متظاهراً بالشراء

A split ـ مُخبر سري

A flattie ـ شرطي

A dideki ـ غجري

A tobi ـ متشرد

A drop ـ نقود تعطى إلى متسول

Funkum ـ لافندر أو عطر آخر يباع في مظاريف

A boozer ـ مَشربٌ عامّ

A slong ـ إجازة بائع جوّال
A hip ـ مكان للنوم ، أو مبيت
Smoke ـ لندن
A judy ـ امرأة
The spike ـ مبيتٌ عابر
The lump ـ مبيتٌ عابر
A tosheroon ـ قطعة نقد بنصف كراون
A deaner ـ شلن
A hog ـ شلن
A sprowsie ـ ستة بنسات
Clods ـ قطع نقدية نحاسية
A drum ـ علبة صفيح لإعداد الشاي
Shackles ـ حساء
A chast ـ قملة
Hard-up ـ تبغ مصنوع من أعقاب السجائر
A stick or cane ـ عتلة اللصّ
A peter ـ خزانة
A bly ـ مشعل الأسيتلين الذي يستعمله اللص
To bawl ـ أن يمتص أو يبتلع
To knock off ـ أن يسرق
To skipper ـ أن ينام في العراء

حوالي نصف هذه الكلمات موجود في المعاجم الكبيرة . ومن الممتع أن يحزر المرء أصول بعضها ، مع أن واحدة أو اثنتين منها عصيّة على هذا ، مثل Funkum وTosheroon . ربما جاءت Deaner من Denier ، وGlimmer مع

الفعل to glim قد تكون لها علاقة مع الكلمة القديمة glim التي تعني الضوء ، أو كلمة قديمة أخرى glim تعني لمحةً ، لكنها لحظة تكوُّن كلمات جديدة ، فهي في صيغتها المضارعة لاتكاد تكون أقدم من motor-cars . كلمة Gee غريبة ، وربما جاءت من gee أي حصان ، بمعنى الحصان الدريئة . أصل كلمة Screever غامض . ربما جاءت من كلمة Scribo ، لكن لم توجد في اللغة الإنجليزية كلمة تماثلها في الأعوام المائة والخمسين الماضية ، كما لا يمكن أن تجيء مباشرة من اللغة الفرنسية ، لأن الرسّامين على الأرصفة غير معروفين في فرنسا . كلمتا Judy وBawl من كلمات الإيست إند ، وليس لهما وجود غربيّ جسر البرج . كلمة Smoke يستعملها المتشردون فقط . Kip كلمة دانيماركية . حتى وقت قريب كانت كلمة Doss تستعمل بهذا المعنى ، لكنها الآن ميتة تماماً .

يبدو أن دارجة لندن ولُكنتها تتغيران بسرعة . إن اللكنة اللندنية القديمة التي وصفها ديكنز وسُرتيس ، حيث حرف V مكان W ، وW مكان V ، اختفت نهائياً الآن . لهجة الكوكني التي نعرفها يبدو أنها ولدت في الأربعينيات (جرت الإشارة إليها أولاً في كتاب أميركي هو كتاب هيرمان ملفيل «السترة البيضاء») ، والكوكني تتغير أيضاً ، فلن تجد أحداً يقول fice مكان face ، وnawce مكان nice وما إلى ذلك مما كان يقوله الناس قبل عشرين عاماً .

الدارجة تتغير مع اللكنة ، فقبل خمس وعشرين أو ثلاثين سنة كانت الدارجة المنغَّمة شائعة في لندن . كل شيء كان يسمّى مع ما يتناغم معه . hit or miss لكلمة kiss ، Plates of meat لـfeet ، الخ . وكانت الدارجة المنغَّمة من الشيوع بحيث استعملت في الروايات ، أما الآن فكادت تختفي . والكلمات التي أوردتُها قد تختفي خلال السنين العشرين الآتية .

كلمات السِّباب تتغير أيضاً ـ أو أنها تخضع للموضة . مثلاً ، كانت الطبقة العاملة في لندن قبل عشرين عاماً تستعمل كلمة bloody . الآن

تركوها تماماً ، مع أن الروائيين لايزالون يستعملونها . ولا أحد من مواليد لندن (دع ذوي الأصول الاسكتلندية أو الإيرلندية) يقول الآن bloody إلا إذا كان حاصلاً على تعليم . الواقع أن الكلمة ارتقت في السلّم الاجتماعي ولم تعد كلمة سباب لدى الطبقة العاملة . والنعت اللندني ، الملصق بكل اسم ، الآن ، هو ـــ ولا شك في أن هذا النعت سوف يجد طريقه ، يوماً ما ، إلى غرفة الاستقبال ، لتستبدل به كلمة أخرى .

إن أمر السباب ، السباب الإنجليزي بخاصة ، لَغامضٌ . إن طبيعة السباب غير عقلانية شأنها شأن السحر ـ والحقُّ أنها من نوع السحر . لكن فيها أيضاً مفارقة : إن هدفنا من السباب هو أن نصدم ونجرح ، وهذا ما نفعله حين نذكر شيئاً ينبغي أن يظل سرّاً مكتوماً ـ والعادة أن يكون هذا الشيء متصلاً بالوظائف الجنسية . لكن الأمر الغريب هو أن الكلمة ما إن غدت كلمة سباب حتى فقدت معناها الأصلي ، أي أنها تفقد ما جعلها كلمة سباب . الكلمة تصبح شتيمة لأنها تعني شيئاً معيناً ، ولأنها صارت شتيمة ، لم تعد تعني ذلك الشيء . مثلاً ـــ لم يعد اللندنيون يستعملون الكلمة بمعناها الأصلي إلا نادراً . إنها على شفاههم ليل نهار ، لكنها مجرد حشو . كلمة ـــ ، أيضاً ، لاتزال تستعمل أحياناً في باريس ، لكن الناس الذين يستعملونها ، أو معظمهم ، ليست لديهم فكرة عمّا كانت تعنيه . والقاعدة ، كما يبدو ، أن الكلمات المقبولة باعتبارها سباباً تمتلك نوعاً من الطبيعة السحرية ، التي تجعلها منفصلة ، وعديمة الفائدة في الحديث الاعتيادي .

الكلمات المستعملة للإهانة يبدو أنها محكومة بالمفارقة ذاتها مثل كلمات السباب . يفترض المرء أن كلمة تغدو إهانةً لأنها تعني شيئاً سيئاً ، لكن الواقع أن قيمة الإهانة الموجودة فيها ليست لها علاقة بمعناها الفعليّ . وعلى سبيل المثال ، فإنّ أقسى إهانة توجَّه إلى لندني هي كلمة bastard التي لاتكاد تكون إهانةً إذا رجعنا إلى معناها . وأسوأ إهانة توجه إلى امرأة ، سواء في باريس أو لندن ، هي كلمة cow ، وهو اسم قد يكون مدعاة

مديح ، فالأبقار هي من خير الحيوان . واضح أن الكلمة إهانة ، لأن المقصود بها أن تكون إهانة ، بدون الرجوع إلى معناها المعجميّ . الكلمات ، وبخاصة كلمات السباب ، تكون ما أراد الرأيُ العام أن تكونه . وفي هذا السياق ، يغدو ممتعاً ، أن نرى كيف أن كلمة سباب تغيّرُ طبيعتها بمجرد اجتيازها الحدود . في إنجلترا بمقدورك أن تطبع je m'en fous دون احتجاج من أحد ، أما في فرنسا فيجب أن تطبعها je m'en f___ . وكمثال آخر ، خذ كلمة barnshoot ، وهي تشويه للكلمة الهندستانية bahinchut وهي شتيمة لا تغتفر في الهند . هذه الكلمة هي جزء من مزاج مهذب في إنجلترا . بل لقد رأيتها في كتاب مدرسيّ ، وكانت في إحدى مسرحيات أريستوفان ، وقد بيّنَ الشارح أنها تعود إلى الرطانة التي تحدث بها السفير الفارسي . المفترض أن الشارح يعرف معنى bahinshut ، لكنها ، باعتبارها أجنبية ، فقدت الخاصيّة السحرية للشتيمة الموجودة فيها ، وصار بالإمكان طباعتها . يلاحظ أمرٌ آخر في السباب اللندني ، وهو أن الرجال عادةً لا يشتمون بحضور النساء . أما في باريس فالمسألة مختلفة تماماً . قد يفضل العامل الباريسي ألا يشتم بحضور امرأة ، لكنه غير ملتزم بهذا التزاماً كاملاً ، والنساء الفرنسيات يشتمن بحريّة . اللندنيون أكثر تهذيباً أو حشمةً في هذا الأمر .

هذه ملحوظات قليلة أوردتُها عشوائياً إلى هذا الحد أو ذاك . ومما يؤسف له أن أحداً من القادرين على هذا الموضوع لم يخصص كتاباً سنوياً لدارجة لندن وسبابها ، مسجلاً التغييرات بدقّة . إن هذا قد يلقي ضوءاً مفيداً على تكوُّن الكلمات وتطورها وزوالها .

33

الباونان اللذان أعطانيهما «ب» ، ظلاّ معي حوالي عشرة أيام . وكان سبب استمرارهما هذا الوقت كله ، يعود إلى بادي الذي تعلّم البخل على الطريق ، حتى صار يعتبر الوجبة الجيدة الوحيدة في اليوم ، إسرافاً شنيعاً . لقد صار الطعام يعني عنده ، مجرد الخبز والمرغرين ـ الشاي والشريحتين الأبديتين ، مما سيخدع الجوع ساعةً أو ساعتين . علّمني كيف أعيش ، وآكل ، وأبيت ، وأدخن ، بمعدل نصف كراون في اليوم . كما أنه استطاع كسب شلنات إضافية من مراقبته السيارات الفارغة في العشيّات . إنه عملٌ محفوفٌ بالمخاطر ، لأنه غير قانونيّ ، لكنه ينفعنا قليلاً .

في صباحٍ ما جرّبنا التقدم إلى عمل شغّيلة شطائر . ذهبنا في الخامسة صباحاً إلى زقاقٍ خلف بعض المكاتب ، لكن كان هناك طابورٌ ينتظر من ثلاثين إلى أربعين رجلاً ، وبعد ساعتين أخبرونا أن لا عمل لنا . لم نخسر الكثير ، إذ أن عمل شغيلة الشطائر لا يُحسد عليه . هم يقبضون حوالي ثلاثة شلنات في اليوم ، عن عمل عشر ساعات ـ إنه عمل شاقّ ، وبخاصة حين تهبّ الرياح . ليس من تراخٍ هناك ، إذ أن مفتشاً يمرّ غالباً ليتأكد من أن الرجال منهمكون . وزيادةً في متاعبهم ، يتم تشغيلهم مياومةً ، أو لثلاثة أيام أحياناً ، لكن ليس لأسبوع ، مما يجعلهم ينتظرون ساعاتٍ ، كي يعملوا ، كل صباح . عدد العاطلين المستعدين للعمل يجعلهم عاجزين عن

المطالبة بتحسين معاملتهم . العمل الذي يؤديه رجال الشطائر هو توزيع إعلانات يدوية ، ويتم الدفع حسب التوزيع . هكذا عندما ترى رجلاً يوزع إعلانات يدوية ، فتفضَّلْ عليه بشراء واحدٍ ، لأنه سوف ينهي عمله بتوزيع ما لديه من إعلانات .

في هذه الأثناء ، استمررنا في حياة بيت الإقامة ، وهي حياةٌ وضيعة ، رتيبة ، ذات ضجر قاتل . لأيام عدة لم يكن لدينا ما نفعله سوى الجلوس في المطبخ تحت الأرض ، نقرأ صحف أمس ، أو عدداً من مجلة يونيون جاك حين تقع أيدينا عليه . هطل مطرٌ كثير هذا الوقت ، وكل من يدخل يتصاعد منه بخار ، حتى صار المطبخ عطناً بصورة رهيبة . متعة المرء الوحيدة كانت الوجبة المنتظمة للشاي والشريحتين . لست أعرف كم عدد الناس الذين يَحيون في لندن هذه الحياة ـ يجب أن يكونوا آلافاً في الأقل . أما بالنسبة لبادي فكانت أفضل حياةٍ عاشها منذ عامين . استراحاته من التشرد ، الأوقات التي يحصل فيها على شلنات قليلة ، كانت كلها مثل هذه . التشرد ذاته صار أسوأ قليلاً . حين تستمع إلى صوته الشاكي الباكي ـ كان يئنّ ويتوجع دائماً عندما لا يأكل ـ تدرك أي عذابٍ سبّبته البطالة له . يخطئ الناس حين يظنون أن العاطل عن العمل يقلق من أجل أجوره فقط ، فالأمر على الضد من ذلك ، إذ أن شخصاً أمياً يسري العمل في عروقه ، هو بحاجة إلى العمل أكثر من حاجته إلى المال . بإمكان الرجل المتعلم أن يتآلف والبطالة القسرية التي هي أسوأ شرور البؤس . لكن رجلاً مثل بادي ، لا يملك وسيلة لملء الفراغ ، سوف يغدو تعيساً خارج العمل ، تعاسة الكلب في سلسلته . لهذا يكون من السخف التظاهر بأن أولئك الذين « أزرى بهم الدهر » يستحقون الرأفة أكثر من سواهم . الشخص المستحق الشفقة هو من كان زريّ الحال منذ البداية ، مواجهاً البؤس بذهنٍ خاملٍ خامد .

لقد كان وقتاً كئيباً ، والقليل منه ظلّ في ذاكرتي ، باستثناء أحاديثي مع بوزو . مرةً غزا فريقٌ خيريٌّ بيت الإقامة . بادي وأنا كنا خارجه ، وحين

عدنا عصراً ، سمعنا أصوات موسيقى في الأسفل . هبطنا ، لنجد ثلاثة أشخاص مهذَّبين ، أنيقي الثياب ، يعقدون حفلاً دينياً في المطبخ . كانوا مكوّنين من سيّدٍ وقور يرتدي قباء الراهب ، وسيدةٍ تجلس على هارمونيوم محمول ، وشابٍّ بلا ذقن يتلاعب بصليب . وقد ظهر أنهم دخلوا ، عنوةً ، وبدأوا يعقدون حفلهم ، بدون أن يدعوهم أحدٌ ، أيّاً كان .

كان ممتعاً رؤية كيف واجه النزلاء هذا الاقتحام . النزلاء لم يتصرفوا إزاء المقتحمين المتدينين أيَّ تصرفٍ خشن . كل ما فعلوه أنهم أهملوهم تماماً . وبتفاهمٍ ضمنيّ عامّ تصرَّفَ من كانوا في المطبخ ـ ربما مائة رجل ـ كأنّ المتدينين لم يوجدوا ، قطُّ .

لقد وقفوا هناك ، مغنّين ، مرتِّلين ، صابرين ، ولم يعرهم أحدٌ انتباهاً ، أيَّ انتباه ، كأنهم ثلاثة من أبو مقصّ . السيّد ذو القباء ألقى موعظة ، لكن لم تُسمع كلمة واحدة منها ، إذ تلاشت في ضجة الغناء المعتادة ، والشتائم ، وقرع القدور . وجلس الرجال على مبعدة ثلاثة أقدام من الهارمونيوم ، مهملين الثلاثة ، منشغلين بوجبتهم ، وألعاب ورقهم . أخيراً أقلع المتدينون عن محاولتهم ، وخرجوا ، بدون أن توجه إليهم أي إهانة ، سوى الإهمال . لا شكَّ في أنهم وجدوا عزاءهم باعتقادهم أنهم كانوا على هذه الدرجة من الشجاعة ، بحيث «يغامرون مغامرة حرّة بالدخول إلى أوطأ الأوكار» . الخ . الخ .

قال بوزو إن هؤلاء الناس جاؤوا إلى بيت الإقامة عدة مرات في الشهر . إن لهم نفوذاً لدى الشرطة ، و«النائب» لا يقدر على طردهم . عجيبٌ أن يسلِّم الناس بأن لهم الحق في وعظك والصلاة عبرك ، بمجرد أن يكون دخلك أقل من مستوىً معيَّن .

بعد تسعة أيام ، تدنّى باونا «ب» إلى شلن وتسعة بنسات . خصصنا أنا وبادي ثمانية عشر بنساً لمنامنا ، وصرفنا ثلاثة بنسات على ما ألفناه من شاي وشريحتين ، نقتسمه ، باعتباره مُشهّياً لا وجبة .

عصراً ، كنا جائعين حدّ اللعنة ، وتذكر بادي كنيسةً قرب محطة كنج كروس ، حيث يقدم شاي مجّاني للمتشردين ، مرة في الأسبوع . وكان ذلك اليوم ، يوم الشاي الأسبوعي ، فقررنا الذهاب إلى هناك . بوزو لم يأت معنا ، مع أن الجو ممطر ، وأنه مفلسٌ تماماً ، قائلاً إن الكنائس ليست مبتغاه .

خارج الكنيسة ، كان حوالي مائة شخص ينتظرون ، من أنماطٍ قذرة اجتمعوا من كل مكان لنبأ الشاي المجاني ، مثل طيور الحدأة على جاموس ميت . فجأةً فُتحت الأبواب ، وساقنا رجلُ دين وبضع فتيات إلى رواق بأعلى الكنيسة . كانت كنيسة أنجليكانية ، كئيبة قبيحة ، مع نصوص عن الدم والنار مثبتة على الجدران ، وكتاب ترانيم يضم ١٢٥١ ترنيمةً ، وحين قرأت بعض هذه الترانيم ، استخلصت أن الكتاب يصلح ليكون أنثولوجيا للشعر الرديء . كان المقرر أن تقام صلاة بعد الشاي . والرعية المعتادون جالسون في أسفل الكنيسة .

كان يوم عطلة ، وليس في الكنيسة إلا العشرات من الرعية ، نساءً في الغالب ، عجفاوات هرمات ، يُذكرن بالطيور المسلوقة . جلسنا على مصاطب الرواق ، وقُدِّم لنا شاينا ، في زجاجات مربّى من زنة الرطل ، لكل واحد زجاجة ، مع ست شرائح خبز ومرغرين . ما إن انتهى الشاي حتى خرج عشرة متشردين كانوا قرب الباب ، هرباً من الصلاة . البقية ظلوا في أماكنهم ، لا ورعاً وامتناناً ، بل لعدم تصميمهم على الخروج .

أطلق الأرغن عدة صفرات تمهيدية ، ثم بدأت الصلاة . وفجأةً ، كأنما بإشارة ، جعل المتشردون يسيئون التصرف بطريقة فاضحة . لم يكن أحد فكّرَ بأن مشاهد كهذه يمكن حدوثها في كنيسة . على امتداد الرواق كان الرجال يترنحون على مصاطبهم ويضحكون ، ويثرثرون ، ويميلون ليقذفوا كريّات خبز على الرعيّة . وكان عليَّ أن أضبط الشخص الجالس جواري بالقوة إلى حد ما ، وأمنعه من إشعال سجارة . المتشردون يعاملون الصلاة

باعتبارها مشهداً هزلياً خالصاً . والحقّ أن الصلاة كانت مضحكة للغاية ـ من النمط الذي تتعالى فيه بغتةً صيحات «هللويا» ، وصلوات ارتجالية ـ إلا أن سلوكهم فاق كل وصف .

كان في الرعية شخص عجوز ـ الأخ بوتل أو كذا ـ يدعى غالباً ليقودنا في الصلاة ، ويقولون إنه في مناسبة سابقة ظل مصراً على متابعة صلاة ارتجالية مدة خمس وعشرين دقيقة ، حتى أوقفه القسيس . ومرة حين نهض الأخ بوتل ، صاح أحد المتشردين : «أراهن اثنين إلى واحد أنه لن يصل إلى سبع دقائق!» ، وكان صوته أعلى حتى من صوت القسيس ، مع أصواتنا التي تعالت في أرجاء الكنيسة كلها . أحياناً يبعث إلينا أحد أفراد الرعية في الأسفل كلمة : «اسكتوا!» ، بدون جدوى . لقد صممنا على إفساد الصلاة ، ولا أحد قادر على إيقافنا .

كان مشهداً عجيباً ، بل مقزِّزاً . ففي الأسفل حفنة من الناس البسطاء المهذبين يحاولون جاهدين العبادة ، وفي الأعلى مائة رجل أطعمهم هؤلاء يتعمدون جعل العبادة مستحيلة . حلْقة من الوجوه القذرة الشّعْراء تطلُّ من أعلى ساخرةً صائحةً . ترى ماذا تستطيع قلّةٌ من العجائز والشيوخ فعله ضد مائة متشرد مُعادٍ ؟ كانوا خائفين منا ، وكنا نزعجهم بفظاظة . لقد كنا ننتقم منهم لأنهم أذلّونا إذ أطعمونا .

القسيس كان شجاعاً . صوته يرعد باستمرار في موعظة عن يوشع ، وكاد يفلح في تجاهُلِ ما يجري في الأعلى . لكنه في النهاية ، ربما لأنه استُفزَّ أكثر مما يتحمل ، أعلنَ بصوتٍ عالٍ : «سأخصص الدقائق الخمس الأخيرة من موعظتي للخُطاة!» قال هذا وجعل ينظر إلى الرواق . لكن بأي اهتمامٍ قابلناه! حتى والقسيس يهددنا بنار جهنم ، كنا نلفّ السجائر ، وأخيراً ، مع «آمين» الأخيرة ، اندفعنا صاخبين نهبط السلّم ، وقد اتفق الكثير على العودة ثانية في الأسبوع القادم للشاي المجّاني .

أمتعني المشهد . كان جدّ مختلفٍ عن الاستكانة المألوفة لدى

المتشردين ـ عن الامتنان الذليل الذي يتقبّلون به الإحسان في ضعة الديدان . وتفسير ذلك ، بالطبع ، أننا كنا نفوق الرعيةَ عدداً . المرء الذي يتقبّل الإحسان يكره المحسنَ عادةً وهي طبيعة ثابتة في الشخصية البشرية . وعندما يكون مع المرء مائة يساندونه ، يكشف هذه الطبيعة .

عصراً ، وبعد الشاي المجاني ، حصل بادي ، بدون توقُّعٍ ، على ثمانية بنسات أخرى من مراقبة السيارات الفارغة . وكانت بالضبط تكفي لمبيت ليلة أخرى . وقد وضعناها جانباً ، لنبقى جائعين حتى التاسعة من العشية القادمة . بوزو الذي كان سيعطينا بعض الطعام ، كان غائباً طوال اليوم . كانت الأرصفة مبتلّة ، وقد ذهب إلى «الفيل والقلعة» حيث يعرف مستقَرّاً ذا سقف . ولحسن حظي كان لديّ بعض التبغ ، وإلاّ لكان يومي أسوأ .

في الثامنة والنصف أخذني بادي إلى سدّ الشاطئ ، حيث عُرف عن رجل دينٍ أنه يوزع بطاقات وجبات طعام ، مرةً في الأسبوع . تحت جسر تشيرنغ كروس كان خمسون رجلاً ينتظرون ، وقد انعكست صورهم في بُريكات الماء المرتعشة . بعضهم كانوا نماذج منفِّرة ، فهم من النائمين على السدّ ، والسدّ يجمع أنماطاً أسوأ من السبايك . أتذكر أن أحدهم كان يرتدي معطفاً بلا أزرار مشدوداً بحبل ، وبنطلوناً مهلهلاً ، وجزمةً تُظهر أصابع قدميه ـ ولا شيء غير ذلك لباساً . كان ملتحياً مثل فقير هندي ، وقد نجح في طلي صدره وكتفيه بوسخ أسود فظيع مثل زيت القطارات . أما ما يتبدى من وجهه تحت الوسخ والشّعر ، فكان بياضاً ناصلاً سببه مرضٌ خبيث . سمعته يتكلم ، وكانت لهجته جيدة ، مثل لهجة موظف أو بائع مخزن .

ظهر رجل الدين ، فاصطفت الرجال حسب مجيئهم . كان رجل الدين شاباً لطيفاً ودوداً ، ومن الغرابة أنه يشبه شارلي ، صديقي في باريس ، تماماً . كان خجولاً ومتأثراً ، ولم يتكلم إلا بالتحية ، تحية المساء ، واكتفى بالإسراع مع الطابور ، وتسليم بطاقة وجبة لكل واحد ، غير منتظرٍ حتى

عبارة الشكر . وكانت النتيجة الشعور بالامتنان الأصيل ، وقال الجميع إن رجل الدين إنسان جيّد . وصاح أحدهم (على مسمع من الرجل) : «حسناً ، إنه لن يكون أسقفاً ، أبداً!» ـ وكان المقصود بهذا ، الثناء ، طبعاً .

قيمة البطاقة الواحدة ستة بنسات ، وهي موجهة إلى محلّ طعام غير بعيد . وعندما ذهبنا إلى هناك ، وجدنا صاحب المحل ، بسبب معرفته أن المتشردين لن يذهبوا إلى محل آخر ، يغشّنا ، بتقديم طعام لا يكلف غير أربعة بنسات . قدمت أنا وبادي بطاقتينا فقُدِّم لنا طعامٌ مشتركٌ بيننا يمكن الحصول عليه بسبعة بنسات أو ثمانية في أي مقهى . كان رجل الدين أنفق أكثر من باون على البطاقات ، وهكذا كان صاحب المحل يحتال على المتشردين بمعدل سبعة شلنات أو أكثر كل أسبوع . إن هذا النوع من الوقوع ضحيةً ، أمرٌ سائرٌ ، في حياة المتشرد ، وسيظل أمراً سائراً مادام الناس مستمرين في إعطاء بطاقات وجبات بدلاً من النقود .

عدت وبادي إلى بيت الإقامة ، ولأننا مازلنا جائعين ، لجأنا إلى المطبخ ، مستعيضين بالدفء عن الطعام . في الساعة العاشرة والنصف وصل بوزو ، متعباً شاحباً ، لأن ساقه المعطوبة تجعل السير عذاباً . لم يكسب بنساً واحداً من الرسم على الرصيف . فكل الأماكن المسقوفة قد أُخذتْ ، ولهذا تسوّلَ عدة ساعات ، محاذراً الشرطة . لقد جمع ثمانية بنسات ، أي أقل ببنس واحدٍ من أجرة مبيته .

لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ على موعد الدفع ، وأفلح فقط في أن يتسلل إلى الداخل حين كان «النائب» غافلاً ، وفي كل لحظة يمكن أن يُمسَك ، ويُطرد ، لينام على السدّ . أخرج بوزو أشياءه من جيبه ، وتفحَّصها ، مفكراً في ما سيبيع منها . قرر بيع موساه ، وشرع يطوف به في المطبخ ، وبعد بضع دقائق باعه بثلاثة بنسات ـ فتجمّع لديه ما يكفي لدفع أجرة المبيت ، وشرب شاي ، وبقي لديه نصف بنس .

أخذ بوزو شايه ، وجلس قرب النار يجفف ثيابه . وعندما شرب شايه

رأيته يضحك مع نفسه ، كأنه يضحك لمزحة . سألته عن سبب ضحكه ، فقال : «أمرٌ مضحكٌ ، مضحكٌ بحيث يصلح لمجلة Punch . ماذا تظنني فعلتُ ؟»

«ماذا ؟»

«بعتُ الموسى ، ولم أحلق ذقني أولاً : أي أحمق أنا!»

لم يأكل منذ الصباح ، وسار عدة أميال بساقه المعطوبة الملتوية ، وابتلّت ملابسه ، وليس بينه وبين التضوُّر جوعاً سوى نصف بنس . بالرغم من هذا كله ، كان يستطيع أن يضحك لفقدان موساه .

إن المرء لا يملك إلا أن يحبّه .

34

في الصباح التالي ، وقد نفدت نقودنا ، ذهبنا ، بادي وأنا ، إلى السبايك . اتجهنا جنوباً على أولد كينت رود ، قاصدين كروملي ، إذ لم نكن نستطيع الذهاب إلى سبايك لندنيّ ، فقد كان بادي في أحدها مؤخراً ، وهو لا يهتم بالمخاطرة في الذهاب ثانيةً . كانت مسيرة ستة عشر ميلاً على طريق معبَّد يقرِّح باطن الأقدام ، وكنا جائعين فعلاً . بادي مسحَ الأرصفة ليجمع مخزوناً من أعقاب السجائر يوازي وقته في السبايك . وفي النهاية ، كوفئ على دأبه ، إذ عثر على بنس . اشترينا قطعة خبز كبيرة ، والتهمناها أثناء مسيرنا .

عندما وصلنا إلى كروملي ، كان الوقت جدَّ مبكر على السبايك ، فسرنا عدة أميال أبعد ، إلى مزرعة قرب مرجٍ ، حيث يمكن أن يجلس المرء . كانت المزرعة محطة قوافل مألوفة للمتشردين ـ وبالإمكان معرفة ذلك من العشب الخفيف والصحف المبتلّة والعلب الصدئة التي خلّفوها وراءهم . متشردون آخرون كانوا يصلون فرادى ، أو مَثْنى . كان طقساً خريفياً جميلاً ، وقريباً منا كان مهادٌ من حشيشة الشفاء النامية . وبدا لي أنني حتى الآن أستطيع أن أستاف رائحة حشيشة الشفاء الحادّة ، وهي تتصارع مع نتن المتشردين . في المرج مُهران من مهارى العربات في لون الترسينا النيئة ، بأعرافٍ وذيولٍ بيض ، يرعيان قرب البوابة . تمددنا على الأرض ،

ننزُّ عَرَقاً ورَهَقاً . استطاع أحدهم أن يجد عيداناً يابسة فأشعل ناراً ، وشربنا كلنا شاياً بلا حليب من علبة صفيح دارتْ علينا .

شرع بعض المتشردين يروي حكايات . وكان أحدهم ، واسمه بِلْ ، شخصاً ممتعاً ، متسوّلاً أصيلاً من النمط القديم ، قوياً مثل هرقل ، وعدوّاً لدوداً للعمل . كان يتباهى بأن قوّته تؤهله للحصول على عملٍ جسديّ متى شاء ، لكنه ما أن يقبض أجور أسبوعه الأول حتى يغيب في نوبة سكر رهيب ، فيُطرد . وبين حين وآخر كان « يخطف » من أهل الدكاكين عموماً . وهو يتحدث هكذا :

«أنا لا أمضي بعيداً في كينت . كينت بلادٌ شديدة . كينت . كان الكثيرون يخطفون هناك . والخبّازون يفضلون أن يرموا بخبزهم بدلاً من إعطائك منه . الآن ، أكسفورد هي مكان الخطف . أكسفورد . عندما كنت في أكسفورد خطفت خبزاً ، وخطفت لحم خنزير ، وخطفت لحم بقر . وكل مساء أخطف بنسات من الطلبة لأدفع أجرة مبيتي . البارحة كان ينقصني بنسان لدفع أجرة مبيتي ، لذا ذهبت إلى قسيس وخطفت منه ثلاثة بنسات . أعطاني البنسات الثلاثة ، وفي اللحظة التالية وشى بي لشرطيّ بتهمة التسول . قال الشرطي : (كنتَ تتسول) . قلت : (لا . كنت أسأل السيد عن الوقت) . أخذ الشرطي يفتش في سترتي ، فأخرج رطل لحم ورغيفي خبز . قال : (حسناً ، ما هذا كله ؟ الأفضل أن تأتي معي إلى المركز) . حُبست سبعة أيام . لن أخطف ثانية من القساوسة . لكن ، بحق المسيح! ماذا كان يهمني حبس سبعة أيام ؟ » الخ . الخ .

يبدو أن حياته كلها كانت هكذا ـ دورة خطف ، سكر ، وحبس . كان يضحك وهو يتحدث عنها ، معتبراً كل شيء فكاهةً كبرى . يبدو أنه لم يكسب من تسوُّله ، فهو يرتدي فقط بدلة من الكودري ، ولفاعاً ، وقلنسوة ـ لا جوارب . غير أنه لايزال مكتنزاً مرحاً ، بل إنك لتشمَ منه رائحة البيرة ، وهي رائحة غير مألوفة في متشردي هذه الأيام .

اثنان من المتشردين كانا في سبايك كروملي مؤخراً ، ورووا قصة مخيفة عنه . قالوا إن حادث انتحار جرى هناك قبل سنين . إذ استطاع متشردٌ أن يهرِّب موسى إلى داخل حُجيرته ، وهناك قطع حلقومه . وفي الصباح ، حين جاء رائد المتشردين ، كانت الجثة محشورة إزاء الباب ، ولكي يفتحوها كان عليهم أن يكسروا ذراع الميِّت . وانتقاماً لها ، سكنت روح الميت الحُجيرة ، وكل من سكن هناك مات خلال سنة . وهناك أمثلة عدة ، بالطبع . وهكذا لو انحشرتْ بابُ حُجيرةٍ وأنت تحاول الدخول ، فعليك أن تتجنب تلك الحجيرة كالطاعون ، ذلك لأنها الحُجيرة المسكونة .

متشردان ، بحّاران سابقان ، رويا حكاية مخيفة أخرى . ثمت رجل (أقسما بأنهما عرفاه) اعتزم التسلل إلى سفينة متجهة إلى التشيلي . كانت السفينة محملة بسلع مصنوعة موضوعة في حاويات خشب ، واستطاع الرجل بمساعدة أحد عمّال الأرصفة أن يختبئ في إحداها . لكن عامل الأرصفة ارتكب خطأً في الأمر الذي بموجبه يتمُّ تحميل الحاويات . إذ أمسكت الرافعة بحاوية المتسلل ، ورفعتها عالياً ، ثم أنزلتها في قاع عنبر السفينة تحت المئات من الحاويات . لم يكتشف أحدٌ ما حدث حتى نهاية الرحلة ، عندما وجدوا المتسلل متعفناً ، ميتاً من الاختناق .

متشردٌ آخر روى قصة جيلدوري ، قاطع الطريق الاسكتلندي . حُكم على جيلدوري بالشنق . هرب . وقبض على القاضي الذي حكم بشنقه ، و(يا للرجل الرائع!) شنقه . المتشردون أحبوا القصة طبعاً ، لكن الأمر الممتع هو أنهم رووها مخطوءةً . جيلدوري حسب روايتهم ، هرب إلى أميركا ، حيث قُبض عليه ثانيةً ، بالفعل ، وأُعدم . لقد حُوِّرت القصة ، عمداً بلا شك ، كما يحوِّر الأطفال قصص شمشون وروبن هود ، مانحين تلك القصص نهايات سعيدة ، متخيَّلة تماماً .

هذا ، جعل المتشردين يتحدثون عن التاريخ ، وأعلن رجل طاعن في السنَ أن «قانون العضّة الواحدة» هو من بقايا تلك الأيام ، حين كان النبلاء

يصطادون البشر بدلاً من الغزلان . بعضهم ضحك منه ، لكنّ الفكرة مستقرّة في رأسه . لقد سمع أيضاً عن قوانين القمح ، والتمرد العظيم أيضاً الذي يعتقد أنه انتفاضة الفقراء على الأغنياء ـ ربما خلط الأمر بتمردات الفلاحين . أشكّ في أن العجوز يعرف القراءة ، وهو ، بالتأكيد لا يردد مقالات الصحف . إن التقاطاته من التاريخ انتقلت من جيل متشردين إلى جيل متشردين آخر ، ربما لقرونٍ ، في بعض الحالات . إنه التقليد الشفاهي ، مستمراً ، مثل صدى خافت من العصر الوسيط .

ذهبت أنا وبادي إلى السبايك في السادسة مساءً ، لنخرج في العاشرة صباحاً . إنه يشبه إلى حد بعيدٍ ، رومتون وإيدبري ، ولم نر شيئاً من الشبح .

بين النزلاء العابرين كان شابّان هما وليم وفريد ، صيادا سمك سابقان من نورفولك ، صديقان ودودان ، ومحبّان للغناء . عندهما أغنية تدعى « بيللا الشقيّة » تستحق التدوين هنا . سمعتهما يغنيانها حوالي ست مرات خلال يومين ، واستطعت أن أحفظها غيباً ، إلا بيتاً أو اثنين حزرتُهما . وها هي ذي الأغنية :

« بيللا كانت صبيّةْ/ بيللا كانت حلوةْ
عيناها زرقاوانِ ، والشَّعرُ ذَهَبْ
آهِ يا بيللا المسكينةْ!
خُطوتُها جِدُّ خفيفةْ/ والقلبُ سعيد
لكنْ ، لا عقلَ لها...
في أحد الأيام ، أغواها شخصٌ خدّاعُ شرّيرٌ وبلا قلبٍ

بيللا المسكينةُ كانت صبيّة
لم تصدِّقْ أن العالمَ قاسٍ ، وأن الرجال خدّاعون
آهِ يا بيللا المسكينةْ!

قالت : رَجُلي سوف ينفِّذُ ما هو حقٌّ ،
ويتزوجني الآن ، فهذا أمرٌ واجب
كانت واثقة القلب بذاك الخدّاع الشرّير بلا قلبٍ

قصدتْ منزلَه ، ذاك الوغد
وإذا بالوغدْ/ غادر سرّاً وحقائبه...
آهٍ يا بيللا المسكينةْ!
قالت مَولاةُ الدار لها : ابتعدي عن وجهي يا عاهرةً
سوف تسوِّدُ باب الدار .
بيللا المسكينة قد أفسدها
شخصٌ خدّاعٌ شرّيرٌ وبلا قلبٍ .

طولَ الليل تسير على الثلج القاسي
وتعاني ما لم يعرفه أحدٌ ،
آهٍ ، يا بيللا المسكينةْ!
وأخيراً ، إذ طلع الصبحُ الأحمر
كانت بيللا ماتتْ... وا أسفاه!
ووا أسفاه!
أرسلها نحو الموت
شخصٌ خدّاعٌ ، شريرٌ ، وبلا قلبٍ .

ولهذا ، فليفعلْ واحدُكم ما شاء...
لكنَ ثمار الإثم تظلَ .
آهٍ ، يا بيللا المسكينةْ!
بيللا ، إذ وضعوها في القبر

قال رجالٌ : وا أسفاً ، إن حياة الإنسان كهذي...
لكنَ النسوة غنّينَ بصوتٍ عذبٍ وخفيضٍ :
هذا ما فعله الرجال
الأوغادُ القذرون!»

ربما كتبت هذه الأغنيةَ ، امرأة .

وليم وفريد ، مغنِّيا هذه الأغنية ، كانا وغدين ، من النمط الذي يسيء إلى سمعة المتشردين . وحدث أنهما عرفا أن لدى رائد المتشردين في كروملي مخزوناً من الملابس العتيقة ، التي يمكن أن تعطى ، وقت الحاجة ، للنزلاء العابرين . وليم وفريد ، قبل أن يدخلا السبايك ، خلعا جزمتيهما ، وفتقا الخيوط ، وقطّعا من الكعوب ، مخرِّبين جزمتيهما إلى هذا الحد أو ذاك . وبعد ذلك قدَّما طلباً للحصول على جزمتين . حين رأى رائد المتشردين حالة جزمتيهما أعطاهما جزمتين تكادان تكونان جديدتين . وما كاد وليم وفريد يخرجان من السبايك صباحاً حتى باعا الجزمتين بشلن وتسعة بنسات . وبدا لهما من المفيد أن يخربا جزمتيهما حدَّ عدم صلاحية الاستعمال ، مقابل شلن وتسعة بنسات .

بعد مغادرتنا السبايك ، اتجهنا جميعاً نحو الجنوب ، في موكب طويل متعرج ، قاصدين بنفيلد السفلى وآيدل هيل . وفي الطريق حدث عراكٌ بين متشردين . وقد كانا اختصما طوال الليل (لسبب تافهٍ هو أن أحدهما نعت الآخر بأنه Bull shit فظنّه هذا يقول بولشفيك ، وهي إهانة مميتة) ، وقاما بعراكهما في الحقل . وقف اثنا عشر منّا يراقبونهما متفرجين . ظلَّ المشهد ثابتاً في ذهني لسبب واحد ـ أن الرجل المهزوم سقط ، وسقطت قلنسوته لتكشف أن شعره كان أبيض تماماً . بعد ذلك ، تدخّلَ بعضنا ، وأوقفنا العراك . في هذه الأثناء كان بادي يستطلع ، فوجد أن السبب الحقيقي للعراك ، كان كالعادة ، حول طعام ببضعة بنسات .

وصلنا بنفيلد السفلى جدَّ مبكرين ، وأمضى بادي الوقت بالسؤال عن عمل عند الأبواب الخلفية . في أحد البيوت أُعطي عدداً من الصناديق ليقطعها حطباً ، وبعد أن أخبرهم بأن له زميلاً في الخارج ، أدخلني ، وأدَّينا العمل معاً . وبعد انتاء العمل أخبر ربُّ المنزل الخادمة بأن تخرج لنا كوب شاي . أتذكر الطريقة الرهيبة التي أخرجتْ بها الشاي ، وكيف خانتها شجاعتها ، فوضعت الأكواب على الممر ، وأغلقت باب المنزل وراءها ، حابسةً نفسها في المطبخ . إن اسم «متشرد» مخيف جداً . أعطوا لكل منا ستة بنسات ، فاشترينا رغيفاً بثلاثة بنسات ، ونصف أونصة من التبغ ، تاركين لنا خمسة بنسات .

فكّر بادي بأن من الحكمة أن نطمر بنساتنا الخمسة ، إذ أن رائد المتشردين في بنفيلد السفلى مشهور بأنه طاغية ، وربما رفض إدخالنا إذا وجد لدينا نقوداً . اعتاد المتشردون طمر نقودهم . أمّا إذا اعتزموا تهريب مبلغ كبير إلى داخل السبايك فإنه يخيطونه في ملابسهم ، مما يعني السجن ، لو عُثر عليه لديهم . وقد دأب بادي وبوزو على رواية قصص عن هذا الأمر . يحكيان عن إيرلندي (بوزو يقول إنه إيرلندي ، وبادي يقول إنجليزي) ليس متشرداً ، أنه انقطع في قرية صغيرة حيث لم يستطع أن يجد مبيتاً . وكان عنده ثلاثون باوناً . طلب نصيحة من متشرد ، فأوصاه بالذهاب إلى ورشة . أمرٌ مألوفٌ أن يذهب المرء إلى ورشة إن لم يجد مبيتاً في مكان آخر ، ويتعيّنُ عليه آنذاك أن يدفع أجرة معقولة للمبيت هناك . لكن الإيرلندي ظنّ نفسه ذكياً إلى حد المبيت مجاناً ، فقدَّم نفسه إلى الورشة باعتباره عابر سبيل . في هذه الأثناء ، رأى المتشرد ذو النصيحة ، أن فرصته مواتية ، فطلب من رائد المتشردين ، تلك الليلة ، أن يسمح له بمغادرة الورشة مبكراً في الصباح ، بحثاً عن عمل ما . وفي السادسة صباحاً ، سُمح له بالخروج ، وخرج ـ في ثياب الإيرلندي . شكا الإيرلندي هذه السرقة ، فحُبس ثلاثين يوماً بسبب دخوله مهجع عابرين ، بادّعاءاتٍ باطلة .

35

آن بلوغنا بينفيلد السفلى ، تمددنا طويلاً على العشب النضر ، تحت عيون سكان الأكواخ الذين يراقبوننا من بواباتهم الأمامية . رجل دين وابنته جاءا وحدّقا فينا صامتَين لفترة ، كما لو كنا أسماكاً في حوض ، ثم ابتعدا . كان العشرات منا ينتظرون . كان وليم وفريد هناك ، وهما لايزالان يغنيّان ، والرجلان اللذان تعاركا ، وبيل الخطّاف . كان يخطف من الخبّازين ، ولديه الكثير من الخبز البائت المخبّأ بين سترته وجِلده العاري . تقاسمَ خبزه معنا ، وكنا مسرورين لذلك . ثمت امرأة بيننا ، أول امرأة متشردة أراها في حياتي . كانت مكتنزة ، محطّمة ، قذرة جداً ، في حوالي الستين ، ترتدي تنّورة سوداء تسحب أذيالها خلفها . كانت تبالغ في التكبُّر ، وكلما جلس واحدٌ قربها تنشّقتْ ، وتحرّكتْ مبتعدة .

سألها أحد المتشردين : « إلى أين أنت ماضية ، يا سيدتي ؟ »

تنشّقت المرأة ، ونظرتْ إلى البعيد .

قال : « هيا ، يا سيدتي ، افرحي . نحن كلنا في السفينة ذاتها » .

قالت المرأة بمرارة : « شكراً . حين أريد أن أختلط مع مجموعة متشردين ، فسوف أخبرك » .

استمتعتُ بطريقة نطقها كلمة « متشردين » . كأنها تُريك في خطفةٍ روحَها كلها ، روحاً أنثويةً ، صغيرةً ، لاهثة ، لم تتعلم أي شيء إطلاقاً من

سنواتٍ على الطريق . لا شك في أنها كانت سيدةً محترمة أرملة ، وصارت متشردة بعد حادثٍ جللٍ .

فُتح السبايك في الساعة السادسة . ولسوف نقضي نهاية الأسبوع في داخله ، كما جرت العادة ، لسببٍ لا أعلمه ، إلا إذا كان الأمر صادراً عن إحساسٍ غامض بأن يوم الأحد يستحق شيئاً ما كريهاً . حين سجّلنا أسماءنا ، ذكرتُ أن مهنتي « صحافيّ » ، وهي أصدق من مهنة « رسّام » ، ذلك لأني كسبت ، أحياناً ، مالاً من مقالاتٍ صحافيةٍ ، وكان من الغباء أن أذكر ذلك ، فهو سيؤدي إلى أسئلة . ما إن دخلنا السبايك حتى اصطففنا للتفتيش . نادى رائد المتشردين عليّ باسمي . كان رجلاً فظاً ذا طبعٍ عسكريّ ، وفي الأربعين من العمر ، وهو لا يبدو شديد الغلظة كما يُشاع عنه ، غير أنه يتّسم بخشونة الجندي القديم . قال محتداً :

« من منكم هو بلانك ؟ » (نسيتُ أي اسمٍ أعطيتُ) .

« أنا ، سيدي » .

« إذاً ، أنت صحافيّ ؟ »

أجبت مرتعشاً : « نعم ، سيدي » . أسئلة أخرى ، وسيظهر أني كنت أكذبُ ، وهذا معناه السجن . لكن رائد المتشردين اكتفى بالنظر إليّ من قمة رأسي حتى أخمص قدميّ ، وقال : « إذاً ، أنت جنتلمان » .

« أعتقدُ ذلك » .

نظر إليّ ، ثانيةً ، نظرة طويلة ، وقال : « إنه لحظٌّ سيئ جداً ، أيها الحاكم ، حظٌّ سيئ جداً » ، وبعد هذا عاملني معاملة تفضيل غير عادلة ، حتى بنوع من الاهتمام . فهو لم يفتشني ، وأعطاني في الحمّام منشفة نظيفة خاصة ، وهو ترفٌ لم يُسمَع به . إن لكلمة صحافيّ وقعاً قوياً في أذني الجندي القديم .

عند الساعة السابعة ، كنا التهمنا خبزنا وشاينا ، وصرنا في حُجيراتنا . نمنا ، كل واحدٍ في حُجيرة ، وكان ثمت أسرّةٌ وحشيّاتٌ تبنٍ ، تهيء نوماً

جيداً . لكن أي سبايك هو دون الكمال ، والنقص في سبايك بينفيلد السفلي هو البرد . فأنابيب الماء الساخن لا تعمل ، والبطانيتان اللتان أُعطيناهما كانتا خفيفتين من القطن ، غير ذواتي فائدة . كان الوقت خريفاً ، إلا أن البرد قارس . لقد أمضيت ساعات الليل الطويلة الاثنتي عشرة أتقلَّبُ من جنب إلى جنب ، أنام بضع دقائق ، وأستفيق مرتجفاً . لم نكن نستطيع أن ندخن ، فتبغنا الذي هرّبناه مخيطٌ في ملابسنا ، وهذه لن نتسلمها إلا في الصباح . وعلى امتداد الممر تُسمع ضجة أنين ، وشتيمة يطلقها أحدهم . وأظن أن أحداً لم ينم أكثر من ساعة .

في الصباح ، بعد الفطور وفحص الطبيب ، ساقنا رائد المتشردين ، جميعاً ، إلى داخل غرفة الطعام ، وأغلق الباب علينا . كانت غرفة مبيَّضة بالنورة ، وذات أرضية من الحجر ، ووحشةٍ بالغةٍ ، بأثاثها المكوَّن من الألواح والمصاطب ، ورائحتها الشبيهة برائحة السجن . والنوافذ ذات القضبان هي أعلى من إمكان النظر عبرها ، ولا زينة في الغرفة سوى ساعة حائط ونسخة من أنظمة الورشة . ولأننا كنا على المصاطب متزاحمين بالمناكب ، شعرنا من الآن بالضجر ، بينما الساعة لم تكد تبلغ الثامنة صباحاً . لا شيء نفعل ، لا شيء نتحدث عنه ، لا مجال حتى للحركة . العزاء الوحيد هو أن بمقدور المرء أن يدخن ، ذلك لأن التدخين يُتغاضى عنه ما لم يقبض على الشخص متلبساً به . سكوتي ، وهو متشرد أشعر صغير ، ذو لهجة كوكني لعينة من غلاسكو ، كان بلا تبغ ، ذلك لأن علبة أعقاب سجائره قد سقطت من جزمته خلال التفتيش وأُخذت . قدَّمتُ له ما يلفُّ سجارة ، وأخذنا ندخن حذرين ، جاعلين سجائرنا في جيوبنا مثل التلاميذ ، حين نسمع رائد المتشردين آتياً .

معظم المتشردين أمضى عشر ساعات متصلة في هذه الغرفة الموحشة ، غير المريحة . والله وحده يعلم كيف صبروا . أنا كان حظي أفضل من سواي ، ففي الساعة العاشرة نادى رائد المتشردين قلةً من الرجال ليؤدوا

أعمالاً مختلفة ، وقد اختارني لأساعد في مطبخ الورشة ، وهو العمل المفضَّل على غيره . هذا العمل ، شأنه شأن المنشفة ، كان من مفعول السحر الذي جلبته كلمة جنتلمان .

لم يكن لي في المطبخ ما أفعله ، فانسللتُ إلى سقيفة صغيرة تتخذ لخزن البطاطا ، حيث كان عدد من شغيلة الورشة يزوغون عن صلاة صباح الأحد . ثمت صناديق مريحة للجلوس ، وأعداد قديمة من «فاميلي هيرالد» وحتى نسخة من «رافلز» من مكتبة الورشة . الشغيلة تحدثوا أحاديث ممتعة عن حياة الورشة . وأخبروني بين ما أخبروني ، أن الشيء المكروه حقاً في الورشة ، كعلامة إحسانٍ ، هو البزّة الموحدة ، ولو ارتدى الناس ملابسهم الخاصة ، أو حتى قلانسهم ، فلن يهتموا بأن يكونوا شغيلةً هنا . تغديت على مائدة الورشة ، وكانت وجبة تصلح لأفعوان البوا ـ أكبر وجبة أكلتها منذ يومي الأول في فندق «س» . قال الشغيلة إنهم ، أيام الآحاد ، يأكلون حتى الانفجار ، لأن تغذيتهم في أيام الأسبوع الأخرى سيئة . بعد الغداء أمرني الطاهي بغسل الأواني ، ورمي الطعام المتبقي . كانت الفضالة مدعاةً للدهشة ، وللامتعاض في مثل تلك الظروف . قطع لحم نصف مأكولة ، وكميات من الخبز الهشيم والخضروات كانت ترمى مثل القمامة ، ثم تغطى بورق الشاي . ملأت خمس سلال قمامة حتى أعلاها بطعام صالح للأكل . وبينما كنت أفعل ذلك كان خمسون متشرداً يجلسون في السبايك ومِعَدُهم نصف ممتلئة بأكل السبايك المكون من الخبز والجبن ، وربما مع حبتي بطاطا مسلوقتين ، إكراماً ليوم الأحد . ويقول الشغيلة إن الطعام يرمى اتباعاً لسياسة معينة ، بدلاً من وجوب تقديمه إلى المتشردين .

في الساعة الثالثة عدت إلى السبايك . كان المتشردون جالسين هناك منذ الثامنة ، ولا فسحة لحركتهم ، نصف مجانين من الضجر . حتى التدخين انتهى ، إذ أن تبغ المتشرد هو أعقاب سجائر ملتقطة . والمتشرد يُحرم من

التدخين إذا ابتعد بضع ساعات عن الرصيف . كان معظم الرجال ضجرين إلى حدّ أنهم لم يعودوا يتحدثون ، وهم يجلسون فقط متزاحمين ، محدّقين في لاشيء ، ووجوههم المغضنة مفلوقة بتثاؤبات هائلة . الغرفة منتنة بالضجر .

بادي ، وقد أوجعه جنبه من المصطبة القاسية ، كان في نوبة دمدمةٍ ، فلجأتُ ، قتلاً للوقت ، إلى متشرد ممتاز أتحدثُ معه ، وهو نجّارٌ شابّ ، يرتدي ياقة وربطة عنق ، وقد لجأ إلى التشرد كما قال بسبب عدم امتلاكه عدّة شُغل . كان يحتفظ بمسافة ما ، بينه وبين المتشردين الآخرين ، ويعتبر نفسه رجلاً حراً ، لا عابر سبيل . كما أن له ذوقاً أدبياً ، ويحتفظ بنسخة من رواية « كُوَنتن دروارد » في جيبه . وقد أخبرني أنه لم يدخل ، البتة ، في سبايك ، إلا إذا دفعه الجوع ، وأنه يفضل أن ينام تحت الأسيجة وخلف أكوام التبن . وعلى امتداد الساحل الجنوبي تسوّلَ ، نهاراً ، ونام ليلاً في أكواخ السباحة ، أسابيع كل مرة .

تحدثنا عن الحياة على الطريق . وانتقدَ النظام الذي يجعل المتشرد يقضي أربع عشرة ساعة في اليوم داخل السبايك ، ويقضي الساعات العشر الأخرى في المشي وتجنُّب الشرطة . تحدث عن حالته ـ ستة أشهر بعهدة المجتمع ، لأنه لا يملك بضعة باونات يشتري بها عدّة نجارة . إنه نظامٌ أبله ، كما قال .

ثم أخبرتُه عن تبذير الطعام في مطبخ الورشة ، ورأيي في هذا . آنذاك غيّرَ نبرة حديثه فوراً . وجدتُ أنني أيقظت الجالس على مقعد الكنيسة ، هذا الذي ينام في كل عامل إنجليزي . لقد بيّنَ ، رأساً ، الأسباب الموجبة لرمي الطعام بدلاً من إعطائه للمتشردين ، ولامني لوماً شديداً .

قال : « يجب أن يفعلوا ذلك ، فلو جعلوا هذه الأماكن مريحة جداً ، لرأيت كل حثالة البلد مجتمعة فيها . الطعام الرديء فقط هو الذي يبعد تلك الحثالة عنها . هؤلاء المتشردون هم أكثر كسلاً من أن يعملوا . هذا هو عيبهم . ولا أظنك تريد تشجيعهم . إنهم حثالة » .

قدمتُ حججاً لأبرهن أنه مخطئ في رأيه ، لكنه لم يسمع لي ، وظل يردد :

«لا أظنك تريد أن ترأف بهؤلاء المتشردين هنا ـ إنهم حثالة . أنت لا تريد الحكم عليهم بالمقاييس ذاتها المطبّقة على أناسٍ مثلك ومثلي . إنهم حثالة . مجرد حثالة» .

من الممتع رؤية الطريقة الحاذقة التي يفصل بها نفسه عن «هؤلاء المتشردين هنا» . لقد كان على الطريق لمدة ستة أشهر ، لكنه يرى أنه ليس متشرداً عند الله . وأعتقدُ أن ثمت عدداً وفيراً من المتشردين الذين يشكرون الله لأنهم غير متشردين . إنهم مثل المترحلين الذين يقولون أشياء جارحة كهذه عن المترحلين .

مضت ، بطيئةً ، ثلاث ساعات . في الساعة السادسة وصل العشاء ، وتبيَّنَ أنه غير صالح للأكل ، فالخبز ، الصلبُ بما يكفي صباحاً (كان قُطِّعَ إلى شرائح ليل السبت) هو الآن قاسٍ مثل بسكويت السفن . ومن حسن الحظ أنه مغموس بمرقٍ ، لذلك اكتفينا بالمرق ، وهو على أي حال أفضل من لاشيء . في السادسة والربع أُرسلنا لننام . متشردون جدد كانوا يصلون ، وكي لا يختلط المتشردون من أيام مختلفة ، (خوف الأمراض المعدية) وُضع القادمون الجدد في الحُجيرات ، ونحن في المهاجع . مهجعنا كان مثل مخزن حبوب ، ويضم ثلاثين فراشاً متقارباً ، وحوضاً يستعمل مبولةً مشتركة . رائحة المهجع كريهة ، والشيوخ يسعلون وينهضون طوال الليل . لكن الازدحام جعل المهجع دافئاً ، فنمنا قليلاً . تفرَّقنا في العاشرة صباحاً ، بعد فحص طبيَ جديد ، مع قطعة خبز وجبن للغداء .

وليم وفريد ، المستقويان بملكية شلن ، رميا خبزهما على حاجز السبايك ، احتجاجاً كما قالا . كان هذا ثاني سبايك في كينت لم يطيقاه ، وقالا عنه إنه مزحةٌ كبرى . كانا مرحين ، مقارنةً بالمتشردين . المعتوه (ثمت معتوه في كل مجموعة متشردين) قال إنه منهكٌ لا يستطيع السير ،

وتشبث بحاجز السبايك ، حتى جاء رائد المتشردين فأبعده ، ودفعه بركلةٍ إلى السير . انعطفت أنا وبادي شمالاً ، نحو لندن . ومعظم الآخرين كانوا ماضين إلى آيد هيل ، الذي يقال إنه أسوأ سبايك في إنجلترا .

مرة أخرى ، كان الطقس خريفياً لطيفاً ، والطريق هادئاً ، مع القليل من السيارات المارّة . الهواء عذبٌ ، مثل راحة ورد الخلنج البري ، بعد عفونة السبايك التي هي مزيج من العرق والصابون والمجاري . وبدا أننا المتشردان الوحيدان على الطريق . وفجأة ، سمعنا خطىً مسرعة خلفنا ، وصوتاً ينادي . كان سكوتي الصغير ، متشرد غلاسكو ، الذي جرى يتبعنا لاهثاً . أخرج علبة صدئة من جيبه . كان يبتسم ابتسامة ودّية ، مثل من يردُّ دَيناً . قال بكل تهذيب : «هيا ، أيها الزميل ، أنا مدين لك ببعض الأعقاب . أنت قدّمتَ لي سجارة أمس . رائد المتشردين أعاد لي علبة أعقابي عندما خرجنا صباحاً . هيا» .

ووضع أربعة أعقابٍ قذرة ، مدعوكة ، فارغة ، في راحتي .

36

أريد أن أبيّنَ بضع ملحوظات عـامـة عن المـتـشـردين . عندمـا يفكر المرء ، بالأمر ، يجد أن المتشردين نتيجُ غريب يستحق التأمل . غريبٌ أن قـبـيلة رجالٍ ، يُعـدّون بعـشـرات الآلاف ، يطوّفـون في أرجـاء إنجلتـرا ، من أقصاها إلى أقصاها ، مثل يهودٍ تائهين . لكن القضية ، وهي تستحق التفكير بشكل واضح ، لا يمكن البدء بتأملها إلا بعد التخلص من أهواء معينة . هذه الأهواء نابعة من فكرة أن كل متشرد ، هو وغدٌ ، كحقيقة واقعة . علّمونا في الطفـولة أن المـتـشـردين أوغـاد ، وهكذا وُجد في أذهاننا نمطٌ من الوغد المثـال ، الوغد الأنموذجي ـ مخلوقٌ كريهٌ ، بـل خطِرٌ ، يفضل المـوت على العمـل أو الاغتسـال ، ولا يريد سوى أن يتـسـول ، ويشـرب ، ويسطو على أقنان الدجاج . هذا المتشردُ ـ الوحشُ ، ليس أكثر حقيقية في الحياة من الصيني الشرير في قصص المجلات . لكن من الصعوبة البالغة التخلص من النمط هذا . إن كلمة «متشرد» ذاتها ، تثير تخيُّلَه (أي الفرد) . وما يعتقده يشوّش الأسئلة الحقيقية المتصلة بالتشرد .

لنتناولْ سؤالاً أساسياً حول التشرد : لماذا يوجد المتشردون ؟ شيءٌ غريبٌ أن يعرف قلّةٌ من الناس ما يجعل المـتـشـرد على الطريق . ونتـيـجة الاعتقاد بالمـتشرد ـ الوحش ، تُقترح أسبابٌ عجيبة للظاهرة . يقال إن المتشـردين يتشردون كي يتجنبوا العمل ، ويتسـولوا بسـهولة ، ويغتنموا

فرصاً للجريمة ، وأخيراً ـ كسبب أقل احتمالاً ـ لأنهم يحبون التشرد . بل لقد قرأت في كتاب عن علم الإجرام ، أن المتشرد رُجْعَى ، عودةٌ إلى مرحلة البدو الرحَّلِ في تاريخ البشرية . بينما السبب الواضح تماماً للتشرد ماثلٌ جداً أمام الوجه . بالطبع ، ليس المتشرد رُجعى بدويّة ـ بالإمكان القول أيضاً إن التاجر الجوّال رُجعى . المتشرد يتشرد ، لا بسبب أنه يحب التشرد ، وإنما للسبب نفسه الذي جعل السيارة تلتزم اليسار . لأن ثمت قانوناً يُلزمها بذلك . إن شخصاً بلا موارد ، إن لم تساعده الأبرشية ، فلن يجد العون إلا في بيوت أبناء السبيل ، ولأن هذه البيوت لا تؤويه إلا ليلة واحدة ، يظل أوتوماتيكياً يتحرك . هو متشرد لأن عليه ، حسب القانون السائد ، إمّا أن يتشرد أو يجوع . لكن الناس نشأوا على الاعتقاد بالمتشرد ـ الوحش ، ولهذا يفضلون التفكير بوجوب وجود دافعٍ شرير للتشرد .

والحقُّ أن جانباً جدَّ ضئيل من فكرة المتشرد ـ الوحش ، سيصمد للتدقيق . خذ الفكرة الشائعة حول أن المتشردين أشخاصٌ خطرون . بمعزلٍ عن التجربة ، يمكن القول بدءاً إن قليلاً جداً من المتشردين خطرون ، لأنهم لو كانوا خطرين لتمّ التعامل معهم بموجب ذلك . إن بيتاً لأبناء السبيل يؤوي غالباً ، مائة متشرد ، في الليلة الواحدة ، ويتولى أمر هؤلاء المائة ، جهازٌ من ثلاثة أشخاص ، بوّابين ، في الغالب . لا تمكن السيطرة بثلاثة رجال غير مسلحين على مائة شخصٍ وحشيّ . والواقع أن المرء حين يرى كم يتعرض المتشردون للمضايقة من جانب موظفي الورشات ، يجد أن هؤلاء المتشردين هم من أكثر الناس مسالمةً وخضوعاً ، إلى حدٍ لا يمكن تصوّره . أو خذ الفكرة أن كل المتشردين سكيرون ـ وهي فكرة مضحكة في ظاهرها . لا شك في أن متشردين كثاراً سوف يشربون لو أتيحت لهم الفرصة . في هذه الأيام ، يبلغ سعر الباينت مما يدعى بيرةً في إنجلترا سبعة بنسات . وكي تسكر على البيرة يجب أن تدفع نصف كراون ، والرجل الذي يستطيع التصرف بنصف كراون ، غالباً ، ليس متشرداً بأي حال . فكرة أن

المتشردين طفيليات اجتماعية وقحة ، ليست بلا أساس إطلاقاً ، لكنها تنطبق على نسبة مئوية قليلة من الحالات . إن التطفل الشرير ، المتعمَّد ، كالذي يُقرأ في كتب جاك لندن عن التشرد الأميركي ، ليس في طبيعة الشخصية الإنجليزية . فالإنجليز رسٌّ مثقل الضمير بإحساس قويّ بخطيئة البؤس . ولا يمكن تخيُّلُ أن يختار الإنجليزي العادي ، عامداً ، التحولَ إلى طفيليّ ، وهذه الشخصية الوطنية لا تتغير بالضرورة لأن رجلاً صار عاطلاً عن العمل . والحقُّ أننا لو تذكرنا أن المتشرد هو مجرد إنجليزي عاطل عن العمل ، أُرغم قانونياً على العيش متصعلكاً ، لاختفى المتشرد ـ الوحش . أنا لا أقول إن معظم المتشردين هم شخصياتٌ مثالية ، بل أقول فقط إنهم بشرٌ عاديّون . وإن كانوا أسوأ من الآخرين فإن هذا نتيجةٌ لا سببٌ لطريقتهم في الحياة .

يتبع ذلك أن الموقف المتشدد المتخذ عادةً إزاء المتشردين ليس أعدلَ مما لو اتُّخِذ إزاء المقعَدين والمعطوبين . عندما يدرك المرء ذلك ، يبدأ فيضع نفسه موضع المتشرد ، ويفهم أي حياة هي حياته . إنها حياةٌ غير مجدية تماماً ، وغير مُسِرّة إطلاقاً . لقد وصفتُ بيت أبناء السبيل ـ رتابة يوم المتشرد ـ لكن ثمت شروراً ثلاثة ينبغي التأكيد عليها هنا . **الشرّ الأول** هو الجوع ، الذي يشكل القدَر العام للمتشردين . بيت أبناء السبيل يعطيهم طعاماً محدَّداً قد لا يُقصد به أن يكون كافياً ، وأي شيء سواه ينبغي الحصول عليه بالتسوّل ـ أي بمخالفة القانون . والنتيجة أن كل متشرد يعاني من سوء التغذية ، ولبرهنة ذلك تكفي ملاحظة الرجال المصطفّين خارج أي بيت لأبناء السبيل .

الشرّ الثاني في حياة المتشرد ـ وقد يبدو أهون من الشر الأول ، لكنه يستحق أن يُدرج ثانياً ـ هو أن المتشرد مقطوعٌ تماماً عن العلاقة بالنساء . هذه النقطة بحاجة إلى إيضاح .

المتشردون مقطوعون عن النساء ، في المقام الأول لأنَ قلّة قليلة جداً من النساء هنّ في هذا المستوى الاجتماعي . قد يُظَن أن الجنسين بين

المحرومين متوازنان كما في أي موضع آخر . لكن الحقيقة غير هذا ، ويمكن القول إن المجتمع تحت مستوى معيّن ، هو مجتمع ذكوريّ . والأرقام الآتية المأخوذة من مجلس لندن للأعمال الخيرية ، عن إحصاء ليلة في ١٣ شباط ١٩٣١ ، تُرينا الأعداد المقارنة للرجال المحرومين والنساء المحرومات :

قضاء الليل في الشوارع ـ ٦٠ رجلاً ، ١٨ امرأة .

في ملاجئ ومنازل غير مجازة كبيوت سكنى عامّة ـ ١٠٥٧ رجلاً ، ١٣٧ امرأة .

في حمى كنيسة سانت مارتن ـ ٨٨ رجلاً ، ١٢ امرأة .

في بيوت أبناء السبيل والمضافات العائدة لمجلس لندن ـ ٦٧٤ رجلاً ، ١٥ امرأة .

يمكن أن نرى من هذه الأرقام ، على مستوى العمل الخيريّ ، أن الرجال يفوقون النساء ، بنسبة عشرة إلى واحد . والسبب المفترض هو أن البطالة تصيب النساء أقل من الرجال ، كما أن أي امرأة مقبولة بمقدورها الارتباط برجل ، كملجأ أخير . والنتيجة هي أن المتشرد محكومٌ عليه بالعزوبية الدائمة . المتشرد ، إذ لا يجد امرأة من مستواه ، فإن أي امرأة ، من مستوى أعلى ، ولو أعلى قليلاً ، هي أبعد عن متناوله ، بُعدَ القمر . الأسباب لا تستحق النقاش ، لكن لا ريب في أن النساء لا يستجبن لمن هو أفقر منهنّ . المتشرد ، إذاً ، هو أعزب ، منذ اللحظة الأولى التي يكون فيها على الطريق . لا أمل له ، إطلاقاً ، في الحصول على زوجة ، أو عشيقة ، أو أي امرأةٍ ، باستثناء العاهرات ، إذا استطاع في النادر أن يجمع بضعة شلنات .

واضحٌ أن نتائج هذا يجب أن تكون : اللواط ، مثلاً ، وحالات الاغتصاب أحياناً . لكنْ أعمق من هذين ، هناك الانحطاط الناشئ في الرجل الذي يعرف أنه غير صالح للزواج . فالدافع الجنسي ، إن لم نُغْلِ من شأنه ، هو دافعٌ أساسيّ ، والجوع الجنسي يوهنُ المعنويات ، كالجوع الجسدي . إن شر البؤس ليس في أنه يجعل الرجل يتعذب ، وإنما في أنه يجعله يتدهور جسدياً وروحياً . ولا شك في أن الجوع الجنسي يساهم في عملية التدهور هذه . المتشرد بانقطاعه عن جنس المرأة كله ، يشعر بأن مرتبته قد هبطت

إلى مستوى المُقعد أو المجنون . ولا إذلال يمكن له أن يدمِّر أكثر ، احترامَ الذات لدى الإنسان .

الشر الثالث في حياة المتشرد هو البطالة الإجبارية . إن قوانيننا حول التشرد مرتَّبة بحيث أن المتشرد إن لم يكن سائراً على الطريق ، فسوف يكون جالساً في زنزانة ، أو ، في الفترات ، متمدداً على الأرض بانتظار أن يُفتح مأوى أبناء السبيل . جليٌّ أن هذه طريقة في الحياة كريهة وتحطُّ من الشأن ، وبخاصة للرجال المتعلمين .

وإلى هذا ، يمكن تعداد الكثير من الشرور الأقلّ ـ ولأُسَمِّ واحداً فقط هو المشقّة ، التي لا يمكن فصلها عن الحياة على الطريق ، ولنتذكّرْ أن المتشرد العادي ليس له من الثياب إلا ما يرتدي ، ومن الأحذية إلا الجزمة غير الملائمة ، وأنه لا يجلس على كرسيّ شهوراً متصلة . لكن النقطة الهامّة هي أن معاناة المتشرد ، بلا جدوى . فهو في حياة غير مقبولة إطلاقاً ، يعيشها دونما أي غاية . ولا يمكن ، حقاً ، ابتداعُ رتابةٍ أكثر عبثيةً من السير من سجن إلى سجن ، وتمضية حوالي ثماني عشرة ساعة في اليوم بين الزنزانة والطريق . إن في إنجلترا عدة آلاف من المتشردين في الأقل . وهم في كل يومٍ يصرفون عدداً لا يُحصى من وحدات طاقة العمل ـ قادرة على حرث آلاف الأكرات* ، ورصف أميالٍ من الطرق ، وتشييد العشرات من المنازل ـ يصرفونها في مجرد سَيرٍ لا نفع فيه . وكل يوم ، يُمضون فيما بينهم حوالي عشر سنين من الزمن ، في النظر إلى جدران الزنزانة . وهم يكلفون البلاد ، باوناً واحداً في الأقل ، أسبوعياً ، لكل رجل ، ولا يقدِّمون شيئاً مقابل هذا . ولا يُقصد بها أن تنفع أحداً . القانون يجعل هذه العملية تستمر ، وقد اعتدنا عليها حتى لم تعد مدعاةً للإستغراب . لكنها عملية غبية جداً .

* الأكر = ٤ آلاف متر مربع .

بعد أن تبيَّنتْ لنا عبثية حياة المتشرد ، يأتي السؤال عن إمكان فعل أي شيء لتحسينها . واضح ، أنه يمكن ، مثلاً ، جعل بيوت أبناء السبيل أفضل قليلاً للإقامة ، وهذا ما تمَّ فعله في بعض الحالات . في السنة الماضية ، تحسّنَ الوضع في بعض بيوت أبناء السبيل إلى حدٍ كبير ، لو كانت المعلومات صحيحة ، ويدور الحديث عن تعميم هذا التحسُّن . لكن هذا لا يصل إلى لُبِّ المشكلة . المشكلة هي : كيف نحوِّل المتشرد من صعلوكٍ ضجِرٍ ، نصفِ حيٍّ ، إلى كائن بشريٍّ يتمتع باحترام الذات . إن مجرد زيادة الراحة لن يؤدي إلى المطلوب . حتى لو صارت بيوت أبناء السبيل فاخرة ، فإن حياة المتشرد تظل مبدَّدة . إذ سيظل يعيش على نفقة الآخرين ، محروماً من الزواج والحياة المنزلية ، وخسارةً للمجتمع . المطلوب هو إخراجه من العيش على نفقة الآخرين ، بإيجاد عمل له . عملٍ ليس لغرض العمل ، بل عملٍ يستمتع به ، وينتفع منه . في معظم بيوت أبناء السبيل ، الآن ، لا يقوم المتشردون بأي عمل كان . مرةً ، استُخدموا لتكسير الأحجار مقابل طعامهم ، لكنَّ هذا توقّفَ لأنهم كسّروا من الأحجار ما يكفي لسنين قبل الوقت المحدد ، وجعلوا عمّال تكسير الحجر عاطلين عن العمل . أما الآن فقد أُبقيَ على بطالتهم ، إذ لا شيء لهم ليفعلوه ، كما يبدو . ثمت وسيلة بيّنةٌ تماماً لجعل المتشردين نافعين وهي هكذا بالتحديد : كل بيتٍ من بيوت أبناء السبيل باستطاعته إدارة مزرعة صغيرة ، أو بستان مطبخ في الأقل ، ويتعيَّن على كل متشرد قادرٍ على العمل ، يقدِّم نفسه ، أن يعمل عمل يوم كامل . يستخدم منتوج المزرعة أو البستان لإطعام المتشردين ، وفي أسوأ الأحوال سيكون هذا أفضل من إطعامهم الخبز والمرغرين والشاي . طبيعيٌّ أن بيوت أبناء السبيل لن تكون معتمدةً اعتماداً ذاتياً بالكامل ، لكن بمقدورها المُضيَ إلى هذا الهدف ، بل ربما حققت ربحاً في المدى البعيد . ينبغي أن نتذكر أن المتشردين ، تحت النظام الحاليّ ، هم خسارةٌ حقيقية للبلاد ، فعلاوةً على كونهم لا يؤدون أي عمل ، فإن الطعام المقدَّم إليهم

يحطم صحتهم ، هكذا يخسر النظام الحاليَ الصحةَ إضافةً إلى المال . ومن الخير أن نجرب نظاماً يقدم لهم طعاماً لائقاً ، ويجعلهم ينتجون ولو بعضاً من طعامهم .

قد يعترض معترضٌ قائلاً إن مزرعة أو حتى بستاناً لا تمكن إدارتهما بالعمل العابر . لكن ليس ثمت من سبب حقيقي يوجب على المتشردين أن يظلوا يوماً واحداً فقط في أي بيت من بيوت أبناء السبيل . فليقيموا شهراً ، أو حتى سنة ، إن كان لديهم عملٌ يؤدونه . إن الارتحال الدائم للمتشردين هو عملية مصطنعة . المتشرد في هذا الوقت هو إنفاقٌ ، وهدفُ كل بيتٍ ، إذاً ، هو دفعه إلى البيت الثاني ، ومن هنا جاءت قاعدة البقاء ليلةً واحدة . لو عاد خلال شهر ، فإنه يعاقب بالحبس أسبوعاً داخل البيت ، وهي عقوبة كالسجن ، ومن هنا يظل المتشرد يذرع الآفاق . أما إذا مَثَّلَ المتشردُ العملَ ، ومثَّلَ البيتُ الطعام الجيد له ، فإن الأمر سيتغيّر . وستتحول البيوت إلى مؤسسات تنهض بأمرها ذاتياً ، وسيكون المتشردون المقيمون هنا أو هناك حسب الحاجة إليهم ، غير متشردين .

إنهم سوف يؤدون عملاً مفيداً ، بالمقارنة ، ويحظون بطعامٍ لائق ، ويعيشون حياة مستقرة . وتدريجاً ، مع نجاح النظام ، قد يتوقف اعتبارهم عالةً ، وسيكونون قادرين على الزواج ، واحتلال مكانة محترمة في المجتمع .

إنها فكرة أوّلية فقط ، وهناك بعض الاعتراضات عليها . ومع هذا ، فإنها تقترح طريقة لتحسين حال المتشردين بدون وضع أعباء جديدة على كاهل الدولة . وينبغي ، في كل الأحوال ، أن يكون الحل من هذا النوع . فالسؤال هو ماذا نفعل بأناسٍ سيئي التغذية ، عاطلين ؟ والجواب : أن نجعلهم يزرعون ما يأكلون ـ يفرض نفسه تلقائياً .

37

أود أن أورد كلمة عن تسهيلات المنام المتاحة لشخص مشرَّد في لندن . من المستحيل في الوقت الحاضر الحصول على أي فراش في أي مؤسسة غير خيرية في لندن ، بأقلّ من سبعة بنسات للّيلة الواحدة . فإن لم يكن عندك سبعة بنسات ، فعليك اختيار أحد هذه البدائل :

١ـ سدّ الشاطئ . هنا ، حصيلة ما حدّثني به بادي عن النوم على السدّ :

«المسألة كلها مع السدّ ، أنّ عليك أن تنام مبكراً . يجب أن تكون على مصطبتك في الساعة الثامنة ، إذ لا توجد مصاطب كثيرة ، وفي بعض الأحيان تكون كلها مشغولة . ثم أن عليك أن تحاول النوم فوراً . الجو بعد الثانية عشرة أبردُ من أن تستطيع النوم فيه ، والشرطة تطردك في الساعة الرابعة . ليس من السهل أن تنام ، مع حافلات الترام المارّة عبر رأسك طوال الوقت ، والإشارات الضوئية تتخافق عبر النهر ، في عينيك . البرد قاسٍ . والذين ينامون هناك ، يلفّون أنفسهم عادةً بالصحف ، لكن هذا لا ينفع كثيراً . ستكون جدّ محظوظٍ لو استطعت أن تنام ثلاث ساعات» .

لقد نمت على السدّ ، ووجدت الأمر مطابقاً ما قاله بادي . لكن النوم على السدّ أفضل كثيراً من عدم النوم إطلاقاً ، وهو البديل إن قضيت الليل في الشوارع ، في مكانٍ غير السدّ . حسب قانون لندن ، بإمكانك الجلوس

ليلاً ، لكن الشـرطة يجب أن تطردك إذا رأتك نائماً . الاسـتثناءات الخاصة هي السدّ ، وركنٌ أو ركنان (هنالك واحدٌ خلف مسـرح الليسيوم) . واضحٌ أن القانون قطعةٌ من الهجومية الإرادية . هدف القانون ، كما يقال ، هو حماية الناس من الموت مكشوفين في العراء ، لكن الواضح أنّ رجلاً بلا مأوى ، رجلاً سوف يموت لأنه مكشوفٌ في العراء ، هذا الرجل سوف يموت ، سواء كان نائماً أم مستيقظاً . في باريس ليس من قانون كهذا ، والناس هناك ينامون بالعشرات تحت جسور نهر السين ، وفي مداخل الأبواب ، وعلى المصاطب في الساحات ، وحول فتحات تهوية المترو ، بل داخل محطات المترو . ليس من ضرر واضحٍ في الأمر . لا أحد سينام الليل في الشارع إن لم يكن مضطراً . ومادام مضطراً فالواجب أن يُسمح له بالنوم ، إن استطاع .

٢ـ **معلّقة البنسَين** ـ هذا المكان ذو منزلة أعلى قليلاً من السدّ . في معلّقة البنسَين يجلس النزلاء في صفٍ على مصطبة ، وأمامهم يمتد حبلٌ ، وهم يستطيعون الاستناد إلى الحبل مثل ما يستند المرء إلى سياج . وهناك رجل ، يدعى الحاجب تفكُّهاً ، يقطع الحبل في الخامسة صباحاً . لم أكن هناك ، قَطُّ . لكن بوزو كان هناك مراتٍ عدة . سألته إن كان بمقدور أحدٍ أن ينام في مثل ذلك الوضع ، فقال إن النوم هناك أكثر إراحة مما يظهر ـ وعلى أي حال أفضل من النوم على الأرض العارية . توجد في باريس أماكن مماثلة ، لكن الأجرة هناك خمسة وعشرون سنتيماً (نصف بنس) بدلاً من بنسَين هنا .

٣ـ **التابوت** ، بأربعة بنسات للّيلة الواحدة . في التابوت ، أنت تنام في صندوق خشبيّ ، يغطيك قماشٌ مشمَّع . التابوت بارد ، وأسوأ ما فيه البقّ ، إذ لا منجاة لك منه مادمتَ مغلقاً عليك في صندوق .

أعلى من هذه ، تأتي بيوت الإقامة العامّة ، التي تتراوح أسعارها بين سبعة بنسات ، وشلن وبنس . أفضلها منازل روتون ، حيث السعر شلن واحد ، وحيث تخصص لك مقصورة ، وتنتفع بحمّامات ممتازة . وتستطيع أن

تدفع نصف كراون لحجرة «خاصة» مجهزة، بالفعل، تجهيز حجرة فندق.
منازل روتون مبانٍ ممتازة، والاعتراض الوحيد عليها هو نظامها الصارم، إذ لا يسمح بالطبخ، ولعب الورق، الخ.

ربما كان أفضل إعلان لمنازل روتون أنها مشغولة دائماً حدَّ الامتلاء.
منازل بروس أيضاً، وأجرتها شلن وبنس، ممتازة.

تليها، في النظافة، مضافات جيش الخلاص، وأجرتها سبعة بنسات أو ثمانية. وهي تختلف (كنت في واحدة أو اثنتين لا تختلفان كثيراً عن بيوت الإقامة العادية)، لكن معظمها نظيفة، جيدة الحمامات، لكنّ عليك أن تدفع مبلغاً إضافياً للحمّام. وبإمكانك الحصول على مقصورة بشلن. في مَبيتات الثمانية بنسات، الأفرشة مريحة، لكنّ منها الكثير (أربعين فراشاً في الغرفة الواحدة عادةً)، وهي متقاربة مع بعضها، بحيث أن ليلتك لن تكون هادئة. التقييدات الكثيرة تفوح منها رائحة السجن أو المؤسسة الخيرية. ومضافات جيش الخلاص يرغب فيها أولئك الذين يضعون النظافة قبل أي شيء آخر.

وهناك بيوت الإقامة العامة، وهي ـ سواء دفعتَ سبعة بنسات أو شلناً ـ مزدحمة صاخبة كلها، وأفرشتُها قذرة وغير مريحة. ومما يعوِّض عن هذا جوُّها المتساهل، والمطابخ الشبيهة بمطابخ المنزل، حيث بإمكان المرء التمدد مسترخياً طوال ساعات النهار أو الليل. إنها حجراتٌ صغيرة قذرة، لكنّ فيها نوعاً من الحياة الاجتماعية الممكنة. ويقال إن بيوت إقامة النساء أسوأ بكثير من تلك التي للرجال، وثمت بيوت جدّ قليلة لإيواء المتزوجين. والواقع أن إقامة الزوج في مكان، والزوجة في مكان آخر، أمرٌ شائع.

في اللحظة هذه، يقيم خمسة عشر ألف شخص على الأقل، بلندن، في بيوت الإقامة العامة. فبالنسبة لشخص غير مرتبط، يكسب باونين في الأسبوع، أو أقل، يمثل بيت الإقامة، موئلاً مناسباً جداً. من الصعب أن يحصل على غرفة مؤثثة بمثل هذا الرخص، كما أن بيوت الإقامة تقدم له تدفئة مجانية، وحمّاماً، ومجتمعاً. أما القذارة فهي أهون الشرور. والسوء

الحقيقي في بيوت الإقامة ، أنها أماكن يدفع فيها المرء المال كي ينام ، بينما النوم العميق مستحيل . وكل ما يتلقّاه الشخص مقابل نقوده سريرٌ طوله خمسة أقدام وست بوصات ، وعرضه قدمان وست بوصات ، مع حشيّةٍ حدباء قاسية ، ووسادة كقطعة من اللوح مغطّاة بوجهٍ قطني ، وملاءتان رماديتان منتنتان . وفي الشتاء تعطى بطانيات ، لكنها غير كافية إطلاقاً . والفراش في غرفة حيث لا يكون عدد الأسرّة أقل من خمسة ، وفي بعض الأحيان يكون العدد خمسين أو ستين ، يبعد الواحد عن الآخر ياردةً أو اثنتين . ومن الطبيعي ألاّ يستطيع أحدٌ النوم عميقاً في مثل هذه الظروف . والأماكن الوحيدة الأخرى التي يُحشر فيها الناس هكذا هي الثكنات والمستشفيات . في الردهات العامة بالمستشفيات لا يأمل أحدٌ حتى بالنوم جيداً . في الثكنات يزدحم الجنود ، لكنّ أفرشتهم جيدة ، وهم أصحّاء ؛ أما في بيوت الإقامة العامة فيكاد النزلاء جميعاً يعانون من السعال المزمن ، ويشكون من أمراض في المثانة تجعلهم يستيقظون طوال ساعات الليل . والنتيجة رائحة كريهة تجعل النوم مستحيلاً . وحسب ملاحظتي ، لا يستطيع أي نزيلٍ هنا أن ينام أكثر من خمس ساعات ، في الليل ـ وهذا غشٌ فاضحٌ عندما يدفع المرء سبعة بنسات أو أكثر .

هنا ، بإمكان التشريع أن يفعل شيئاً . في الوقت الحاضر يصدر مجلس لندن كل أنواع التشريع بصدد بيوت الإقامة ، لكن أياً من هذه التشريعات ليس لصالح النزلاء . إن المجلس لا يكلف نفسه إلا الأمر بمنع القمار والعراك ، الخ . الخ . وليس هناك قانون يقضي بأن تكون الأفرشة في بيوت الإقامة مريحة . إن قانوناً كهذا يمكن تطبيقه ، أسهل من منع القمار مثلاً . يجب أن يُلزَم أصحاب بيوت الإقامة بتوفير ملاءات كافية وحشيّات أفضل ، وفوق هذا كله ، بتقسيم مهاجعهم إلى مقاصير . لا يهم إن كانت المقصورة صغيرة ، الشيء الهام هو أن الشخص يجب أن ينام وحده . هذه التغييرات القليلة ، حين يُلتزَم بتطبيقها ، ستؤدي إلى وضع مختلف جداً . ليس

مستحيلاً جعلُ بيت الإقامة مريحاً بصورة معقولة ، مع الأسعار السائدة . في بيت الإقامة البلدي بكرويدن ، مقاصير ، وأفرشة جيدة ، وكراسيَ (ترفٌ نادرٌ في بيوت الإقامة) ، ومطابخ فوق الأرض ، بدلاً من أن تكون في القبو تحت الأرض . وليس من سبب في ألاّ يكون بهذا المستوى كلُّ بيتِ إقامةٍ ذي تسعة بنسات .

سوف يعارض أصحاب بيوت الإقامة ، طبعاً ، أي تحسينٍ ، لأن تجارتهم الآن رابحة ربحاً فاحشاً . البيت الواحد يربح بين خمسة باونات إلى عشرة في الليلة الواحدة ، وليس ثمت أفرشةٌ بالدَّين (الدَّين ممنوع بتاتاً) ، والنفقات قليلة باستثناء إيجار المبنى . أي تحسينٍ يعني ازدحاماً أقل ، ويعني بالتالي أرباحاً أقل . لكن بيت إقامة كرويدن الممتاز يبيّن إلى أي حدٍّ يمكن أن تقدَّمَ خدمات جيدة مقابل تسعة بنسات . قوانين قليلة جيدة التوجه يمكنها أن تجعل هذه الشروط عامّةً . وإن أرادت السلطات أن تهتمَّ فعلاً ببيوت الإقامة ، فعليها أن تجعلها أكثر راحةً ، لا أن تُوالي تقييداتها الغبية التي لا يمكن احتمالها في فندق .

38

بعد أن تركنا السبايك في بينفيلد السفلى ، أنا وبادي ، وكسبنا نصف كراون من التعشيب والتنظيف في حديقة أحدهم ، بتنا ليلة في كروملي ، وسرنا عائدين إلى لندن . افترقتُ عن بادي بعد يوم أو يومين . أقرضني «ب» آخر باونين ، وبما أن أمامي تسعة أيام فقط من الصبر ، كان ذلك نهاية متاعبي . لقد ظهر أن معتوهي المروَّض أسوأ مما توقعتُ ، لكنه ليس أسوأ من أن يجعلني أرغب في العودة إلى السبايك ، أو إلى أوبرج جيان كوتار .

بادي توجّه إلى بورتسموث حيث قد يجد صديقٌ هناك عملاً له ، فلم أره مُذّاك . قبل وقتٍ قصير ، أُخبرتُ بأنه قُتل في حادث سير ، لكنَ الخبر قد يخصُ شخصاً آخر . لم أسمع عن بوزو إلا قبل ثلاثة أيام . إنه في واندز ورث ـ سجينٌ لمدة أربعة عشر يوماً بتهمة التسوّل . لا أعتقد أن السجن يقلقه كثيراً .

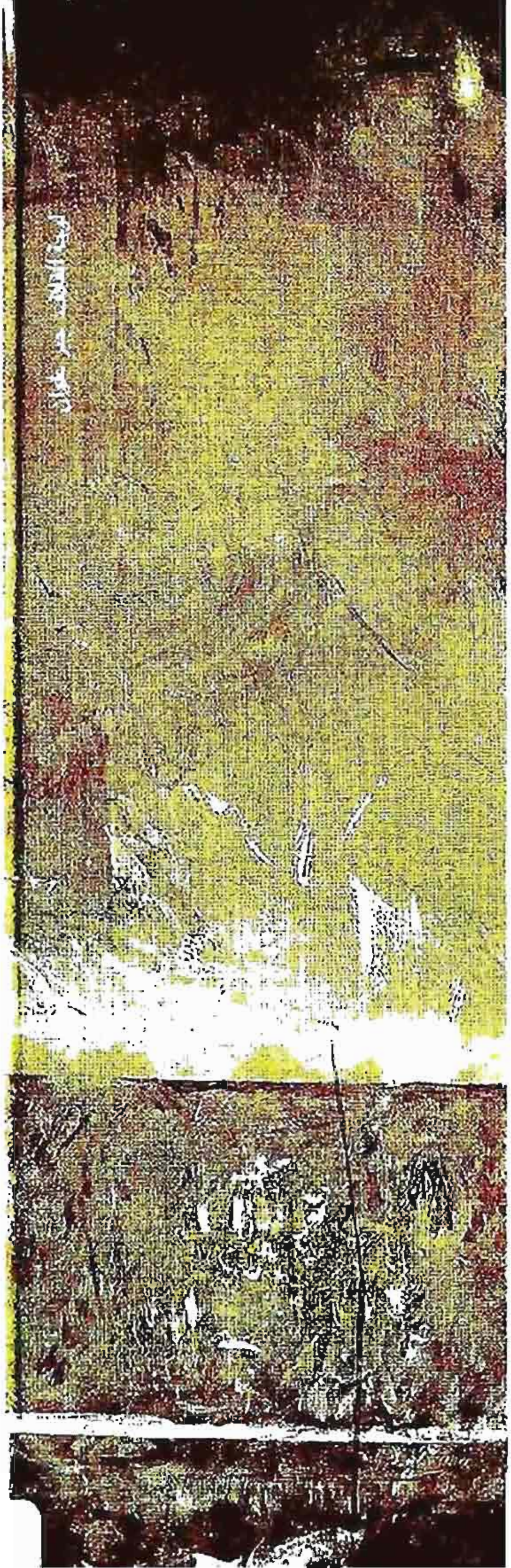
قصتي تنتهي هنا . إنها قصة تافهة تماماً ، ولا آملُ إلا في أنها كانت ممتعة ، شأن يوميات السفر . أستطيع القول ، في الأقل ، هنا العالم الذي ينتظرك إن كنتَ مفلساً . في أحد الأيام أريد أن أستكشف العالم بصورة أكثر تدقيقاً . عليَّ أن أعرف أُناساً مثل ماريو وبادي وبيل الخطّاف ، لا في لقاءات عابرة ، وإنما في لقاءات حميمة ، أريد أن أعرف ما يدور ، حقاً ،

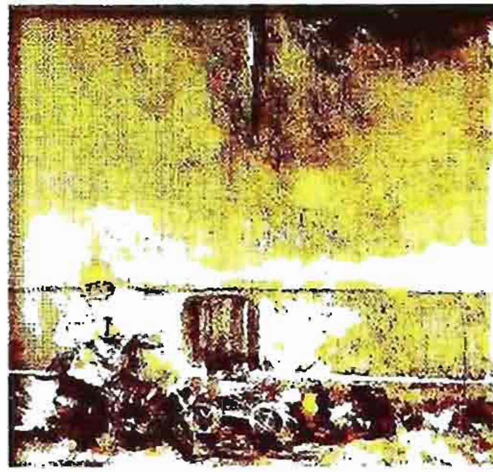
في نفوس غاسلي الصحون والمتشردين والنائمين على السدّ . في الوقت الحاضر أشعر أنني لم أعرف من البؤس إلاّ حافته .

لكني قادرٌ على الإشارة إلى أمرٍ أو أمرين تعلمتُها جيداً في محنتي . لن أفكر ثانيةً بأن كل المتشردين هم أوغادٌ سكيرون ، ولن أتوقع أن يكون متسوِّلٌ ممتناً حين أعطيه بنساً ، ولن يدهشني أن يكون العاطلون يفتقدون الطاقة على العمل ، وأن يشتركوا في جيش الخلاص ، وأن أرهن ملابسي ، وأنني لن أرفض إعلاناً يدوياً ، ولن ألتذَّ بوجبةٍ في مطعمٍ فاخر .

إنها لَبدايةٌ .

ـ انتهت الرواية ـ





جورج أورويل (١٩٠٣ ـ ١٩٥٠) يقال عنه إنه الكاتب العبقري الوحيد في فترة ما بين الحربين .

قُدِّم أورويل إلى اللغة العربية على مقاس الحرب الباردة ، في روايتيه «مزرعة الحيوان» و«١٩٨٤» ، بينما أُهملت أعمالٌ عظيمةٌ له ، مثل «أيامُ بورميةٌ» و«ذكرى كاتالونيا» ، لأن هذه الأعمال مرتبطة بفترته اليسارية ، المديدة ، الجميلة .

«متشرداً في باريس ولندن» هي من تلك الفترة ، وإذ نقلتُها إلى اللغة العربية حاولتُ أن أكمل صورة أورويل ، بدلاً من اجتزائها . هذه الرواية ، إلى جانب ما تقدمه من فنٍ ، تقدم لوحةً عجيبة لما لحق بالإنسان البسيط من ظلمٍ فادحٍ ، تحت وطأةِ رأسماليةٍ شرسة ، رأسمالية العقد الثالث من قرننا المرتحل .

س . ي